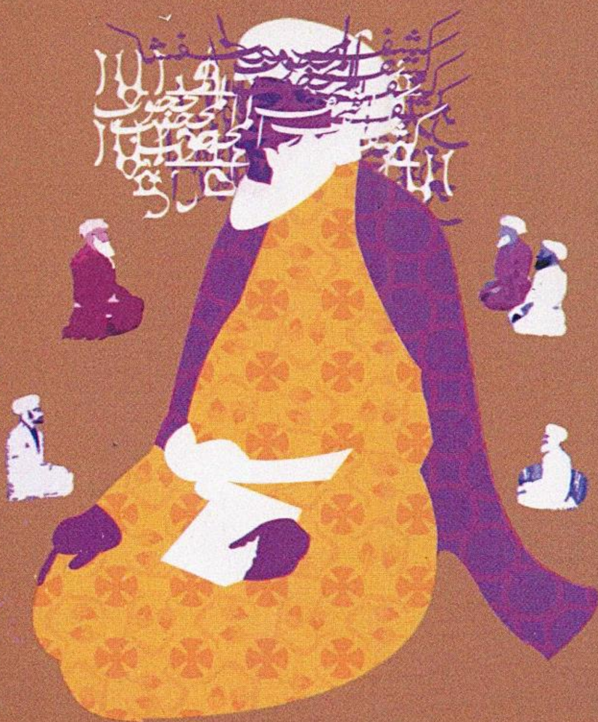
الهجويرى

ميراث الترجمة

كشف المحجوب

دراسة و ترجمة و تعليق
إسعاد عبد الهادى قنديل
مراجعة و تقديم : بديع جمعة
الجزء الثانى



المشروع القومى للترجمة

1043

كشف المحجوب

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر : طلعت الشايب

- العدد : ١٠٤٢
- كشف المحجوب (الجزء الثانى)
- أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى
- إسعاد عبد الهادى قنديل
- بديع جمعة
- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

كشف المحجوب

تأليف : أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الغزنوى الهجويرى

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومى للترجمة

كشف المحجوب

(الجزء الثانى)

تـأليـف : أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى

دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادى قنديل

تـقـديـم : بديع جمعـة



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الهجويرى ، أبو الحسن على بن عثمان .
كشف المحجوب / تأليف : أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى ؛ دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادى قنديل ؛ تقديم : بديع جمعة - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ ؛ ٣١٦ ص - ٢٤ سم ؛ مج ٢
١ - التصوف الإسلامى . ٢٦٠
(أ) قنديل ، إسعاد عبد الهادى (دراسة ومترجمة ومعلق) .
(ب) جمعة ؛ بديع (مقدم) .
(جـ) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٩٦١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 955 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

كشف المحجوب للهجويري

الجزء الثاني

دراسة وترجمة وتعليق
دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل

راجع الترجمة
دكتور أمين عبد المجيد بدوي

والآن : فلنعد الى الفرق بين فرقهم فى المذاهب ، وبيان كل منها ، وبالله العون والعصمة والسداد .

الباب الرابع عشر

باب فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم ومقاماتهم وحكاياتهم

وكنت قبل هذا قد قلت فى ذكر ابى الحسن النورى رحمه الله أن الصوفية اثنتا عشرة فرقة ، اثنتان منها مردودتان وعشر مقبولة . ولكل صنف منهم معاملة طيبة ، وطريق محمودة فى المجاهدات ، وادب لطيف فى المشاهدات . ومهما كانوا مختلفين فى المعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، فانهم موافقون ومتفقون فى أصول وفروع الشرع والتوحيد . وقد قال أبو يزيد رضى الله عنه : « اختلاف العلماء رحمة الا فى تجريد التوحيد(١) » . ويتفق مع هذا خبر مشهور .

وحقيقة التصوف كائنة بين أخبار المشايخ من وجه الحقيقة ، ومقسومة من وجه المجاز والرسوم . وسأختصر القول وأوجزه فى بيان المقسوم ، وابسطه فى أصل مذهب كل منهم ، ليحصل للطالب علم ذلك ، ويكون سلاحا للعلماء ، وصلاحا للمريدين ، وفلاحا للمحبين ، ونجاحا للعقلاء ، وتنبيها لأرباب المروءة ، وثوابا لى فى الدارين ؛ وبالله العون والتوفيق ؛ وحسبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : (انظر ص ٧٠) .
ويلاحظ أن ما يرد بين علامات التنصيص وارد فى الأصل الفارسى باللغة العربيـة .

المحاسبية

أما المحاسبيون فينتمون الى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى رضى الله عنه ، وكان باتفاق جميع أهل زمانه مقبول النفس والقول ، وعالما بأصول الحقائق وفروعها ، ويجرى كلامه فى تجريد التوحيد بصحة المعاملة الظاهرة والباطنة . ونادرة مذهبه هى انه لا يقول بأن الرضا من جملة المقامات ، فيقول انه من جملة الأحوال . وقد بدأ بهذا الخلاف ، ثم قال به أهل خراسان. وقال العراقيون بأن الرضا من جملة المقامات ، وأنه نهاية التوكل(١) . وما زال هذا الخلاف باقيا بين القوم الى اليوم . ونبين الآن هذا القول ان شاء الله .

الكلام فى حقيقة الرضا : والشرط فى بيان هذا المذهب هو ان نثبت أولا حقيقة الرضا ، ونوضح اقسامه ، ثم نأتى بحقيقة الحال والمقام والفرق بينهما ان شاء الله عز وجل .

اعلم ان الكتاب والسنة ناطقان بذكر الرضا ، والأمة مجتمعة على ذلك « لقوله تعالى : رضى الله عنهم ورضوا عنه(٢) » ، « وقوله تعالى : لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة(٣) » ، وقوله عليه السلام : « ذاق طعم الايمان من قد رضى بالله ربا(٤) » .

والرضا على نوعين : احدهما ، رضاء الله عن العبد ، والثانى : رضاء العبد عن الله تعالى وتقدس .

---

(١) ورد فى « الرسالة » عكس هذا تماما ، فالقشيرى يقول : « وقد اختلف العراقيون والخرسانيون فى الرضا : هل هو من الاحوال ، أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه : انه يئول الى انه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه . واما العراقيون فانهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال . ويمكن الجمع بين اللسانين ، فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة » . (انظر : الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٢) .

(٢) سورة « المائدة » آية ١١٩ .

(٣) سورة « الفتح » آية ١٨ .

(٤) رواه احمد فى مسنده ، وابو مسلم والترمذى عن العباس بن عبد المطلب ، (انظر شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩) .

اما حقيقة رضاء الله عز وجل فهى ارادة الثواب والنعمة والكرامة للعبد ، وحقيقة رضاء العبد هى اقامته على أوامر الله والخضوع لأحكامه ، فرضاء الله تعالى مقدم على رضاء العبد ، لأنه ما لم يكن توفيقه جل جلاله ، فان العبد لا يخضع لحكمه ، ولا يقيم على مراده تعالى وتقدس ؛ لأن رضاء العبد مقرون برضاء الله عز وجل، وقيامه به .

وفى الجملة : فان رضاء العبد هو استواء قلبه على طرفى القضاء : اما منع ، واما عطاء ، واستقامة سره على مشاهدة الأحوال : اما جلال ، واما جمال ، بحيث أنه اذا وقف بالمنع أو سبق بالعطاء ، فان ذلك يتساوى لدى رضائه . واذا احترق بنار هيبة الحق وجلاله ، أو أضاء بنور لطفه وجماله ، يستوى لدى قلبه الاحتراق والاضاءة ، لأن ذلك عنده شاهد الحق ، وكل ما يكون من الحق فهو خير كله له ، اذا رضى بقضائه .

وقد سئل لمير المؤمنين الحسين بن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه عن قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « الفقر الى احب من الفنى ، والسقم أحب الى من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذر ، أما انا فاقول : من أشرف على حسن اختيار الله ، لم يتمن غير ما أختار الله له(١) » . ذلك أن العبد اذا راى اختيار الحق ، أعرض عن اختيار نفسه ، ونجا من كل الهموم . وهذا لا يصح فى الغيبة ، وانما ينبغى لهذا الحضور ، « لأن الرضا للأحزان نافية ، وللغفلة معافية » .

اى أن الرضا يخلص المرء من الهموم ، وينتزعه من مخالب الغفلة ، ويمحو من قلبه التفكير فى الغير ، ويحرره من قيد المشقات ، لأن صفة الرضا الانقاذ .

أما حقيقة معاملات الرضا ، فهى رضاء العبد بعلم الله عز وجل ، واعتقاده بأن الله تعالى بصير به فى جميع الأحوال . واهل هذا على اربعة اقسام :

طائفة راضون من الحق تعالى بالعطاء ، وتلك هى المعرفة .

وطائفة راضوان منه بالنعماء ، وتلك هى الدنيا .

وطائفة راضون منه بالبلاء ، وتلك هى المحن المختلفة .

وطائفة راضون منه بالاصطفاء ، وتلك هى المحبة .

---

(١) ورد فى الرسالة : من اتكل على حسن اختيار الله (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٥) .

فمن ينظر من المعطى الى العطاء يقبله بالروح ، واذا قبله تزول من قلبه الكلفة والمشقة . ومن ينظر من العطاء الى المعطى يعجز بالعطاء ، ويسلك طريق الرضا بالتكلف ، وفى التكلف كل الآلام والمشقة . ثم ان المعرفة تكون حقيقة حين يكون العبد مكاشفا فى حق المعرفة ؛ وحين تكون المعرفة حبسا له وحجابا تكون نكرا ، وتكون النعمة نقمة ، والعطاء غطاء .

ومن يرضى منه بالدنيا يكون فى الهلاك والخسران ، ويكون رضاؤه كله نيرانا ، لأن (الدنيا) بأسرها لا تساوى ان يشغل بها حبيب باله ، أو أن يخطر أى هم من همومها على قلبه . والنعمة هى تلك النعمة التى تهدى الى المنعم ، فاذا كانت حجابا عن المنعم ، فانها تكون بلاء .

ومن يرضى منه بالبلاء ، هو الذى يرى المبلى فى البلاء ، ويستطيع تحمل مشقة البلاء بمشاهدة المبلى ، ولا يرى الالم الما بمسرة مشاهدة الحبيب .

ومن يرضون باصطفاء الحبيب ، أولئك هم أحباؤه ، لأن وجودهم فى الرضا والسخط يكون عارية ، فلا تكون منازل قلوبهم الا فى الحضرة ، ومضارب أسرارهم الا فى روضة الأنس ، فهم حضور غائبون ، ووحشيون عرشيون ، وجسمانيون روحانيون ، وموحدون ربانيون : قد تحررت قلوبهم من الخلق ، وتخلصت من قيود المقامات والأحوال ، وانقطعت اسرارهم عن المكونات ، وحزموا خصورهم للمحبة « كما قال الله تعالى : لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا(١) » ، فالرضا بالغير خسران ، والرضا به رضوان ، لأن الرضا به ملك صريح ، وبداية للعافية . « وقال النبى عليه السلام : من لم يرض بالله وبقضائه شغل قلبه وتعب بدنه(٢) » ، والله أعلم .

فصل : وفى الآثار ان موسى عليه السلام قال : « اللهم دلنى على عمل اذا عملته رضيت عنى . فقال انك لا تطيق ذلك يا موسى ! فخر موسى عليه السلام ساجدا له متضرعا ، فأوحى الله تعالى اليه : يا ابن عمران ! ان رضاى فى رضاك بقضائى(٣) » . يعنى : حين يكون العبد راضيا بقضاء الحق ، فذلك علامة ان الله تعالى راض عنه .

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٣ .

(٢) ورد فى الجامع الصغير عن انس : « من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس الها غير الله (ض) شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٣) ورد فى الرسالة (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٣) .

سال بشر الحافى الفضيل بن عياض ، رضى الله عنهما : الزهد أفضل ام الرضا ؟ فقال الفضيل : « الرضا افضل من الزهد لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته(١) » .

اى ان فوق منزلة الزهد منزلة اخرى يتمناها الزاهد ، وليس فوق الرضا منزلة يتمناها الراضى ، فالحضرة افضل من العتبة .

وهذه الحكاية دليل على صحة قول المحاسبى ان الرضا من جملة الأحوال ومن مواهب ذى الجلال ؛ لا من مكاسب العبد واحتياله . ويحتمل ايضا ان لا يكون للراضى تمن .

ويرد عن النبى عليه السلام انه كان يقول فى دعواته : « أسألك الرضا بعد القضاء » ، اى : اجعلنى بحيث اذا حل بى قضاؤك المقدر يجدنى راضيا بوروده ؛ فصح هنا ان الرضا لا يصح قبل ورود القضاء ؛ لأنه يكون عزما على الرضا ؛ والعزم على الرضا لا يكون عين الرضا .

يقول ابو العباس بن عطاء رضى الله عنه : « الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله للعبد(٢) » . يعنى أن يعرف العبد أن كل ما يلحق به قد اقتضته ارادة قديمة وحكم سابق عليه ، فلا يضطرب ، ويطيب قلبه .

ويقول الحارث المحاسبى صاحب المذهب : « الرضا : سكون القلب تحت مجارى الأحكام(٣) » . ومذهبه فى هذا قوى ، لأن سكون القلب وطمأنينته ليسا من مكاسب العبد ، بل من مواهب الله جل جلاله . ويدل على أن الرضا من الأحوال لا من المقامات ما قيل من أن عتبة الغلام(٤) لم ينم ليلة ، وظل يقول حتى الصباح : « ان تعذبنى فأنا لك محب ، وان ترحمنى فأنا لك

---

(١) ورد بنصه فى الرسالة : (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٥) .

(٢،٣) وردا بنصهما فى الرسالة (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٦) ، وفى التعرف (انظر : ص ١٠٢) ، وفى اللمع (انظر : ص ٨٠) .

(٤) « عتبة الغلام » : هو عتبة بن ابان ، وسمى بالغلام لأنه كان فى العبادة كأنه غلام رهبان ، لا لصغر سنه . كان يأوى الى المقابر والصحارى ويخرج الى السواحل فيقيم فيها فاذا جاء يوم الجمعة دخل البصرة فيشهد الجمعة ثم يأتى اخوانه فيسلم عليهم . وكان قد غلب عليه الحزن ، وكانوا يشبهونه فى الحزن بالحسن البصرى . مات شهيدا فى قتال الروم . وكان يهجع بعد العشاء شيئا يسيرا ثم يقوم الى الصباح (طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٣٧) .

محب(١) » . اى ان الم العذاب ولذة النعمة يكونان على الجسـد ، وقلق المحبة يكون فى القلب ، وهذا لا يضر ذاك . وهذا الكلام يؤكد قول المحاسبى ان الرضا نتيجة للمحبة ،لان المحب يرضى بما يفعله المحبوب ، فاذا تعذب يسعد بالمحبة ، واذا تنعم لا يحجب عن المحبة ، ويترك اختياره فى مقابل اختيـار الحق .

ويقول ابو عثمان الحيرى رضى الله عنه : « منذ اربعين سنة ما اقامنى الله عز وجل فى حال فكرهته ، وما نقلنى الى غيره فسخطته(٢) » . وهذا اشارة الى دوام الرضا وكمال المحبة .

ومشهور فى الحكايات ان درويشا وقع فى دجلة(٣) ولم يكن يعرف السباحة فقال له رجل على الشاطىء : اتريد ان انبه احدا ليخرجك ؟ قال : لا . فقال : اتريد أن تغرق ؟ قال : لا . فقال له : ماذا تريد اذن ؟ قال : ما يريده الحق لى ! ما شأنى بالارادة ؟

وللمشايخ رضى الله عنهم فى الرضا كلام كثير على اختلاف العبارات ، اما القاعدة فهى هذان الأصلان اللذان ذكرتهما ، واقتصرت على هذا تركا للتطويل . ولكن ينبغى هنا ان اذكر الفرق بين المقام والحال ، وابين حدودهما ، ليكون ادراك هذه المعانى اسهل عليك وعلى قراء الكتاب ، ويعرفوا هـذه الحدود ان شاء الله تعالى .

الفرق بين المقام والحال : اعلم ان هذين اللفظين مستعملان بين هـذه الطائفة ، جاريان فى عباراتهم ، متداولان فى علوم وبيان المحققين ، ولا مندوحة

(١،٢) وردا فى الرسالة : (انظر ج ٢ ص ٤٢٧) .

(٣) دجلة : نهر بغداد ، لا تدخله الألف واللام ، واول مخرج دجلة من موضع يقال له عين دجلة ، وينصب فيه أنهار عديدة أولها نهر بأرض الروم يقال له نهر الكلاب . قال فيه ابو العلاء المعرى :

سـقيا لدجلـة والدنيـا مفـرقة — حتى يعـود اجتماع النجم تشـتيتا
وبعـدها لا احب الشرب من نهـر — كأنمـا انا من اصـحاب طالوتـا

(معجم البلدان : ج ٢ ص ٥٥١ ــ ٥٥٣) .

للطالب عن العلم بهما . وليس هذا الباب موضع اثبات هذه الحدود ، ولكن لا مناص من اعلام ذلك فى هذا المحل ، والله اعلم .

اعلم ان « المقام » برفع الميم هو الاقامة ، وبنصب الميم هو محل الاقامة . وهذا التفصيل والمعنى فى لفظ « مقام » سهو وغلط . وفى العربية « مقام » بضم الميم هو الاقامة ومكان الاقامة ، و « مقام » بفتح الميم هو القيام ومكان القيام ، لا مكان اقامة العبد فى طريق الحق ، واداؤه ورعايته حق ذلك المقام ليدرك كماله ، بقدر ما يستطيع الآدمى . ولا يجوز أن ينتقل من مقامه دون أن يقضى حقه ، فمثلا اول المقامات التوبة ، ثم الانابة ، ثم الزهد ، ثم التوكل، وما شابه ذلك ، فلا يجوز ان يدعى الانابة دون التوبة ، او يدعى التوكل دون الزهد . وقد اخبرنا الله تعالى عن جبريل عليه السلام انه قال : « وما منا الا له مقام معلوم(١) » .

ثم ان الحال معنى يرد من الحق الى القلب دون ان يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد ، او جذبه بالتكلف حين يذهب .

فالمقام عبارة عن طريق الطالب وموضعه فى محل الاجتهاد ، وتكون درجته بمقدار اكتسابه فى حضرة الحق تعالى .

والحال عبارة عن فضل الله تعالى ولطفه الى قلب العبد ، دون أن يكون لمجاهدته تعلق به ، لأن المقام من جملة الأعمال ، والحال من جملة الأفضال . والمقام من جملة المكاسب ، والحال من جملة المواهب ، فصاحب المقام قائم بمجاهدته ، وصاحب الحال فان عن نفسه ، ويكون قيامه بحال يخلقه الحق تعالى فيه .

والمشايخ رضى الله عنهم مختلفون هنا ، ففريق يجيزون دوام الحال ، وفريق لا يجيزونه .

والحارث المحاسبى رضى الله عنه يجيز دوام الحال ، ويقول ان المحبة والشوق والقبض والبسط كلها احوال ، فاذا كان دوامها غير جائز فلا المحب محب ، ولا المشتاق مشتاق . وما لم يصر هذا الحال صفة للعبد فلا يقع عليه اسمه ، ولذا فهو يقول ان الرضا من جملة الأحوال . والاشارة الى ذلك

---

(١) سورة « الصافات » آية ١٦٤ .

ما قاله ابو عثمان الحيرى : « منذ اربعين سنة ما اقامنى الحق على حال فكرهته » .

وجماعة اخرى لا يجيزون بقاء الحال ودوامه ، كقول الجنيد رضى الله عنه : « الاحوال كالبروق فان بقيت فحديث نفس(١) » . وقالت جماعة فى هذا المعنى : « الاحوال كاسمها ، يعنى انها كما تحل بالقلب تزول فى الوقت(٢) » اى انها فى حال الحلول تتصل بالقلب ، وتزول فى ثانى الحال ، وما يبقى يصير صفة ، وقيام الصفة بالموصوف ، وينبغى ان يكون الموصوف اكمل من صفته ، وهذا محال . وقد جئت بهذا الفرق حتى اذا ما رايت (كلمة) الحال والمقام فى عبارات هذه الطائفة ، وفى هذا الكتاب ، تعرف ما هو المراد بهما .

وفى الجملة : اعلم ان الرضا نهاية المقامات وبداية الأحوال ، وهو محل احد طرفيه فى الكسب والاجتهاد ، والثانى فى المحبة وغليانها ، وليس فوقه مقام ، وفيه تنقطع المجاهدة ، فبدايته من المكاسب ، ونهايته من المواهب . ويحتمل الآن ان من راوا فى البداية رضاء انفسهم بأنفسهم ، قالوا انه المقام ، ومن راوا فى النهاية رضاءهم بالحق ، قالوا انه الحال .

هذا هو حكم مذهب المحاسبى فى أصل التصوف ، ولكنه لم يختلف فى المعاملات ، الا فى انه كان يزجر المريدين عن العبارات والمعاملات التى كان يتوهم فيها الخطأ مهما كان اصلها صحيحا ، كما حدث حين دخل عليه ابو حمزة البغدادى احد مريديه ، وكان رجلا مستمعا وصاحب حال ، وكان للحارث « شاه مرغ »(٣) ، اى ديك يصيح ، فصاح فى تلك الساعة ، فصرخ ابو حمزة ، فنهض الحارث وامسك السكين وقال له : كفرت ! وقصد قتله . فوقع المريدون على اقدام الشيخ وابعدوه عنه . وقال لأبى حمزة : اسلم يا مطرود ! فقالوا له : ايها الشيخ ! لقد عرفناه جميعا من خواص الأولياء ، ونراه من جملة الموحدين ، فما سبب شك الشيخ فيه ؟ فقال الحارث : انا لا اشك فيه ، ولا انظر اليه بغير الخير ، ولا أرى باطنه الا مستغرقا فى التوحيد . ولكن

(١و٢) وردا فى الرسالة . (انظر ج ١ ص ١٩٣) .

(٣) « شاه مرغ » : كلمة فارسية معناها الدجاجة الكبيرة ، وقد وضعنا بازائها كلمة (ديك) بقرينة الصياح . وقد ذكرت هذه الكلمة بلفظها فى اللمع (ص ٤٩٥) عند الاشارة الى هذه الحكاية فى ذكر ابى حمزة الصوفى البغدادى . وهذه الكلمة غير مستعملة الان بين اهل اللغة ولا ذكر لها بالمعاجم الفارسية وقد ذكرت فقط فى قاموس الكلمات الفارسية فى اللغة العربية : (شاهمرك) على انها محرفة عن (شاه مرغ) ، ومستعملة بين سكان سواحل الخليج الفارسى ، وأن معناها اللفظى : الدجاجة الكبيرة (انظر : « واژه هاى فارسى در زبان عربى » ص ٣٩٥) .

لم ينبغى له أن يفعل شيئا شبيها بأفعال الحلوليين حتى يبدو فى معاملته أثر من مقالاتهم ؟ فالطائر الذى لا عقل له ويصيح جريا على عادته وهواه ، لماذا يستمع اليه مع الحق ، والحق تعالى غير متجزىء ، وأحباؤه لا يطمئنون الى غير كلامه ، ولا وقت ولا حال لهم بغير التسليم له ، ولا نزول ولا حلول له فى الأشياء ، ولا يجوز على القديم الاتحاد والامتزاج . فلما رأى ابو حمزة وقتئذ نظر الشيخ قال : ايها الشيخ ! مهما كنت على صواب فى الأصل فانه ما دام فعلى شبيها بفعل أولئك القوم فقد تبت ! وأناب .

وله طرف كثيرة من هذا النوع ، وقد اختصرت .

وهذا طريق محمود جدا ، وطريق للسلامة فى الصحو بلا تكسير ، على الكمال . وقال النبى عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » . وانا على بن عثمان الجلابى أطلب دائما من الله تعالى أن يهبنى مثل هذه المعاملة ، وهذا لا يستقيم مع صحبة المترسمين فى هذا الزمان ، لأنك اذا لم ترائهم فى المعصية ، عادوك ، فنعوذ بالله من الجهل والضلالة .

القصارية

وأما القصاريون فينتمون الى ابى صالح حمدون بن احمد بن عمارة القصار رضى الله عنه ، وكان من العلماء الكبار وسادات هذه الطريقة . وكان طريقه اظهار ونشر الملامة ، وله فى فنون المعاملات كلام عال . وكان رضى الله عنه يقول : ينبغى ان يكون علم الحق بك اطيب من علم الخلق . اى إن تكون معاملتك مع الحق فى الخلا احسن من معاملتك مع الخلق فى الملا ، لان الحجاب الأعظم عن الحق هو انشغال قلبك بالخلق . وقد أوردت هذا فى باب الملامة فى بداية الكتاب ، واختصرت فى ذلك تركا للتطويل .

ومن نوادر حكاياته أنه يقول : كنت أسير يوما على شاطىء النهر بحيرة نيسابور(١) ، وكان هناك عيار اسمه نوح ، معروف بالفتوة — وكان كل عيارى نيسابور فى طاعته — رايته فى الطريق ، فقلت : يا نوح ! ما الفتوة ؟ قال : تريد فتوتى أم فتوتك ؟ قلت : اذكر الاثنتين . قال : فتوتى هى أن أخلع هذا القباء والبس المرقعة وامارس معاملاتها لأصير صوفيا ، واحترز من المعصية فى ذلك الثوب حياء من الخلق . وفتوتك هى أن تخلع المرقعة حتى لا تفتتن بالخلق ولا يفتتن بك الخلق ، ففتوتى حفظ الشريعة على الأظهار ، وفتوتك حفظ الحقيقة على الأسرار .

وهذا اصل قوى ، وبالله العون والتوفيق .

(*) يقصد بالقصارية فرقة الملامتية : ارجع الى باب بيان الملامة الجزء الأول ص ٢٥٩ .

(١) « حيرة نيسابور » : محلة كبيرة بنيسابور ينسب اليها جماعة من اهل العلم ، وهى تلتبس بالحيرة التى بظاهر الكوفة . (وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٢) .

الطيفورية

اما الطيفوريون فينتمون الى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى رضى الله عنه ، وكان من رؤساء المتصوفة وكبارهم ، وطريقه الغلبة والسكر(١) .

وغلبة الحق عز وجل وسكر المحبة ليسا من جنس كسب الآدمى . وكل ما يخرج عن دائرة الاكتساب تكون الدعوة اليه باطلة ، والتقليد فيه محال . والسكر لا محالة لا يكون صفة للصاحى ، ولا سلطان للادمى فى جلب السكر الى نفسه ، والسكران نفسه مغلوب ، ولا يلتفت الى الخلق حتى يظهر بصفة من صفات التكلف .

ومشايخ هذه الطريقة على انه لا يصح الاقتداء الا بمستقيم يكون قد تحرر من دور الأحوال . ثم ان جماعة يجيزون ان يسلك الشخص طريق السكر والغلبة بالتكلف ، لان الرسول عليه السلام قال : « ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا(٢) » . ولهذا وجهان ، أحدهما : أن يتشبه المرء بفريق رياء ، وهذا شرك صريح ، والثانى : ان يتشبه بهم لعل الحق تعالى يوصله الى درجة القوم الذين تشبه بهم ، ليكون موافقا لقول الرسول عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم(٣) » ، فكل ما يدخل فى نوع المجاهدات فى الطريق يأتى به ، ويظل على أعتاب الأمل حتى يفتح الله تعالى عليه باب التحقيق ومعانيه ، اذ قال واحد من المشايخ : « المشاهدات مواريث المجاهدات » .

ونقول : المجاهدات طيبة فى جميع المعانى ، ولكن السكر والغلبة لا يدخلان تحت الكسب حتى يمكن جلبهما بالمجاهدات ، ولا تصير عين المجاهدة علة للحصول على السكر ، ويمكن القيام بالمجاهدة فى حال الصحو(٤) ، ولا قبل لصاحب الصحو بقبول السكر ، وهذا محال .

---

(١) « السكر » عند أهل الحق هو غيبة بوارد قوى . وهو يعطى الطرب والالتذاذ ، وهو اقوى من الغيبة وأتم منها . (تعريفات الجرجانى ص ٦٩) .

(٢) رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد ، باب الحزن ، من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا (ج ٢ ص ٤٠٣) .

(٣) مكرر .

(٤) « الصحو » : هو رجوع العارف الى الاحساس بعد غيبته وزوال احساسه . (التعريفات ص ٧٥) .

وابين الآن حقيقة السكر والصحو على اختلاف المشايخ ليرتفع الاشكال ان شاء الله تعالى .

الكلام فى السكر والصحو : اعلم اعزك الله ان السكر والغلبة عبارة صاغها أرباب المعانى للتعبير عن غلبة محبة الحق تعالى ، والصحو عبارة عن حصول المراد . ولأهل المعانى اقوال كثيرة فى هذا المعنى ، فجماعة يفضلون الصحو على السكر ، وجماعة على خلافهم يفضلون السكر على الصحو — وهم ابو يزيد رضى الله عنه واتباعه — ويقولون ان الصحو على التمكين والاعتدال ياخذ صفة الآدمية ، وذلك هو الحجاب الأعظم عن الحق تعالى ، وان السكر يقوم على زوال الآفة ،ونقص صفات البشرية ، وذهاب تدبيرها واختيارها ، وفناء تصريفها فى نفسها ببقاء القوة الموجودة فيها خلافا لجنسها، وهذا ابلغ واتم واكمل ، مثلما كان داود عليه السلام فى حال الصحو ، فصدر عنه فعل ، فأضاف الله تعالى ذلك الفعل اليه وقال : « وقتل داود جالوت(١) » . وكان المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، فى حال السكر فظهر منه فعل ، فاضاف الله تعالى ذلك الفعل الى نفسه ، فى قوله تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى(٢) » ، فشتان ما بين عبد وعبد ، فمن كان قائما بنفسه ثابتا بصفاته ، قيل له : أنت فعلت ، على وجه الكرامة ، ومن كان قائما بالحق فانيا عن صفاته ، قيل له : نحن فعلنا ، فاضافة فعل العبد الى الحق افضل من اضافة فعل الحق الى العبد ، لأنه حين يضاف فعل الحق الى العبد يكون العبد قائما بنفسه ، وعندما يضاف فعل العبد الى الحق يكون قائما بالحق ، اذ حين يكون قائما بنفسه يكون مثلما وقع نظر داود عليه السلام على ما لم يكن ينبغى له أن ينظر اليه ، أى على امرأة أوريا(٣) ، فرأى ما رأى . وحين يكون العبد قائما بالحق يكون مثل المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، اذ نظر نظرة من هذا النوع فحرمت امرأة

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥١ .

(٢) سورة « الانفال » آية ١٧ .

(٣) « برسبا بنت اليات » : امراة أوريا بن حنان الشطى ، يقال رآها داود عليه السلام فوقعت فى قلبه ، ولما قتل اوريا فى الحرب تزوجها داود (تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٣٨ ، المعارف ص ٢١) .

زيد(١) على زيد ، لان تلك (النظرة) كانت فى محل الصحو ، وهذه كانت فى محل السكر .

ثم ان أولئك الذين يفضلون الصحو على السكر — وهم الجنيد رضى الله عنه واتباعه — يقولون ان السكر محل للافة ، لانه تشويش الأحوال ، وذهاب الصحة ، وضياع زمام النفس . ولما كان الطالب قاعدة لكل المعانى : اما عن طريق فنائه ، أو عن طريق بقائه ، أو عن طريق محوه ، أو عن طريق اثباته ، فأنه ما لم يكن صحيح الحال لا تحصل فائدة التحقيق ، لأن قلوب أهل الحق يجب أن تكون مجردة من كل المثبتات ، وهى لا تستريح ابدا من قيد الأشياء بعدم الرؤية ، ولا تنجو من آفاتها . وبقاء الخلق فى الأشياء راجع الى أنهم لا يرون الأشياء كما هى ، ولو رأوها (كذلك) لنجوا .

والرؤية الصحيحة على نوعين ، الأول : ان الناظر فى الشيء ينظر اليه بعين بقائه ، والثانى : أن ينظر اليه بعين فنائه ، فاذا نظر بعين البقاء يجد كل (الموجودات) ناقصة فى بقائها ، لأنها ليست باقية بنفسها فى حال بقائها ، واذا نظر بعين الفناء يجد كل الموجودات فانية فى جنب بقاء الحق ، وهاتان الصفتان تأمرانه بالاعراض عن الموجودات ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حال دعائه : « اللهم أرنا الأشياء كما هى » ، لأن كل من رأى استراح . وهذا معنى قول الله عز وجل : « فاعتبروا يا اولى الأبصار(٢) » ، وما لم ير فانه لا ينجو .

وهذا كله لا يستقيم الا فى حال الصحو ، ولا علم لأهل السكر بهذا المعنى ابدا : مثل موسى عليه السلام حين كان فى حال السكر فلم يطق اظهار تجل واحد ففقد الوعى ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان فى حال الصحو فكان من مكة الى قاب قوسين فى عين التجلى ، وكان فى كل لحظة اكثر يقظة وصحوا .

---

(١) « زينب بنت جحش » : كانت زوجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء الرسول الى منزل زيد يطلبه فلم يجده ، ورأى زينب فوقع اعجابها فى قلبه ، ولما وقع ذلك كرهت الى زيد ، وفارقها زيد ، وتزوجها الرسول فى السنة الخامسة للهجرة . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٦٨ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٦٢ — ٥٦٤) .

(٢) سورة « الحشر » آية ٢ .

(شـــعر عربى)

شربت الراح كأســـا بعـــد كاس فما نفـــد الشــــراب ومـــا رويت

وكان شيخى ــ وهو جنيدى المذهب ــ يقول : السكر ملعب الصغار ، والصحو مفنى الرجال . وانا على بن عثمان الجلابى اقول موافقة لشيخى رحمه الله : كمال حال صاحب السكر هو الصحو ، واقل درجة فى الصحو : رؤية عجز البشرية ، فالصحو الذى يبدو آفة افضل من السكر الذى هو عين الآفة .

ويحكى عن أبى عثمان المغـــربى رحمه الله أنه فى بداية حاله اعتزل عشرين سنة فى البوادى بحيث لم يكن يسمع آدميا ، حتى ذابت بنيته من المشقة ، وصارت عيناه كسم الخياط ، وتحول عن صورة الآدميين . وجاءه الامر بالصحبة بعد عشرين عاما ، وقيل له : اصحب الخلق ، فقال لنفسه : فلأبدا بصحبة أهل الله ومجاورى بيته ، ليكون ذلك اكثر بركة ، فقصـــد مكة . واطلع المشايخ على مجيئه بقلوبهم ، وخرجوا لاستقباله ، فوجدوه وقد تبدلت صورته ، وفى حال لم يكن قد بقى عليه فيها شىء سوى رقم الخلقة ، فقالوا : يا ابا عثمان ! لقد عشت عشرين سنة على هـــذه الصفة التى اعجزت آدم وذريته فى امرك ، قل لنـــا لم ذهبت ؟ وماذا رايت ؟ وما وجدت ؟ ولم عدت ؟ فقال : ذهبت بسكر ، ورايت آفة السكر ، ولقيت ياسا ، ورجعت بالعجز . فقال جميع المشايخ : يا ابا عثمان ! حرام على المعبرين من بعدك أن يعبروا عن الصحو والسكر ، لانك انصفت كل الانصاف ، واوضحت آفة السكر .

فالسكر كله هو ظن الفناء فى عين بقاء الصفة ، وهذا هو الحجاب ، والصحو كله هو رؤية البقاء فى فناء الصفة ، وهذا هو عين الكشف .

وفى الجملة : اذا تصور انسان أن السكر أقرب الىالفناء منْ الصحو ، فهذا محال ، لأن السكر صفة زائدة على الصحو ، وطالما كانت اوصاف العبد متجهة الى الزيادة فهو غافل ، وحين تتجه الى النقصانْ يكون للطلاب فيه رجاء . وهذا هو غاية حالهم فى الصحو والسكر .

وتروى عن أبى يزيد رضى الله عنه حكاية مقلوبة ، وهى أن يحيى بن معاذ رضى الله عنه كتب اليه رسالة يقول فيها : ما تقول فى شخص يسكر بقطرة من بحر المحبة ؟ فكتب اليه أبو يزيد رضى الله عنه : ما تقول فى شخص

تصير كل بحار العـــالم شراب محبة ، فيشربها جميعا ، ولا يزال يصرخ من الظمـــأ ؟ (١) .

ويتصور الناس أن يحيى قد عبر عن السكر ، وابا يزيد عبر عن الصحو ، والأمر على خلاف هذا ، لأن صاحب الصحو هو من لا طاقة له بقطرة ، وصاحب السكر هو من يشرب الكل بالسكر ولا يزال يلزمه غيره ، لأن الشراب آلة السكر ، والجنس بالجنس أولى ، والصحو يكون بضد ذلك فلا يهدأ بالمشرب .

اما السكر فعلى نوعين : احدهما بشراب المودة ، والآخر بكأس المحبة . وسكر المودة معلول لأنه يتولد من رؤية النعمة ، وسكر المحبة بلا علة لأنه يتولد من رؤية المنعم ، فكل من يرى النعمة يراها على نفسه فيكون قد رأى نفسه ، وكل من يرى المنعم يراه به فلا يرى نفسه ، ومهما يكن في السكر فان سكره يكون صحوا .

والصحو ايضا على نوعين : احدهما صحو الغفلة ، والآخر صحو المحبة . وصحو الغفلة هو الحجاب الأعظم ، وصحو المحبة هو الكشف الأبين ، فالمقرون بالغفلة سكر ولو كان صحوا ، والموصول بالمحبة صحو ولو كان سكرا . وعندما يكون الأصل محكما ، يكون الصحو كالسكر والسكر كالصحو ، وحين يكونان على غير اصل ، فكلاهما بلا جدوى .

وجملة القول : ان الصحو والسكر فى طريق الرجال معلولان بعلة الاختلاف، وعندما يظهر سلطان الحقيقة جماله ، يبدو الصحو والسكر كلاهما طفيليا ، لأن طرفي كلا هذين المعنيين موصولان بأحدهما الآخر ، ونهاية احدهما بداية الآخر ، والنهاية والبداية لا تكونان الا فى التفاريق ، وما ينسب الى التفرقة يكون متساويا فى الحكم ، والجمع نفي للتفاريق . ويقال فى هذا المعنى :

(بيت عـــربى)

اذا طـــلع الصـــباح بنجم(٢) راح   تســـاوى فيه ســـكران وصـــاح

---

(١) ورد فى الرسالة قول القشيري : « سمعت ابا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت النهر جورى يقول : سمعت على بن عبيد يقول : كتب يحيى بن معاذ الى ابى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته . فكتب اليه بو يزيد : غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج ويقول : هل من مزيد » . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٢٠) .

(٢) ورد فى الرسالة : « لنجم » (انظر : جـ ١ ص ٢١٨) .

وكان فى سرخس شيخان : احدهما « لقمان(1) » ، والآخر « ابو الفضل حسن » رحمهما الله ، وقد دخل لقمان على ابى الفضل يوما فوجده وبيده كتاب ، فقال له : يا ابا الفضل ! عما تبحث فى الكتاب ؟ فقال : عما تبحث عنه أنت فى تركه . قال : فلم الخلاف ؟ قال « أبو الفضل » : أنت الذى ترى الخلاف لانك تسألنى : عما تبحث ؟ فأفق من السكر ولا تنفر من الصحو ليرتفع عنك الخلاف ، فتعرف ماذا نطلب انا وانت .

فللطيفوريين مع الجنيديين يجرى هذا القدر من الخلاف الذى ذكرناه . ومذهبه (ابو يزيد) فى المعاملات على الاطلاق : ترك الصحبة واختيار العزلة ، وهويأمر المريدين جميعا بهذا . وهذه طريقة محمودة ، وسيرة ممدوحة اذا تيسرت ، وهو اعلم .

---

(1) « لقمان السرخسى » : اشار اله ابن المنور فذكر أنه كان مجذوبا من عقلاء المجانين ، وكانت له فى بداية امره مجاهدات كثيرة واحتياط فى المعاملة ، ونجاة ظهر له كشف اودى بعقله . ولقمان هو الذى قدم اباسعيد ابن ابى الخير الى مرشده الشيخ ابى الفضل حسن السرخسى : انظر « اسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٤٠ — ٤١ ، وترجمته فى « نفحات الأنس » ص ٢٩٦) .

الجنــيـدية

اما الجنيديون فينتمون الى ابى القاسم الجنيد بن محمد رضى الله عنه ، وكانوا فى زمنه يسمونه « طاووس العلماء » . وكان سيد هذه الطائفة ، وامام ائمتهم ، وطريقه مبنى على الصحو ، على عكس الطيفوريين ، وقد ذكرت ألاختلاف بينهما . ومذهبه أكثر المذاهب معرفة وشهرة ، وجميع مشايخى رحمهم الله كانوا جنيديين . وله غير هذا الاختلاف فى الكلمات اختلاف كثير فى معاملات هذه الطريقة ، ولكنى اقتصرت على هذا مخافة التطويل . واذا لزم لشخص أن يعرف أكثر من هذا ، فعليه أن يقرأه فى مكان آخر ليعلم له على نحو افضل ، لأن مذهبى فى هذا الكتاب هو الاختصار وترك التطويل ، وبالله العون .

وقد وجدت فى الحكايات انه حين تبرأ الحسين بن منصور — فى حال غلبته(١) — من عمرو بن عثمان ، جاء الى الجنيد رحمه الله ، فقال له الجنيد: لم جئت ؟ قال : لأصحب الشيخ . قال: لا صحبة لنا مع المجانين ، لأنه ينبغى للصحبة الصحة ، فاذا وجدتها تكون كما فعلت مع سهل التسترى وعمرو . قال : « ايها الشيخ ! الصحو والسكر صفتان للعبد وما دام العبد محجوبا عن ربه حتى تفنى أوصافه(٢) » . قال الجنيد رضى الله عنه : « يا ابن منصور ! اخطأت فى الصحو والسكر ، لأن الصحو بلا خلاف عبارة عن صحة حال العبد مع الحق ، والسكر عبارة عن فرط الشوق وغاية المحبة ، وكلاهما لا يدخل تحت صفة العبد واكتساب الخلق . وانا أرى يا ابن منصور فى كلامك فضولا كثيرا ، وعبارات لا طائل تحتها » . وهو أعلم .

---

(١) اى : فى حال كونه مغلوبا على نفسه من السكر .

(٢) هذه العبارة وردت هكذا فى الأصل بالعربية محرفة ، وتليها ترجمة فارسية أوضح ، معناها : « الصحو والسكر صفتان للعبد ، ولا يزال العبد محجوبا عن ربه حتى تفنى أوصافه » .

النـــوريـــة

أما النوريون فينتمون الى ابى الحسين النورى رضى الله عنه ، وكان أحد صدور علماء المتصوفة ، واشهر من النور بينهم ، بمناقبه اللامعـــة ، وحججه القاطعة . وكان له فى التصوف مذهب مرضى ، وقاعدة مختارة . وقانون مذهبه هو تفضيل التصوف على الفقر ، ومعاملاته تتفق مع الجنيد .

ومن نوادر طريقته انه يؤثر حق الصاحب على حقه ، ويرى الصحبة بلا ايثار حراما ، ويقول : الصحبة للدراويش فريضة ، والعزلة غير حميدة ، وايثار الصاحب على الصاحب أيضا فريضة .

ويرد عنه أنه قال : « اياكم والعزلة فان العزلة مقارنة الشـــيطان ، وعليكم بالصحبة فان فى الصحبة رضاء الرحمن » .

والآن ابين حقيقة الايثار ، وحين اصل الى باب الصحبة والعزلة أشرح هنالك رموزهما لتكون الفوائد أعم .

الكلام فى حقيقة الايثار : قال الله تعالى : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) » . وكان نزول هذه الآية فى فقراء الصحابة على الخصوص .

وحقيقة الايثار هى ان يرعى الصاحب فى الصحبة حق صاحبه ، ويتجاوز عن نصيبه فى نصيبه ، ويتجشم التعب من اجل راحة صاحبه ، « لأن الايثار : القيام بمعاونة الأغيار ، مع استعمال ما امر الجبار لرسوله المختار ، حيث قال : خـــذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين(٢) » . وسياتى هذا اكثر شرحا فى باب آداب الصحبة ، أما المراد هنا فالايثار ، وهو على نوعين : احدهما فى الصحبة ، كما مر ذكره ، والآخر فى المحبة . وفى ايثار حق الصاحب نوع من المشقةوالكلفة ، اما فى ايثار حق الحبيب فكله روح وراحة .

---

(١) سورة « الحشر » آية ٩ .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩ .

ومشهور فى الحكايات انه حين اظهر غلام الخليل عداوته لهذه الطائفة ، وسلك مع كل منهم لونا من الخصومة ، اخذوا « النورى(١) » و « الرقام » و « ابا حمزة » وحملوهم الى دار الخلافة ، وقال غلام الخليل : هؤلاء قوم من الزنادقة ، واذا امر امير المؤمنين بقتلهم يتلاشى أصل الزنادقة ، لأنهم رؤساء كل هذه الطائفة ، واذا تم هذا الخير على يديه فانا اضمن له ثوابا كبيرا . فامر الخليفة بضرب رقابهم فى الحال . وجاء السياف واوثق ايدى الثلاثة ، وعندما قصد قتل الرقام نهض النورى وجلس فى مكان الرقام على نطع السياف ، فى غاية الطرب والطواعية ، فعجب الناس ، وقال السياف: ايها الفتى ! ليس هذا السيف بالشىء المرغوب الذى يتقدمون اليه بهذه الرغبة التى جئت بها ، ولم تصل اليك النوبة بعد . قال : نعم ، ولكن طريقتى مبنية على الايثار ، والحياة اعز الأشياء ، واريد ان ابذل هذه الأنفاس المعدودة فى سبيل هؤلاء الاخوة ، لأن نفسا واحدا فى الدنيا اعز على من الف سنة فى الآخرة ، لأن هذه دار الخدمة ، وتلك دار القربة ، والقربة تدرك بالخدمة . فنقل صاحب البريد هذا الكلام الى الخليفة ، فتعجب الخليفة من رقة طبعه ، ودقة كلامه فى مثل هذه الحال ، وارسل شخصا [illegible] : توقفوا فى أمرهم . وكان العباس بن على قاضى القضاة ، فاحال اليه امرهم . وحمل الثلاثة الى داره ، ووجدهم فى كل ما سالهم عنه من احكام الشريعة والحقيقة على اتم حال ، وخجل من غفلته فى حقهم ، وعندئذ قال له النورى : ايها القاضى ! لقد سالت كل هذه الاسئلة ولم تسال بعد : هل لله رجال قيامهم به ، وقعودهم به ، ونطقهم وحركتهم وسكونهم كلها حية به ، وقائمة بمشاهدته ، واذا انقطعت مشاهدة الحق عنهم لحظة واحدة تعالى صراخهم ؟ . فتعجب القاضى من دقة كلامهم ، وصحة حالهم ، وكتب الى الخليفة يقول : اذا كان هؤلاء ملاحدة فانا اشهد واحكم بانه لا يوجد على وجه الأرض موحد ! فدعاهم الخليفة وقال : سلوا حاجتكم . قالوا : ان حاجتنا اليك هى ان تنسانا ، فلا ترانا مقربين بقبولك ، ولا مطرودين بهجرك ، لأن هجرك لنا كقبولك ، وقبولك كهجرك . فبكى الخليفة واعادهم مكرمين .

---

(١) اتهم غلام الخليل النورى بالزندقة ، وشهد عليه لدى الموفق ، وهو يومئذ امير المؤمنين ، بأنه سمعه يقول : انا اعشق الله وهو يعشقنى ، فقال النورى : سمعت الله تعالى ذكره يقول : « يحبهم ويحبونه » ، وليس العشق باكثر من المحبة ، غير أن العاشق ممنوع ، والمحب يتمتع بحبه . فبكى الموفق من رقة كلامه . (اللمع ص ٤٩٢) .

ويروى عن نافع(١) انه قال : اشتهى ابن عمر(٢) سمكا ، فطلبوه فى كل المدينة فلم يجدوه . ووجدته بعد بضعة ايام ، وامرت بأن يشوى ، وحملته اليه على طبق ، فرايت على وجهه فى حال المرض اثر الفرح باحضار ذلك السمك . وجاء فى الحال سائل على الباب ، فقال : اعطوه له . فقال غلامه : ياسيدى ! لقد ظللت تطلبه عدة ايام ، فلم تعطيه له الآن ؟ يمكننا أن نعطى السائل شيئا آخر بدل هذا . فقال : ايها الغلام ! حرام على اكل هذا لأنى أخرجته من قلبى بذلك الخبر الذى سمعته عن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه السلام : « ايما امرىء يشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له(٣) » .

ووجدت فى الحكايات أن عشرة من الدراويش أوغلوا فى البادية فانقطعوا عن الطريق ، وادركهم العطش ، وكان معهم شربة ماء ، فكان كل منهم يؤثر بها الآخر حتى رحلوا جميعا عن الدنيا بظمئهم غير واحد منهم ، قال : لما رايت الجميع ماتوا شربت الماء ، وعدت بقوته الى الطريق . فقال له واحد : لو كنت لم تشربه لكان ذلك افضل . فقال : يا هذا ! لقد عرفت الشريعة هكذا ، اننى لو لم أشرب لكنت قاتل نفسى ، ومأخوذا بذلك . فقال : اذن فقد كانوا قاتلى انفسهم ؟ قال : كلا ، لأن كل واحد منهم لم يشرب حتى يشرب الآخر ، فلما قضوا جميعا متفقين ، بقيت ، ووجب لى الماء لا محالة ، فكان ينبغى شرعا أن اشرب ذلك الماء .

وعندما نام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه على فراش النبى عليه السلام ، وخرج النبى مع ابى بكر رضى الله عنه من مكة ودخلا الغار ، وقصد الكفار فى تلك الليلة قتل النبى عليه السلام ، قال الله تعالى لجبريل وميكائيل : قد آخيت بينكما وجعلت احدكما اطول عمرا من الآخر ، فأيكما يؤثر اخاه على نفسه بالحياة ، ويختار الموت لنفسه ؟ فاختار كلاهما الحياة،

---

(١) « نافع » مولى عبد الله بن عمر ، كان يكنى أبا عبد الله ، وكان من اهل « ابر شهر » اصابه عبد الله بن عمر فى غزواته . يروى عن مولاه ابن عمر وغيره . مات سنة وعشرين ومائة . (انظر : المعارف ص ٨٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٤٣) .

(٢) « ابن عمر » : عبد الله بن عمر بن الخطاب . سبقت له ترجمة (انظر ج ١ ص ٢٨٨ حاشية ٢) .

(٣) رواه ابو الشيخ فى كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ، ورواه ابن الجزرى فى الموضوعات .

فقال الله تعالى لجبريل وميكائيل : لقد رأيتما شرف « على » وفضله عليكما، اذ آخيت بينه وبين رسولى ، فاختار لنفسه القتل والموت ونام مكانه ، وجعل روحه فداء النبى ، عليه السلام ، وآثره على نفسه بالحياة بهلاكه ، فاذهبا الآن الى الأرض ، واحفظاه من الأعداء . عندئذ جاء جبريل وميكائيل وجلس احدهما عند رأسه والآخر عند قدميه ، وقال جبريل : « بخ بخ ! من مثلك يا ابن أبى طالب لأن الله تعالى يباهى بك على ملائكته » ، وعندئذ نزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد(١) » .

وتقول امرأة من صالحات الأنصار : لما امتحن الله تعالى المؤمنين بمحنة أحد(٢) ، خرجت بشربة ماء لأعطيها احد اقربائى ، فرأيت فى الميدان احد كرام الصحابة وقع جريحا وهو يلهث ، فأشار الى ان : اعطنى من ذلك الماء ، فأعطيته الماء . فصاح جريح آخر : اعطنيه ! فلم يشرب ، وأشار لى اليه ، فلما حملته اليه صاح آخر ، فلم يشربه وقال لى : احمليه اليه ، وهكذا حتى الشخص السابع ، فلما أراد السابع أن يأخذ منى الماء أسلم الروح ، فعدت وقلت : فلأعطه للآخرين ، وكان الستة قد رحلوا ، فمات السبعة جميعا . وعندئذ نزل قوله تعالى : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة(٣) » .

وكان فى بنى اسرائيل عابد عبد أربعمائة(٤) سنة ، وذات يوم قال : يا الهى ! لو لم تكن تلك الجبال ولم تخلقها لكان السير والسياحة على عبادك أسهل . فجاء الأمر الى احد أنبياء ذلك الوقت ان : قل لذلك العابد : ما شأنك بالتصرف فى ملكنا ؟ والآن وقد تصرفت ، محونا اسمك من ديوان السعداء ، واثبتناك فى ديوان الأشقياء . فطرب العابد وسجد شكرا لله عز وجل . فقال نبى الوقت : لا يجب الشكر على الشقاء ، فقال : انا اشكر

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٠٧ .

(٢) وقعة أحد : كانت فى شوال بعد بدر العظمى بعام ، فقد اجتمعت قريش واستعدت لطلب ثأرها يوم بدر ، وخرج المشركون وعدتهم ثلاثة آلاف رجل ورئيسهم أبو سفيان ، وخرج المسلمون وعدتهم الف رجل حتى صاروا الى أحد ، ووافى المشركون فاقتتلوا اقتتالا شديدا وقتل حمزة بن عبد المطلب اسد الله وأسد رسوله : رماه وحشى العبد بحربة فسقط ، ومثلت به هند بنت عتبه ، فجزع عليه رسول الله صلعم جزعا شديدا ، وكبر عليه خمسا وسبعين تكبيرة ، وانهزم المسلمون . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥) .

(٣) سورة « الحشر » آية ٩ .

(٤) هكذا فى الأصل : (جهار صد) .

على الشقاء لأن البارىء اثبت اسمى فى ديوان من دواوينه . ولكن لى حاجة يا نبى الله ! قال : قل لانقلها . قال : قل لله تعالى وتقدس (عنى) : ابعث بى الى الجحيم ، وضاعف جسدى بحيث اشغل مكان كل العصاة الموحدين ، ليذهبوا جميعا الى الجنة . فجاء الأمر ان : قل لذلك العابد : ان هذا الامتحان لم يكن اهانة لك ، بل كان جلوة لك على رؤوس الخلائق ، وكن انت ومن تشفع له يوم القيامة فى الجنة .

وقد سألت احمد بن حماد السرخسى : كيف كانت بداية توبتك ؟ قال : فى وقت من الأوقات خرجت من سرخس ، واوغلت فى الصحراء على راس ابلى ، ومكثت مدة . وكنت احب دائما ان اجوع واعطى نصيبى لآخر ، وكان قول الله عز وجل « ويؤثرون على انفسهم » يتجدد امام خاطرى . وكنت أعتقد فى هذه الطائفة . وذات يوم أقبل اسد جائع من الصحراء وافترس بعيرا من ابلى ، ومضى به فوق ربوة وزار زارة حتى سمع زئيره كل ما كان فى تلك الأنحاء من السباع واجتمعوا عليه ، فجاء ومزق البعير ولم يأكل شيئا ، ورجع الى الربوة . واكلت السباع جميعا : من ذئب ، وابن آوى وامثال ذلك . وبقى هو حتى انصرف الجميع ، وعندئذ قصده ليأكل شيئا ، فظهر من بعيد ثعلب أعرج ، فرجع الأسد حتى اكل الثعلب بقدر حاجته وعاد ، وعندئذ رجع الأسد واكل قدرا منه . وكنت انظر اليه من بعيد ، فلما عاد قال لى بلسان فصيح : يا احمد ! الايثار باللقمة عمل الكلاب ، اما الرجال فيؤثرون بالروح والحياة . فلما رأيت ذلك البرهان كففت عن كل الأشغال ، وكان ذلك بداية توبتى .

ويقول جعفر الخلدى رضى الله عنه : كان ابو الحسن النورى رحمه الله ورضى الله عنه يناجى فى الخلوة يوما ، فذهبت لأسمع مناجاته بحيث لا يعلم ، لأنه كان فصيحا جدا ولبقا ، فقال : يا الهى ! انت تعذب اهل النار وكلهم خلقك وقائمون بعلمك وقدرتك وقديم ارادتك ! فان كنت ولابد ستملأ الجحيم من الناس فأنت قادر على أن تملأها وطبقاتها بى ، وترسلهم الى الجنة ! قال جعفر : فتحيرت فى أمره ، فرايت فى النوم ان قادما مقبل وهو يقول : قال الله تعالى : قل لأبى الحسن : اننا غفرنا لك بتعظيمك لنا ، وشفقتك على عبادنا .

وكانوا يسمونه بالنورى لأنه حين كان يتحدث فى دار مظلمة كانت الدار تضىء بنور باطنه . وكان يعرف أسرار المريدين بنور الحق ، حتى قال عنه الجنيد : « ابو الحسن جاسوس القلوب » .

هذه هى خصيصة مذهبه ، وهى أصل قوى وامر معظم عند اهل البصيرة . وليس اشد على الآدمى ابدا من بذل الروح ، والامتناع عن محبوبه . وقد جعل الله تعالى مفاتيح كل الخيرات فى بذل المحبوب ، لقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون(١) » . واذا بذل امرؤ روحه فأى خطر للمال والمنال والخرقة واللقمة ؟ .

واصل هذه الطريقة على نحو ما ذهب رجل الى رويم وقال له : أوصنى . فقال : « يا بنى ! ليس هذا الأمر غير بذل الروح ان قدرت على ذلك ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية(٢) » ، وكل ما عدا هذا ترهات كله !

وقال الله جل جلاله عز من قائل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون(٣) » ، وقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء(٤) » ، فالحياة الأبدية فى القرب السرمدى تدرك ببذل الروح ، وترك نصيب النفس فى انفاذ امر الله ، ومتابعة احبائه .

اما الايثار والاختيار جملة ففى رؤية التفرقة ، وفى عين الجمع عين الايثار الذى هو ترك النصيب ، وهو ذاته اصل النصيب . وطالما كان مسلك الطالب متعلقا بكسبه فهو كله هلاكه ، واذا ظهر جذب ولايته ، اضطربت احواله وافعاله جملة ، فلا تبقى له عبارة ، ولا لحاله اسم حتى يسميه انسان او يعبر عنه ، او يحال اليه شىء . كما يقول الشبلى رحمه الله :

(شعر عربى)

غبت عنى فما أحس بنفسى	وتلاشت صفاتى الموصوفة
فأنا اليوم غائب عن جميع	ليس الا العبارة الملهوفة

---

(١) سورة « آل عمران » آية ٩٢ .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « اقل ما فى هذا الأمر بذل الروح ، فان أمكنك الدخول مع هذا فيه ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية » (انظر ص ١٨٣).
(٣) سورة « آل عمران » آية ١٦٩ .
(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٤ .

السهلية

وأما السهليون فينتمون الى سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله ، وكان من محتشمى أهل التصوف وكبارهم ، كما مر ذكره . وكان فى الجملة سلطان الوقت فى وقته ، ومن أهل الحل والعقد فى هذه الطريقة . وكانت له براهين كثيرة ظاهرة يعجز العقل عن ادراك حكاياتها .

وطريقه الاجتهاد ، ومجاهدة النفس ، والرياضة ، وكان يوصل المريدين بالمجاهدة الى درجات الكمال .

ومعروف فى الحكايات أنه قال لمريد : اجتهد ان تقول يوما طوال اليوم : « الله » ، « الله » ، وكذلك فى اليوم الثانى والثالث ، حتى اعتاد المريد ذلك ، فقال له : والآن صل الليالى بالأيام . ففعل كذلك الى أن صار اذا راى نفسه فى المنام يقول ذلك فى النوم ، حتى أصبحت تلك العادة طبعا له ، فقال : اقلع الآن عن هذا ، وانشغل بالذكر . ففعل حتى أصبح مستغرقا فيه طوال وقته — « قال بعضهم : ذكر اللسان غفلة ، وذكر القلب قربة » — وحدث أن كان فى منزل مرة ، فسقطت خشبة من الهواء على رأسه وشجته ، وكانت قطرات الدم تسيل من رأسه على الأرض وتكتب « الله » ، « الله » !

وتربية المريدين عن طريق المجاهدة والرياضة طريق السهلية ، وخدمة الدراويش واحترامهم طريق الحمدونية(١) ، ومراقبة الباطن طريق الجنيدية رحمه الله عليهم أجمعين .

أما الرياضة والمجاهدة جملة فمخالفة النفس ، وما لم يعرف المرء نفسه فلا جدوى من رياضته ومجاهدته .

والآن أتحدث عن حقيقة النفس ومعرفتها ليصير ذلك معلوما ، ثم أبين المذاهب فى المجاهدات وأحكامها ، ليتضحا كلاهما لطالب المعرفة ، وبالله التوفيق .

---

(١) « الحمدونية » هم « القصارية » نسبة الى حمدون القصار ، ويقصد بهم الملامتية .

الكلام فى حقيقة النفس ومعنى الهوى :

اعلم أن النفس من وجهة اللغة هى وجود الشىء وحقيقته وذاته ، وهى – فيما جرت عليه عادات الناس وعباراتهم – تحتمل معانى كثيرة تختلف عن بعضها البعض ، وتستعمل بمعانى متضادة : فالنفس عند طائفة بمعنى الروح ، وعند فريق بمعنى المروءة ، وعند قوم بمعنى الجسد ، وعند جماعة بمعنى الدم . أما مراد محققى هذه الطائفة من هذا اللفظ فليس شيئا من هذا كله ، وهم متفقون على أنها فى حقيقتها منبع الشر وقاعدة السوء . وتقول طائفة انها عين مودعة فى القالب كالروح ، وتقول طائفة أخرى انها صفة للقالب مثل الحياة . وهم متفقون على أنها السبب فى ظهور الاخلاق الدنيئة والأفعال المذمومة ، وهذه على قسمين ، احدهما : المعاصى ، والآخر : أخلاق السوء ، مثل الكبر والحسد والبخل والغضب والحقد وما يشبه هذا من المعانى المذمومة فى الشرع والعقل . ويمكن دفع هذه الأوصاف عن النفس بالرياضة مثلما تدفع المعصية بالتوبة ، لأن المعاصى من أوصاف الظاهر وهذه الأخلاق من أوصاف الباطن ، وما يظهر فى الباطن من الأوصاف الدنيئة يتطهر بالأوصاف السنية الظاهرة ، وما يظهر على الظاهر يتطهر بالأوصاف الحميدة الباطنة .

والنفس والروح كلتاهما من اللطائف (المودعة) فى القالب على نحو ما فى العالم من شياطين وملائكة وجنة ونار ، ولكن احداهما محل الخير ، والأخرى محل الشر ، كالعين : فهى محل البصر ، والأذن : محل السمع ، والحلق : محل الذوق ، وغير هذا من الأعيان والأوصاف المودعة فى قالب الآدمى .

ومخالفة النفس رأس جميع العبادات ، وكمال كل المجاهدات . ولا يجد العبد الطريق الى الحق الا بذلك ، لأن فى موافقتها هلاك العبد ، وفى مخالفتها نجاته . وقد أمر الله تعـالى وتقدس بمخالفتها ، ومدح من اجتهدوا فى مخالفة النفس ، وذم من ساروا وفقها ، « كما قال الله تبارك وتعالى : ونهى النفس عن الهوى فان الجنـة هى المأوى(١) » ، وقوله تعـالى : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم(٢) » . وأخبرنا عن يوسف الصديق عليه السلام بقوله : « وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى(٣) » . وقال النبى عليه السلام : « اذا اراد الله

---

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٨٧ . وكلمة « أفكلما » محذوفة فى الأصل الفارسى من الآية .
(٣) سورة « يوسف » آية ٥٣ .

بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه(١) » . وفى الآثار الموجودة والواردة أن الله تعالى وتقدس أوحى الى داود عليه السلام أن : « يا داود عاد نفسك ، وودنى بعداوتها ، فان ودى فى عداوتها » .

وهذا الذى ذكرناه جملة : أوصاف ، ولا محالة ان يكون للصفة موصوف لتقوم به ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها . ومعرفة الصفة لا تتاتى الا بمعرفة القالب كله ، وطريق معرفتها : بيان الأوصاف الانسانية وسرها .

وقد تحدث الناس فى حقيقة الانسانية ليعرفوا لأى شىء يليق هذا الاسم ، والعلم بهذا فريضة على كل طلاب الحق ، لأن كل من يجهل نفسه يكون بغيره أجهل . ولما كان العبد مكلفا بمعرفة الله عز و جل فانه ينبغى له أن يعرف نفسه ، ليعرف بصحة حدوثه قدم الله عز وجل ، ويعرف بفنائه بقاء الحق تعالى . ونص الكتاب ناطق بهذا كما قال الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه(٢) » أى : جهل نفسه » . وقال واحد من المشايخ : « من جهل نفسه فهو بالغير أجهل » . وقال الرسول عليه السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه(٣) » . أى من عرف نفسه بالفناء فقد عرف ربه بالبقاء . ويقال : من عرف نفسه بالذل فقد عرف ربه بالعز ، ويقال : من عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية »، فكل من لا يعرف نفسه يكون محجوبا عن معرفة الكل . والمراد من هذا كله هنا معرفة الانسانية واختلاف الناس فيها .

يقول جماعة من أهل القبلة ان الانسان ليس الا روحا ، والجسد جوشنه وهيكله وموضعه ومأواه وبنيته ، ليكون محفوظا من خلل الطبايع ، والحس والعقل صفته . وهذا باطل ، لأنه حين تنفصل الروح عن البنية يسمونه انسانا ، ولا يرتفع هذا الاسم عن الشخص الميت ، فحين يكون فيه الروح يكون انسانا حيا ، وحين يكون بدون الروح يكون انسانا ميتا .

ثم ان الروح موجودة أيضا فى قالب البهائم ولا يسمونها انسانا ، فلو كانت الروح علة الانسانية لوجب أن يكون حكم الانسانية حيثما تكون الروح . اذن : فقد ثبت الدليل على بطلان قولهم .

---

(١) مكرر .
(٢) سورة « البقرة » آية ١٣٠ .
(٣) حديث موضوع : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى : رقم ٦ .

وقالت جماعة اخرى ان هذا الاسم واقع على الروح والجسد فى حيز واحد ، وحين يفترق احدهما عن الآخر يسقط هذا الاسم ، مثلما يجتمع فى حصان لونان : أحدهما اسود ، والآخر أبيض فيسمونه « أبلق » ، وحين ينفصل هذان اللونان عن احدهما الآخر يكون احدهما أبيض ، والآخر اسود . وهذا ايضا باطل ، لقوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١) » ، وسمى تراب ادم بلا روح انسانا، ولم تكن الروح قد اتصلت بالقالب بعد .

ويقول جماعة آخرون : ان الانسان جزء لا يتجزأ ، ومحله القلب ، لأنه قاعدة كل أوصاف الآدمى . وهذا محال أيضا ، لأنه اذا قتل انسان واخرج منه القلب ، لا يسقط عنه أيضا اسم الانسانية . وباجماع : لم يكن القلب فى قالب آدم قبل الروح .

وقد اخطأ جماعة من أدعياء المتصوفة فى هذا المعنى ، ويقولون : ليس الانسان آكلا وشاربا ومحلا للتغير ، وانما هو سر الهى ، وهـــذا الجسد لباسه ، وهو مودع فى امتزاج الطبع واتحاد الجسد والروح .

ونقول : من المتفق عليه أن لجميع العقلاء والمجانين والفسقة والجهلة والكفرة اسم الانسانية ، وليس فيهم أبدا اى معنى من الاسرار ، وكلهم متغير وآكل وشارب ، وليس فى القالب والوجود والشـــخص اى معنى يسمونه انسانا ، ولا يوجد هذا بعد عدمه أيضا . وقد سمى الله عز وجل جميع المكونات المركبة فينا انسانا ، بدون المعانى التى لا توجد فى بعض الآدميين ، لقوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكســـونا العظام لحما ثم انشـــأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(٢) » ، فيقول الله عز وجل وهو أصدق القائلين أنه عبأ من التراب غير الطاهر هذه الصورة المخصوصة المحبوسة مع الجميع ، وتعبيرها الانســـــان .

كما قالت طائفة من أهل السنة : الانسان حى ، لأن صورته على هذه الهيئة المعهودة التى لا ينفى الموت عنها هذا الاسم بالصورة المعهودة والآلة المرسومة على الظاهر والباطن . والمراد من الصورة المعهودة : الصحيح

---

(١) سورة « الانسان » آية ١ .
(٢) سورة « المؤمنون » الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

والعليل ، ومن الآلة المرسومة : العاقل والمجنون . وكل ما هو اصح يكون اكمل فى الخلقة بالاجماع .

فاعلم أن تركيب الانسان الأكمل يتكون لدى المحققين من ثلاثة معان ، الأول : الروح ، والثانى : النفس ، والثالث : الجسد . ولكل عين من هذه صفة تقوم بها ، فللروح : العقل ، وللنفس : الهوى ، وللجسد : الحس . والانسان انموذج لكل العالم ، والعالم اسم للدارين ، وفى الانسان اثر من كلا الدارين ، فأثر هذه الدنيا : الهواء والتراب والماء والنار ، وتركيبه من : البلغم والدم والصفراء والسوداء . واثر الدار الآخرة : الجنة والجحيم والعرصات ، فالروح من حيث اللطافة بمقام الجنة ، والنفس من حيث الآفة والوحشة بمقام الجحيم ، والجسد بمقام العرصات . وجمال هذين المعنيين بالقهر والمؤانسة ، فالجنة تأثير رضائه ، والجحيم نتيجة سخطه ، كما أن روح المؤمن من روح المعرفة ، ونفسه من حجاب الضلالة ، وما لم يخلص المؤمن يوم القيامة من الجحيم ويصل الى الجنة ، فانه لا يدرك حقيقة الرؤية ، ولا يصل الى صفاء المحبة . وكذلك ما لم ينج العبد فى الدنيا من النفس ويصل الى تحقيق الارادة التى قاعدتها الروح ، فانه لا يصل الى حقيقة القربة والمعرفة . فكل من يعرفه (أى الله) فى الدنيا ، ويعرض عن الآخرين ، ويقوم على صراط الشريعة ، لا يرى الجحيم والصراط يوم القيامة .

وفى الجملة : فان روح المؤمن تدعوه الى الجنة لأنها انموذج لها فى الدنيا ، ونفسه تدعوه الى الجحيم لانها انموذج لها فى الدنيا ، وللأولى مدبر هو العقل التام ، وللثانية قائد هو الهوى الناقص . وتدبير الأول صواب ، وتدبير الثانى خطأ . فيجب على طالبى هذه الحضرة ان يسلكوا دائما طريق مخالفة النفس ، ليكونوا بخلافها قد أمدوا الروح والعقل ، لأنهما موضع سر الله جل جلاله .

فصل : اما ما قاله المشايخ فى النفس ، فيقول ذو النون المصرى رحمه الله : « اشد الحجاب رؤية النفس وتدبيرها(١) » ، لأن متابعتها مخالفة لرضاء الحق ، ومخالفة الحق سر جميع الحجب .

ويقول ابو يزيد البسطامى رحمه الله : « النفس صفة لا تسكن الا بالباطل » . وهى لا تسلك ابدا طريق الحق .

ويقول محمد بن على الترمذى رحمه الله : « تريد ان تعرف الحق مع

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية . (انظر : ص ١٨) .

بقاء نفسك فيك ، ونفسك لا تعرف نفسها ، فكيف تعرف غيرها » ؟ أى أن نفسك فى حال بقائها محجوبة عن نفسها ، ولما كانت محجوبة بنفسها فكيف تصير مكاشفة بالحق ؟.

ويقول الجنيد رضى الله عنه : « أساس الكفر قيامك على مراد نفسك » لأنه لا اقتران للنفس بلطيفة الاسلام ، فهى لا محالة تجد فى الاعراض ، والمعرض منكر ، والمنكر غريب .

ويقول ابو سليمان الدارانى رحمه الله : « النفس خائنة مانعة ، وافضل الأعمال خلافها » ، لأن خيانة الأمانة غربة ، وترك الرضا ضلالة .

وانفاسهم رحمهم الله فى هذا المعنى أكثر من أن تحصر . وها قد وصلت الى المقصود واثبات مذهب سهل فى صحة مجاهدة النفس ورياضتها ، وطريق بيان ذلك فى الحقيقة ، وبالله التوفيق .

الكلام فى مجاهدة النفس :

« قوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(١) » . « وقال النبى عليه السلام : المجاهد من جاهد نفسه فى الله(٢) » . « وقوله عليه السلام : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، قيل : يا رسول الله ! ما الجهاد الأكبر ؟ قال : الا وهى مجاهدة النفس(٣) » . والرسول صلى الله عليه وسلم فضل مجاهدة النفس على الجهاد ، لأن مشقتها أكثر من مشقة الجهاد والغزو ، ولأن مخالفة الهوى وقهر النفس أمر عظيم جدا .

فاعلم ـ اكرمك الله ـ أن طريق مجاهدة النفس وسياستها واضح وظاهر ومحمود بين كل أهل الأديان والملل ، واهل هذه الطريقة مختصون برعاية ذلك ، وهذه العبارة مستعملة وجارية بين الخواص والعوام .

---

(١) سورة « العنكبوت » آية ٦٩ .

(٢) رواه الترمذى وابن حيان عن فضالة بن عبيد (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٢٥) .

(٣) حديث موضوع كما ذكر ابن حجر فى كتابه تسديد القوس ، وقد بين انه من كلام ابراهيم بن عبلة . وقال العراقى : حديث ضعيف (يراجع كشف الخفاء للعجلونى ص ٥١١) .

وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى رموز وكلمات كثيرة ، وسهل بن عبد الله رضى الله عنه يغالى كثيرا فى هذا الأصل ، وله فى مجاهدة النفس براهين كثيرة . ويقال انه حمل نفسه على ان يأكل وجبة واحدة كل خمسة عشر يوما ، وقطع عمرا طويلا بغذاء قليل .

وقد أثبت جميع المحققين المجاهدات وقالوا انها اسباب المشاهدات ، الا ذلك الشيخ الكبير(١) . الذى جعل المجاهدة علة المشاهدة ، وجعل للطلب تأثيرا عظيما فى ادراك الحق ، وهو يفضل الحياة الدنيا فى الطلب على الحياة الأخرى فى حصول المراد ، اذ يقول ان تلك ثمرة هذه ، لأنك اذا خدمت فى الدنيا تلقى هنالك القربة ، ولا تكون القربة بغير الخدمة ، فيلزم أن تكون المجاهدة التى يجاهدها العبد ، لتكون علة الوصول الى الحق ، بتوفيق الحق ايضا . وقال رضى الله عنه : « المشاهدات مواريث المجاهدات » .

ويقول آخرون : ليس للوصول الى الحق علة ، لأن كل من يصل الى الحق يصل بالفضل ، فاى شأن للفضل مع الفعل ؟ فالمجاهدة لتهذيب النفس لا لتحقيق القربة ، لأن رجوع المجاهدة الى العبد ، وحوالة المشاهدة الى الحق ، ومحال أن تصير هذه علة تلك ، أو أن تكون تلك آلة هذه .

وحجة سهل فى هذا(٢) قول الله عز وجـل ، عز من قائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فمن يجاهد يشاهد .

وايضا ورود الأنبياء ، واثبات الشريعة ، ونزول الكتب جميعا ، وجملة احكام التكليف مبنية على هذا ، ولو لم تكن المجاهدة علة المشاهدة لكان حكم هذا كله باطلا . وجميع أحوال الدنيا والعقبى كذلك تتعلق بالحكم والعلل ، وكل من ينفى العلل عن الحكم يذهب بالشرع والرسم جملة ، فلا يصح اثبات التكليف لا فى الأصل ولا فى الفرع ، فالطعام يصير علة للشبع ، والثوب يصير علة لدفع البرد .

وهذا(٣) تعطيل لجميع المعانى ، فرؤية الأسباب فى الأفعال توحيد ، ودفعها تعطيل . ولهذا فى المشاهد دلائل ، وانكار هذا انكار للمشاهدة ومكابرة عيانا ، الا ترى انهم يخرجون الحصان الجامح بالرياضة من صفة

---

(١) سهل بن عبد الله .
(٢) اى فى القول بأن المجاهدة علة المشاهدة .
(٣) اى رأى من يقولون انه ليس للوصول الى الحق علة ، وان المجاهدة ليست سببا للمشاهدة .

الحيوانية الى صفة الآدمية حتى انهم ليبدلون أوصافه ، فيتناول السوط من الأرض ويعطيه لسيده ، ويدحرج الكرة برجله ، ويفعل افعالا أخرى مثل هذه ؟ ويجعلون الصبى الأعجمى غير العاقل بالرياضة عربى اللسان ، ويبدلون فيه نطقه الطبيعى ، وايضا يوصلون الوحش بالرياضة الى درجة انه عندما يتركونه يمضى ، وحين يدعونه يعود ، وتكون مشقة قيده أحب اليه من الحرية والاطلاق . ويبلغون الكلب النجس المهمل بالمجاهدة الى مكانة تجعل فريسته حلالا(١) ، وأكل الآدمى منها بلا مجاهدة ورياضة حرام ؟ ومثل هذا كثير ، فمدار الشرع والرسم على المجاهدة .

والرسول صلى الله عليه وسلم فى حال قربه من الحق وادراك المراد وأمن العاقبة وتحقيق العصمة جاهد مجاهدات كثيرة : من جوع طويل ، وصوم وصال ، واحياء ليال بالسهر ، فجاءه الأمر : يا محمد ! « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى(٢) » .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حال عمارة المسجد كان يحمل لبنة ، وكنت أرى أن التعب كان ينال منه ، فقلت : « يا رسول الله ! اعطنى تلك اللبنة لأقوم عنك بهذا العمل ، قال : « يا أبا هريرة ، خذ غيرها فانه لا عيش الا عيش الآخرة(٣) » .

ويروى عن حيان بن خارجة أنه قال : سألت عبد الله بن عمر رضى الله عنه : ما تقول فى الغزو ؟ قال : « ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها ، فانك ان قتلت فارا بعثك الله فارا ، وان قتلت مرائيا بعثك الله مرائيا ، وان قتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا » ، فبقدر ما يكون لتاليف وتركيب العبارة اثر فى حق بيان المعانى ، يكون لتاليف وتركيب المجاهدات اثر فى وصول المعانى ، فكما أن البيان لا يصح بدون العبارة

---

(١) اى انه حين يروضون الكلب لاستخدامه فى الصيد يصير اكل صيده حلالا .

(٢) سورة « طه » آية ٢١١ .

(٣) ورد فى الرسالة أن حميد قال : سمعت انسا يقول : كانت الأنصار يحفرون الخندق فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة ، فأكرم الأنصار والمهاجرة » (انظر جـ ٢ ص ٦٢٨) .

وتأليفها ، فان الوصول لا يصح بغير المجـاهدة . ومن يدعى يخطىء ، لأن العالم واثبات حدوثه دليل معرفة الخالق ، ومعرفة النفس ومجاهدتها دليل وصولهـا .

وحجة الفريق الآخر انهم يقولون ان هذه الآية « والذين جاهدوا فينـا لنهدينهم سبلنا » فيها تقديم وتأخير في التفسير ، اى : « والذين هدينـاهم سبلنا جاهدوا فينا » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، « لن ينجو أحدكم بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا ، الا ان يتغمدنى الله برحمته(١) » فالمجاهدة فعل للعبد ، ومحال ان يصير فعله علة نجاته ، فخلاص العبد ونجاته متعلقان بالمشيئة لا بالمجاهدة ، « كما قال الله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا(٢) » ، وقال أيضا : « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء(٣) » فنفى تكليف كل العالمين فى اثبات مشيئته . ولو كانت المجاهدة علة الوصول لمـا كان ابليس مردودا ، ولو كان تركها علة الرد والطرد لما كان آدم مقبولا ومصطفى ابدا ، فللأمر سبق العناية لا كثرة المجاهدة .

وليس كل من هو اكثر اجتهادا اكثر امنا ، بل كل من تكون عناية الحق به اكثر ، يكون الى الحق اقرب ، فواحد فى الصومعة قرين للطاعة بعيد عن الحق ، وآخر فى الحانات موصول بالمعصية قريب الى رحمة الحق . واشرف كل المعانى الايمان ، فالصبى الصغير غير المكلف حكمه حكم الايمان ، وكذلك المجانين ، وبما ان المجاهدة ليست علة لأشرف المواهب (اى الايمان) ، فما هو اقل منه لا يحتاج أيضا الى علة .

وانا على بن عثمان الجلابى اقول : هذا خلاف فى العبارة بدون معنى ، لأن واحدا يقول : « من طلب وجد » وآخر يقول : « من وجـد طلب »، وسبب الوجد الطلب ، وسبب الطلب الوجد ، فذلك يجاهد ليجد المشاهدة، وهذا يجد المشاهدة ليجاهد . وحقيقة هذا ان المشاهدة فى المجاهدة بمكان التوفيق فى الطاعة ، وهى عطاء من الحق عز وجل ، فلما كان حصول الطاعة

---

(١) ورد فى اللمع : « ليس منا احد ينجيه عمله ، قالوا : ولا انت يارسول الله فقال : ولا انا الا ان يتغمدنى الله منه برحمة » (انظر : ص ٤٧٥) .
(٢) سورة « الانعام » آية ١٢٥ .
(٣) سورة « آل عمران » آية ٢٦ .

بغير التوفيق محال ، فان حصول التوفيق محال ايضا بغير الطاعة . ولما كانت المجاهدة لا توجد بغير المشاهدة ، فالمشاهدة محال بلا مجاهدة ، فتلزم لمعة من الجمال الالهى لتدل العبد الى المجاهدة ، ولما كانت تلك اللمعة علة وجود المشاهدة ، فالهداية سابقة على المجاهدة .

اما ما يحتج به أولئك القوم — يعنى سهل واصحابه — من أن كل من ينكر المجاهدة يكون منكرا لاثبات ورود جميع الأنبياء والكتب والشرائع ، لأن مدار التكليف على المجاهدة ، فيلزم أن تكون تلك خيرا من هذه ، لأن مدار التكليف على هداية الحق ، فالمجاهدة لاثبات الحجة ، لا لحقيقة الوصلة ، لقوله تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا ألا أن يشاء الله(١) » اى ان علة الايمان مشيئتنا لا رؤية الدلائل ومجاهدتهم . وقال تعالى وتقدس أيضا : « ان الذين كفروا سواء عليهم أانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون(٢) » فورود الأنبياء ونزول الكتب وثبوت الشرائع اسباب الوصول لا علته ، لأن أبا بكر كان مثل ابى جهل فى حكم التكليف ، ولكن ابا بكر وصل بالعدل والفضل ، وتخلف ابوجهل بالعدل والفضل ، فعلة الوصول عين الوصول لا طلب الوصول ، لأنه لو كان الطالب والمطلوب كلاهما واحدا لكان الطالب واجدا ، ولو كان واجدا لما كان طالبا ، لأن من وصل استراح ، ولا تصح الراحة على الطالب . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من استوى يوماه فهو مغبون(٣) » أى يجب أن يكون كل يوم افضل ، وهذه درجة الطالبين . وقال ايضا : « استقيموا ولن تحصوا(٤) » فقال بالسبب للمجاهدة ، واثبت السبب لاثبات الحجة ، ونفى الوصول عن السبب لتحقيق الالهية .

ومن يقولون انهم يحولون الحصان بالمجاهدة الى صفة أخرى ، فذلك لأن فى الحصان صفة مكتومة ، والمجاهدة سبب اظهارها ، وما لم يجد الرياضة لا يظهر ذلك المعنى . والحمار الذى ليس فيه هذا المعنى ، لا يصير حصانا أبدا ، فلا الحصان يمكن جعله حمارا بالمجاهدة ، ولا الحمار يمكن جعله حصانا بالرياضة ، لأن هذا قلب للعين ، فالشىء الذى لا يمكنه قلب العين يكون اثباته فى حضرة الحق محالا .

---

(١) سورة « الانعام » آية ١١١ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٦ .
(٣) حديث موضوع (انظر كشف الخفاء للعجلونى) .
(٤) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر (الكنز الثمين ص ٥٧) .

وكانت تجرى على ذلك الشيخ رضى الله عنه ـ يعنى سهل التسترى ـ مجاهدات كان طليقا منها ، وكانت عباراته فى عين ذلك منقطعة عنها ، لا كالطائفة التى صيرت عبارتها مذهبا بدون المعاملة . ومحال ان ما ينبغى ان يكون كله معاملة ، يصير كله عبارة .

وجملة القول : ان لاهل هذه الطريقة مجاهدة ورياضة ، ولكن فى رؤيتها آفة ، فمن ينفى المجاهدة ليس مراده نفى عين المجاهدة ، بل نفى رؤية المجاهدة ، وعدم الاعجاب بأفعاله فى محل القدس ، لأن المجاهدة فعل للعبد ، والمشاهدة ملك للحق ، وما لم يكن ما للحق ؛ لا يكون لفعل العبد قيمة : لعمرى الم تضق بنفسك اذ تبالغ فى تجميل نفسك ؛ ولا ترى الفضل نفسه ، فتكثر الحديث عن فعلك ؟ !

فمجاهدة الاحبة هى فعل الحق فيهم بدون اختيارهم ؛ وقهره وصهره ؛ وقهره وصهره كله ملاطفة . ومجاهدة الغافلين هى فعلهم فى انفسهم باختيارهم ، وتلك تشويش وتشتيت ، والقلب المشتت من الآفة يكون مشتتا ؛ فلا تعبر ما استطعت عن فعلك ، ولا تتابع النفس فى اية صفة ، لأن وجود وجودك حجاب لك ، واذا حجبت بفعل ، زال بفعل آخر ، وحين تكون كليتك حجابا ، فانك مالم تفن بكليتك لا تصير جديرا بالبقاء ، « لأن النفس كلب باغ ، وجلد الكلب لا يطهر الا بالدباغ » .

ومعروف فى الحكايات أن الحسين بن منصور رحمه الله كان قد نزل بالكوفة فى منزل محمد بن الحسن العلوى ، وقدم ابراهيم الخواص رحمه الله الكوفة، فلما سمع بخبره ذهب اليه ، فقال له الحسين : يا ابراهيم ! فى الأربعين سنة التى انتميت فيها الى هذه الطريقة ، اى شيء من هذا المعنى صار مسلما لك ؟ قال : طريق التوكل صار مسلما لى . فقال الحسين رضى الله عنه : « ضيعت عمرك فى عمران باطنك ؛ فأين الفناء فى التوحيد » ؟ اى ان التوكل عبارة عن معاملتك مع الله ، وصحة الباطن الاعتماد عليه ، فاذا قضى امرؤ عمرا فى معالجة الباطن فانه يلزم له عمر آخر ليقضيه فى معالجة الظاهر ، وقد انقضى العمران ، ولا اثر منه الى الحق بعد .

ويحكى عن الشيخ ابى على الأسود (سياه) المروزى رحمه الله انه قال : رايت النفس على صورة شبيهة بصورة امراة ، وقد اخذ واحد بشعرها وسلمها لى ، فأوثقتها بشجرة وقصدت هلاكها ، فقالت لى : يا ابا على ! لا تتعب نفسك لاننى جنده عز وجل ، ولا تستطيع أن تقضى على .

ويروى عن محمد بن عليان النسوى(١) — وكان من كبار اصحاب الجنيد « رحمة الله عليهم اجمعين » — انه قال : فى بداية حالى ، وكنت قد صرت بصيرا بآفات النفس وعرفت مكامنها ، كان فى قلبى دائما حقد عليها . وذات يوم خرج من حلقى شىء كجرو الثعلب ، وصيرنى الحق تعالى عارفا ، فعرفت انه النفس ، فجعلته تحت قدمى ، وكنت كلما ضربته بتذمى ضربة كبر حجما ، فقلت : يا هذا ! كل شىء يهلك بالضرب والعنت ، فلماذا تزيد انت ؟ قال : لأن خلقى معكوس ، فما يكون اعناتا للأشياء يكون راحة لى ، وما يكون راحة للأشياء ، يكون عنتا لى .

وقال الشيخ ابو العباس الشقانى ، وكان رضى الله عنه امام الوقت : دخلت الدار يوما فرايت كلبا اصفر نائما فى مكانى ، فظننت انه جاء من المحلة ، فأردت طرده ، فدخل تحت ذيلى واختفى .

والشيخ أبو القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ابقاه الله ، اشار الى بداية حاله فقال : رايتها (اى النفس) بصورة افعى .

وقال درويش : رايت النفس على صورة جرذ ، قلت : ما انت ؟ قال: انا هلاك الغافلين ، لأنى داعية شرهم وسوئهم ، ونجاة الأحبة ، لأنى اذا لم اكن معهم — ووجودى آفة — فانهم يغترون بطهرهم ويتكبرون بأفعالهم ، اذ انهم حين يرون طهارة قلوبهم ، وصفاء أسرارهم ، ونور ولا يتهم ، واستقامتهم على الطاعة ، يظهر فيهم زهو . وايضا عندما يروننى بين جنبيهم، ينمحى منهم ذلك كله .

وهذه الحكاية دليل على أن النفس عين لا صفة ، ولها صفة ، ونحن نرى أوصافها ظاهرة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك(٢) » . فاذا حصلت معرفتها امكن امتلاكها بالرياضة ، ولكن اصل

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن على النسوى ، ويذكر مؤلف أسرار التوحيد انه كان معروفا فى نسا بأحمد بن على . كان من جلة أصحاب أبى عثمان الحيرى النيسابورى ، يخرج من نسا قاصدا اليه فى مسائل واقعات ، فلا يأكل ولا يشرب فى الطريق حتى يرد نيسابور ، فيسأله عن تلك المسائل . وكان من أعلى المشايخ همة ، وله الكرامات الظاهرة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٣ ، أسرار التوحيد (الترجمة) ص ٦٠ ، نفحات الأنس ص ٢٢١) .

(٢) رواه البيهقى (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٩) .

جوهرها لا يفنى . واذا صحت معرفتها يصير الطالب ملكا ، ولا خوف من بقائها فيه « لأن النفس كلب نباح ، وامساك الكلب بعد الرياضة مباح » ، فمجاهدة النفس لفناء أوصافها ، لا لفناء عينها .

وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى اقوال كثيرة ، ولكنا خوف تطويل الكتاب نكتفى بهذا القدر .

والآن نتكلم فى حقيقة الهوى وترك الشهوات ، ان شاء الله .

الكلام فى حقيقة الهوى :

اعلم — اعزك الله — ان الهوى عند جماعة عبارة عن أوصاف النفس ، وعند أخرى عبارة عن ارادة الطبع المتصرف والمدبر للنفس ، كالعقل من الروح . وكل روح لا تكون فى بنيتها قوة من العقل تكون ناقصة ، وكل نفس لا تكون لها قوة من الهوى تكون ناقصة ، فنقص الروح : نقص القربة ، ونقص النفس : عين القربة . وللعبد دائما دعوة من العقل ، واخرى من الهوى ، فمن يتبع دعوة العقل يصل الى الايمان والتوحيد ، ومن يتبع دعوة الهوى يصل الى الضلالة والكفران ، فالهوى حجاب الواصلين ، ومركب المريدين ، ومحل اعراض الطالبين ، والعبد مأمور بمخالفته ، ومنهى عن ركوبه « كما يقال ، لأن من ركبها هلك ، ومن خالفها ملك ، كما قال الله تعالى: وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى(١) » ، وقال النبى عليه السلام : أخوف ما أخاف على امتى اتباع الهوى وطول الأمل(٢) » .

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قول الله عزوجل : «أفرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله(٣) » : اى ان الهوى اله معبود ، والويل لمن يكون هواه معبوده دون الحق ، وكل همته ليل نهار طلب رضاء هواه .

والأهواء جملة على قسمين ، الأول : هوى اللذة والشهوة ، والثانى : هوى جاه الخلق والرياسة ، فمن يتبع هوى اللذة يكون فى الحانات ، ويكون الخلق آمنين فتنته . اما من يتبع هوى الجاه والرياسة ويكون فى الصوامع والدويرات ، فهو فتنة الخلق ، لانه ضل الطريق ، وقاد الخلق أيضا الى الضلالة ، « فنعوذ بالله من متابعة الهوى » ، فمن تكون كل حركته هوى

---

(١) سورة « النازعات » آية ٤ .
(٢) رواه ابن عدى فى الكامل عن جابر وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١) .
(٣) سورة « الجاثية » آية ٢٣ .

ويرضى بمتابعته فانه بعيد عن الحق وان يكن معك بالمسجد ، ومن ينقطع عن الهوى ويفر من متابعته ، فانه قريب من الحق وان يكن فى الكنيسة .

يقول ابراهيم الخواص رضى الله عنه : سمعت ذات مرة أن ببلاد الروم(١) راهبا مقيما بالدير منذ سبعين سنة بحكم الرهبانية ، فقلت : واعجبا ! شرط الرهبانية أربعون سنة ، بأى شرف أخلد هذا الرجل الى الدير سبعين سنة ؟ وقصدته ، فلما اقتربت من ديره فتح كوة وقال لى : يا ابراهيم ! عرفت لأى أمر جئت . أنا لم أقم هنا رهبانية فى هذه السبعين عاما ، بل لأن لى كلبا هائجا(٢) ، فأقمت هنا أحرسه واكفى الخلق شره ، والا فلست أنا هذا (الذى تظن) . فلما سمعت منه هذا الكلام قلت : يا الهى تعاليت ! أنت قادر على أن تهدى العبد طريق الصواب فى عين الضلالة ، وتكرمه بالصراط المستقيم . فقال لى : يا ابراهيم ! الام تطلب الناس ؟ امض واطلب نفسك ، واذا وجدتها فاحرسها ، لأن الهوى يرتدى ثوب الالهية كل يوم على ثلثمائة وستين لونا ، ويدعو العبد الى الضلالة(٣) .

وجملة القول : لا يجد الشيطان مجالا فى قلب العبد وباطنه ما لم يظهر له هوى معصية ، واذا ظهر قدر من الهوى فالشيطان عندئذ يأخذه ويزينه ويجلوه لقلبه ، ويسمون هذا المعنى بالوسواس ، فهو فى البداية يكون قد وجد من هواه « والبادى اظلم » . وهذا هو معنى قوله عز وجل فى جواب ابليس اذ كان يقول : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين(٤) » فقال الحق تعالى وتقدس فى جوابه : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان(٥) » ، فالشيطان

---

(١) الروم : جبل معروف فى بلاد واسعة تضاف اليهم فيقال بلاد الروم . واما حدود الروم فشارقهم وشمالهم الترك والخزر والروس ، وجنوبهم الشام والاسكندرية ومغاربهم البحر والأندلس ، وكانت الرقة والشامات كلها تعد فى حدود الروم أيام الاكاسرة ، وكانت دار الملك انطاكية ، الى أن نفاهم المسلمون الى اقصى بلادهم .
وينسب الى بلاد الروم « وصيف بن عبد الله الرومى » : ابو الحافظ الانطاكى . (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٦١ — ٨٦٦) .
(٢) يقصد بالكلب نفسه .
(٣) وردت فى الرسالة اشارة الى هذه الحكاية (انظر ج ١ ص ٢٧٢) .
(٤) سورة « ص » آية ٨٢ .
(٥) سورة « الاسراء » آية ٦٥ .

فى الحقيقة هو نفس العبد وهواه ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من احد الا وقد غلبه شيطانه الا عمر فانه غلب شيطانه(١) » .

فالهوى تركيب طينة آدم ، وريحان روح ابنائه ، لقوله عليه السلام : « الهوى والشهوة معجونة بطينة ابن آدم(٢) » . وترك الهوى يجعل العبد أميرا ، وركوبه يجعل الأمير اسيرا ، مثلما ركبت زليخا هواها وكانت أميرة فصارت أسيرة ، وقال يوسف عليه السلام بترك الهوى وكان اسيرا فصار اميرا .

وسئل الجنيد رضى الله عنه : « ما الوصل ؟ قال : ترك ارتكاب الهوى » ، فمن يرد أن يكرم بوصلة الحق ، يجب أن يخالف هوى الجسد ، لأن العبد لا يقوم بعبادة ابدا اعظم من مخالفة الهوى ، اذ أن حفر الجبل بالظفر أيسر على ابن آدم من مخالفة النفس والهوى .

ووجدت فى الحكايات عن ذى النون المصرى رحمه الله انه قال : رايت رجلا يطير فى الهواء فقلت : بم وجدت هذه الدرجة ؟ قال : دست الهوى حتى اصبحت فى الهواء .

ويرد عن محمد بن الفضل البلخى رضى الله عنه أنه قال : انى لأعجب من ذلك الذى يذهب بهواه الى بيته (بيت الله) ويزوره ، لم لا يدوس الهوى حتى يصل اليه ويراه ! ؟

اما اظهر صفات النفس ، فالشهوة . والشهوة معنى مبعثر فى كل أعضاء الآدمى ؛ وجميع الحواس أبواب لها . والعبد مكلف بحفظها جميعا ، ومسئول عن فعل كل منها : فشهوة العين الرؤية ، والأذن السمع ، والأنف الشم ، واللسان القول ، والحلق الذوق ، والجسد اللمس والمس ، والصدر التفكير ، فيلزم لأن يكون الطالب راعى وحاكم نفسه ، أن يقضى ايامه ليل نهار فى ان يقطع عنه دواعى الهوى هذه التى تظهر فى الحواس ، ويسأل الله تعالى ان يجعله على تلك الصفة التى بها تدفع هذه الارادة عن باطنه ؛ لأن كل من يبتلى ببحر الشهوة يحجب عن كل المعانى .

---

(١) رواه الحكيم الترمذى فىالنوادر : « مالقى الشيطان عمر الا خر لوجهه وما سمع حسه الا فر » . (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٧٠) .

(٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس : « الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم » . (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٩١) .

فاذا دفع العبد هذا عن نفسه بالتكلف ، يطول عنت ذلك عليه ، ويتواتر وجود اجناسه . وطريق هذا : التسليم ، ليحصل المراد ، ان شاء الله وحده .

ويحكى عن ابى على سياه (الأسود) قدس الله روحه انه قا ل: كنت قد ذهبت الى الحمام يوما ، وكنت اراعى السترة متابعة للسنة ، واخذت احدث نفسى قائلا : يا ابا على ! ابعد عنك هذا المقصود الذى هو منبع الشهوات التى تبتليك بكثير من الآفات ، لتنجو من الشهوة . فنوديت فى سرى ان : يا ابا على ! اتتصرف فى ملكنا ، وليس فى تعبيتنا عضو بأولى من عضو ؟ فبعزتنا اذا ابعدت عن نفسك ذلك ، فاننا نخلق فى كل شعرة من شعرك من الشهوات بقدر ما فى ذلك المحل .

ويقال فى هذا المعنى :

(بيت عـــربى)

منتنى الاحســـان دع احســـانك اترك بخشى اللـــه باذنجـــانك

وليس للعبد تصرف فى خراب البنية ، ولكن له التصرف فى تبديل الصفة بتوفيق الحق ، وتسليم الأمر ، والتبرؤ من الحول والقوة الكسبية .

وفى الحقيقة : اذا جاء التسليم جاءت العصمة ، وبعصمة الحق يكون العبد اقرب الى الحفظ وفناء الآفة ، منه بالمجاهدة ، « لأن نفى الذباب بالمكبة أيسر من نفيه بالمذبة » ، فحفظ الحق مزيل لجميع الآفات ، ومانع لكل العلل ، ولا مشاركة للعبد معه بأية صفة ، الا بما امر ، ولا يجوز التصرف فى ملكه . وما لم يكن تقدير عصمة الحق ، فانه لا يمكن الرجوع عن اى شىء بجهد العبد ، لأن الجد انما يكون جدا بالجد ، فاذا لم يكن جد من الحق للعبد لا يفيده الجد ، وقوة الطاعة تسقط بالجد .

وانواع الجد كلها تكون فى موضعين : اما ان يجتهد لكى يحول تقدير الحق عن نفسه ، أو ليكسب لنفسه شيئا على خلاف التقدير ، وكلا هذين غير جائز ، لأن التقدير لا يتغير بالجهد ، ولا يكون اى امر بغير التقدير .

ويرد أن الشبلى رحمه الله مرض ، فجاء اليه طبيب وقال له : احتم ! فقال : مما احتمى ؟ أمن شىء هو نصيبى ، أم من شىء ليس بنصيبى ؟ فاذا كان يلزم الاحتماء من النصيب ، فغير ممكن ، وان يكن من غير النصيب ، فهذا نفسه لا يعطى لى ، « لأن المشـــاهد لا يجـــاهد » .

وهذه المسألة ساجىء بها ، للاحتياط فى مكان آخر ، ان شـــاء الله .

الحكيمية

أما الحكيميون فينتمون الى ابى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رضى الله عنه ؛ وكان واحدا من ائمة وقته فى جميع علوم الظاهر والباطن ، وله تصانيف ونكت كثيرة . وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية(١) ، وكان يعبر عن حقيقتها ، وعن درجـات الأوليـاء ومراعاة ترتيبها . وهو ذاته على حده ، بحر لا ساحل له ، وذو اعاجيب كثيرة .

وبداية كشف مذهبه هى ان تعرف ان لله تعـالى اوليـاء اصطفاهم من الخلق ؛ وقطع هممهم عن المتعلقـات ، واشتراهم من دعـاوى نفوسهم وأهوائهم ، واقـام كل واحد منهم فى درجة ، وفتح عليه بابا من المعانى . والكلام كثير فى هذا المعنى ، ويجب شرح قـدر من أصوله ليصير معلوما .

والآن : ابين حقيقة هذا على سبيل الاختصار ، واذكر أسباب واوصاف كلام النـاس فى ذلك .

الكلام فى اثبـات الولاية :

اعلم ان قاعـدة واساس طريقة التصـوف والمعرفة جملة يقوم على

---

(١) تكلم كثير من الصوفية فى الولاية واثباتها ، وما يرتبط بها من الكرامات والخوارق التى تنسب الى الأولياء من الصوفية وأهل الصلاح ، ومن يتصفح كتب التصوف وتراجم شيوخ الصوفية العربية والفارسية يرى مئات القصص المروية عن كرامات الأولياء وشيوخ الصوفية ، من ذلك ما ورد فى كتاب أسرار التواحيد عن كرامات الشيخ ابى سعيد ، فقد بلغ مجموع الحكايات التى تروى عن كراماته فى الفصل الأول من الباب الثانى مائة وعشر حكايات.
وإذا كان الهجويرى قد نسب ادخال فكرة الولاية فى التصوف الاسلامى الى محمد بن على الترمذى ، فقد ارجع بعض الدارسين فى العصر الحديث منشأ هذه الفكرة الى ما قبل التصوف ، بل الى ما قبل الاسلام : ومن هؤلاء « آدم ميتز » الذى ارجع أصل الولاية الى المذهب النصرانى الغنوسطى ، ويقول ان الصوفية هم الذين أدخلوا هذه الفكرة فى الاسلام . (انظر : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠) ويرى ابو العلا عفيفى أن فكرة الولاية انتقلت الى الصوفية عن الشيعة ، وان كان يرجع أصلها الى ما قبل الشيعة والصوفية فيقول ان فكرةالولاية او ما يعادلها كانت موجودة فى البلاد التى =

الولاية واثباتهـا ، لأن جميع المشـايخ رضى الله عنهم متفقون فى حكم اثباتهـا ، غير ان كلا منهم بين هذا بعبـارة مختلفة ، ومحمد بن على رضى الله عنه مخصـوص باطلاق هـذه العبارة على حقيقة الطريقة .

اما « الولاية » بفتح الواو : فهى فى حقيقـة اللغة بمعنى النصرة ، « والولاية » بكسر الواو : فهى الامارة(١) ، وكلتاهما مصـدر « ولى » . ولمـا كان هكذا ، وجب أن تكون الكلمتان مثل « دلالة » و « دلالة » .

والولاية أيضا : الربوبية ، ومن ذلك ان الله تعالى قال : « هنالك الولاية لله الحق(٢) » ، لأن الكفار يتولونه ويرجعون اليه ، ويتبرأون من معبوداتهم .

والولاية ايضا بمعنى المحبة .

أما « ولى » فجائز أن تكون « فعيل » بمعنى « مفعول » ، كما قال الله تعالى : « وهو يتولى الصالحين(٣) » ، لأن الله تعالى لا يدع عبده لأفعاله

= فتحها المسلمون ، وكانت منتشرة انتشار الاسلام نفسـه ، فلما ظهرت حركة التصوف فى البلاد الاسلامية لم تخلق فكرة الولاية خلقا ، وانما شكلت أفكارا كانت جزءا من التراث الروحى لهذه البلاد بأن ابرزت فيها الجانب الصوفى من الحياة الدينية (انظر : التصوف الثورة الروحية ص ٢٩٤) .

(١) ولى الشىء وعليه ولاية و ولاية : ملك أمره وقام به ، أو : الولاية بالفتح المصدر والبلاد التى يتسلط عليها الوالى ج ولايات ، و (القوم على ولاية واحدة) ويكسر : اى يد واحـدة مجتمعون فى النصرة وفى التاج . و (الولاية والولاية) القرابة (اقرب الموارد) .

« وقد عرف الكلاباذى الولاية بأنها ولايتان : ولاية تخرج من العداوة وهى لعامة المؤمنين ، فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان ، لكن من جهة العموم ، فيقال : المؤمن ولى الله . وولاية اختصاص واصطفاء واصطناع وهذه توجب معرفتها والتحقق بها ، ويكون صاحبها محفوظا عن النظر الى نفسه ، فلا يدخله عجب ، ويكون مسلوبا من الخلق ، بمعنى النظر اليهم بحظ، فلا يفتنونه . ويكون محفوظا عن آفات البشرية ، وان كان طبع البشرية قائما معه باقيا فيه ، فلا يستحلى حظا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه فى دينه ، واستحلاء الطبع قائم فيه . وهذه خصـوص الولاية من الله للعبـد . (التعرف ص ٧٤ ــ ٧٥) .

(٢) سورة « الكهف » آية ٤٤ .

(٣) سورة « الأعراف » آية ١٩٦ .

وأوصافه ، ويحفظه فى كنف حفظه . وجائز أن تكون « فعيل » بمعنى المبالغة فى الفاعل ، لأن العبد يتولى طاعته ، ويداوم على رعاية حقوقه ، ويعرض عن غيره ، فهذا مريد ، وذاك مراد .

وجميع هذه المعانى جائزة من الحق الى العبد ، ومن العبد الى الحق ، لأنه يجوز ان يكون الله تعالى ناصر احبائه ، اذ أنه تعالى وعد احباءه من صحابة النبى وقال : « الا ان نصر الله قريب(١) » . وقال أيضا : « وان الكافرين لا مولى لهم(٢) » . أى : « لا ناصر لهم » . ولما لم يكن ناصرا للكفار ، فلا محالة أن يكون ناصرا للمؤمنين فينصرهم وينصر عقولهم فى الاستدلال بالآيات ، وبيان المعانى لقلوبهم ، وكشف البراهين لأسرارهم . وينصرهم على مخالفة النفس والهوى والشيطان وموافقة أمور أنفسهم .

ويجوز أن يخصهم بالمحبة ويحفظهم من محل العداوة ، كما قال : « يحبهم ويحبونه » ، ليحبوه بمحبته ، ويعرضوا عن الخلق ، فيكون وليهم ، ويكونوا أوليـــاءه .

ويجوز أيضا أن يمنح واحدا الولاية باقامته على طاعته ، ويحفظه فى حفظه وعصمته ، ليقيم على طاعته ، ويتجنب مخالفته ، ويفر الشـــيطان من حســـنه .

ويجوز أن يمنح أحدا الولاية ليكون حله الحل وعقده العقد فى الملك ، ويكون دعاؤه مستجابا ، وانفاسه مقبولة ، كما قال النبى عليه السلام : « رب أشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو اقسم على الله لأبره(٣) » .

ومعروف انه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، توقف نهر النيل(٤) على عادته ، لأنهم كانوا فى الجاهلية يلقون فيه كل عام

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢١٤ .
(٢) سورة « محمد » آية ١١ .
(٣) رواه البزاز عن ابن مسعود ، ورواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة : « رب أشعث اغبر ذى طمرين تنبو عنه اعين الناس لو اقسم على الله لأبره » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٥) .
(٤) « نيل مصر » : قال القضاعى : من عجائب مصر النيل ، جعله الله لها سقيا : يزرع عليه ويستغنى به عن مياه المطر فى أيام القيظ . وليس فى الدنيا نهر ينصب من الجنوب الى الشمال الا هو . وقد روى عن عمرو بن العاص أنه قال ان نيل مصر سيد الأنهار . وكان للنيل سبعة خلجان . واصل مجراه أنه ياتى من بلاد الزنج فيمر بارض الحبشة مسامتا لبحر اليمن حتى ينتهى الى بلاد النوبة فلا يزال جاريا بازاء الصعيد حتى يصب فى البحر . (معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦٢) .

بجارية مزينة حتى يجرى ؛ فكتب عمر رضى الله عنه على قطعة ورق يقول : « ايها النهر ! اذا كنت توقفت بنفسك فلا يجوز ، وان كنت توقفت بأمر الله عز وجل فان عمر يقول : اجر ! فلما القوا الورقة فى النهر ، جرى الماء(١) . وهذه امارة على الحقيقة ؛ فمرادى من الولاية واثباتها ان تعرف ان اسم الولى مسلم لمن توجد فيه هذه المعانى المذكورة ، بحيث يكون له هذا الذى ذكرناه حالا لا قالا . وقد الف المشايخ رحمهم الله كتبا فى هذا من قبل ، وقد نفدت سريعا لنفاستها .

والآن : فلأجمل عبارات ذلك الشيخ العظيم ؛ وهو صاحب المذهب ، كاعتقادى (الجميل) فيه رضى الله عنه ، لتحصل لك ولسواك ايضا ممن يسعدون بقراءة هـــذا الكتاب من طالبى هـــذه الطريقة ، فوائد كثيرة ، ان شاء الله عز وجل .

---

(١) وردت هـــذه الحكاية هكذا فى النص ، بينما وردت فى الفتوحات الاسلامية على النحو التالى : « لمـــا فتح عمرو بن العاص مصر ، اتى اهلها اليه حين دخل بؤنه من اشهر العجم فقالوا له : ايهـــا الأمير ان لنيلنا هـــذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : اذ كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين ابويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب افضل ما يكون ، ثم القيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وابيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء ، فلما راى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب اليه : قد اصبت ؛ ان الاسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثت اليك بطاقة فالقها فى داخل النيل اذا اتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : من عبد الله عمر امير المؤمنين الى نيل مصر . اما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر ، وان كان الواحد القهار الذى يجريك ؛ فنسأل الواحد القهار أن يجريك . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيا اهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل ، فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله ستة عشر ذراعا . وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

(انظر : معجم البلدان جـ ٣ ص ٨٦٣ ، الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ٦١)

فصــل : اعلم قواك الله ان هذا اللفظ متداول بين الخلق ، والكتاب والسنة ناطقان به ، لقوله تعالى : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١) » ، وقال ايضا : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا(٢) » ، وقال فى موضع آخر : « الله ولى الذين آمنوا(٣) » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من عبـــاد الله لعبادا يغبطهم الانبيـــاء والشـــهداء . قيل : من هم يا رسول الله ، وصفهم لنـــا لعلنا نحبهم . قال عليه السلام : قوم تحابوا بروح الله من غير أموال و لااكتساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن النـــاس » ، ثم تلا : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ان الله عز وجل قال : « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى(٤) » .

والمراد من هذا هو ان تعرف ان لله عز وجل اولياء قد خصهم بمحبتـــه وولايته ، وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية اظهار فعله ، وخصهم بأنواع الكرامات ، وطهرهم من آفات الطبع : وخلصهم من متابعة النفس ، فلاهم لهم سواه ، ولا انس لهم الا معه . وقد كانوا قبلنا فى القرون الماضية ، وهم موجودون الآن ، وسيبقون من بعد هذا الى يوم القيامة ، لأن الله تعالى شرف هذه الأمة على جميع الأمم ، وضمن أن يحفظ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وما دام البرهان الخبرى والحجج العقلية موجودة اليوم بين العلماء ، فيلزم أن يكون البرهان العينى أيضا موجودا بين الأولياء وخواص الله تعـــالى .

وهـــذا هو الخلاف الذى بيننـــا وبين طائفتين : الأولى : المعتزلة ،

---

(١) سورة « يونس » آية ٦٢ .
(٢) سورة « فصلت » آية ٣١ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٢٥٧ .
(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .. الحديث : من حديث أبى هريرة . وورد فى الرسالة : «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة» (الرسالة ج ٢ ص ٦١٠) .

والثانية : عامة الحشوية(١) ، فالمعتزلة ينكرون تخصيص واحد دون الآخر من المؤمنين ، ونفى تخصيص الولى نفى لتخصيص النبى ، وهذا كفر . وعامة الحشوية يجيزون التخصيص ، ولكنهم يقولون انهم كانوا ، ولم يبقوا اليوم . وانكار الماضى والمستقبل كلاهما سيان ، لأن طرفا من الانكار لا يكون أولى من طرف آخر ، فالله تعالى قد أبقى البرهان النبوى الى اليوم ، وجعل الأولياء سبب اظهاره ، لتكون آيات الحق وحجة صدق محمد عليه السلام ظاهرة دائما ، وجعلهم أولياء العالم حتى صاروا مجردين لحديثه ، وطووا طريق متابعة النفس ، حتى أن الأمطار تمطر من السماء ببركتهم ، وينبت النبات من الأرض بصفاء أحوالهم ، وينتصر المسلمون على الكفار بهمتهم .

أما صفتهم وعددهم : فمنهم أربعة آلاف وهم المكتومون ، ولا يعرف أحدهم الآخر ، ولا يعرفون أيضا جمال حالهم ، وهم فى كل الأحوال مستورون عن أنفسهم وعن الخلق . والأخبار واردة بهذا ، وناطقة به اقوال الأولياء . وقد صار الخبر فى هذا المعنى عيانا لى والحمد لله .

أما أهل الحل والعقد وقادة حضرة الحق جل جلاله : فثلثمائة يدعون « الأخيار » ، وأربعون آخرون يسمون « الأبدال » ، وسبعة آخرون يقال لهم « الأبرار » ، وأربعة يسمون « الأوتاد » ، وثلاثة آخرون يقال لهم

---

(١) الحشوية ، أو : الحشوية ، أو : أهل الحشو ، مصطلح كلامى استخدم فى مجال ذم بعض أصحاب الحديث الذين قبلوا الآثار التشبيهية التجسدية دون نقد أو تمييز ، واكتفوا بتفسيرها تفسيرا حرفيا (انظر : مادة : «Hashwiya». Shorter Encyclopedia of Islam.

وذكر الشهرستانى أن جماعة من الشيعة الغالية وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل الهشاميين وغيرهم من أهل الشيعة ، قالوا : معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض اما روحانية أو جسمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكين .

ومشبهة الحشوية أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المخلصين من المسلمين يعاينونه فى الدنيا والآخرة اذا بلغوا من الرياضة والاجتهاد الى حد الاخلاص والاتحاد المحض .

(انظر : الملل والنحل على هامش الفصل جـ ١ ص ١٣٩) .

« النقباء » ، وواحد يسمونه « القطب » و « الغوث(١) » . وهؤلاء جميعا يعرفون أحدهم الآخر ، ويحتاجون فى الأمور لاذن بعضهم البعض ، والأخبار المروية ناطقة بهذا ، واهل السنة مجتمعون على صحة هذا . وليس المراد فى هذا الموضع شرح هذا وبسطه . والعوام هنا يعترضون ، لانى قلت انهم يعرفون بعضهم البعض بأن كلا منهم ولى ، فيقولون : يجب اذن أن يكونوا آمنين عواقبهم . وهذا محال ؛ لأن معرفة الولاية لا تقتضى الأمن ، فاذا جاز أن يكون المؤمن عارفا بايمانه ولا يكون آمنا ، فانه يجوز ايضا أن يكون الولى عارفا بولايته ولا يكون آمنا . ولكن يجوز على سبيل الكرامة أن يعرف الله تعالى الولى بأمن عاقبته فى صحة الحال عليه ، وحفظه من المخالفة . وهنا يختلف المشايخ رضى الله عنهم . وقد بينت أن علة الاختلاف هى ان كل واحد من هؤلاء الأربعة آلاف ، وهم المكتومون ، لا يجيز لنفسه معرفة الولى ، وكل من الفريق الآخر يجيز ذلك . وكثير من الفقهاء ايضا موافقون للفريق الأول ؛ وكثير منهم موافقون للفريق الثانى .

---

(١) ورد تقسيم آخر للأولياء فى اصطلاحات الصوفية الواردة فى الفتوحات المكية والملحقة بتعريفات الجرجانى ، وهـذا التقسيم يختلف عن تقسيم الهجويرى من حيث اسماء بعض الفئات واعدادها ؛ وقد زيد فيه توضيح لوظيفة كل فئة من الأولياء ، وجاء ذكرهم فيه فى ترتيب تنازلى على النحو التـالى :

« القطب » وهو الغوث : عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ومكان ، وهو على قلب اسرائيل عليه السلام .

« الامامان » : هما شخصان احدهما عن يمين الغوث ونظره فى الملكوت ، والآخر عن يساره ونظره فى الملك ، وهو أعلى من صاحبه ، وهو الذى يخلف الغـوث .

« الأوتاد » : عبارة عن اربعة رجال منازلهم على منازل اربعة اركان من العالم : شرق وغرب وشمال وجنوب ، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة .

« البدلاء » : هم سبعة ، ومن سافر من القوم عن موضعه وترك جسدا على صورته حتى لا يعرف احد انه فقد ، فذلك هو البدل لا غير ، وهم على قلب ابراهيم عليه السلام .

« النجباء » : اربعون ، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق فلايتصرفون الا فى حق الغير .

« النقباء » : هم الذين استخرجوا خبايا النفوس ، وهم ثلاثمائة .

(انظر : التعريفات ص ١٥٤) . وذكر « التهانوى » فى تعريفة للأبدال تقسيمها آخر للأولياء (انظر : كشاف أصطلاحات الفنون ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ٨٤٥) .

ومن المتكلمين مثل الاستاذ ابى اسحاق الاسفرايني(١) وجماعة من المتقدمين على ان الولى لا يعرف انه ولى ، والاستاذ أبو بكر بن فورك(٢) وجماعة اخرى من المتقدمين على ان الولى يعرف انه ولى(٣) .

ونقول لتلك الجماعة : اى ضير وآفة فى معرفته ؟ فيقولون : لأنه يعجب بنفسه حين يعرف انه ولى ، وشرط الولاية حفظ الحق ، والمحفوظ من الآفة لا يجوز عليه ذلك . وهذا الكلام من سقط العوام ، اذ يصعب أن يكون انسان وليا وتجرى عليه كرامات ناقضة للعادة ، وهو لا يعرفه

---

(١) أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران الاسفرايني : الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور ، واقر له بالعلم اهل خرسان والعراق ، له التصانيف الجليلة منها كتابه « جامع الحلى » . اخذ عنه القاضى أبو الطيب الطبرى أصول الفقه باسفراريين ، وبنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور . توفى بنيسابور سنة ثمانى عشرة واربعمائة ونقل الى اسفرايين ودفن بها . اختلف الى مجلسه أبو القاسم القشيرى ، واكثر أبو بكر البيهقى الرواية عنه فى تصانيفه . (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤) .

(١) أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك : المتكلم الاصولى الأديب النحوى الواعظ الاصبهانى : أقام بالعراق مدة يدرس العلم ، ثم توجه الى الرى فسعت به المبتدعه فراسله اهل نيسابور والتمسوا منه التوجه اليهم ففعل ، وورد نيسابور فبنى له بها مدرسة ودار . بلغت مصنفاته فى أصول الفقه والدين ومعانى القرآن قريبا من مائة مصنف . دعى الى مدينة غزنة وجرت له بها مناظرات كثيرة . مات فى الطريق الى نيسابور ونقل اليها ودفن بها فى محلة الحيرة بنيسابور ، وكانت وفاته سنة ست واربعمائة (وفيات الاعيان جـ ١ ص ٤٨٢) .

(٣) نلاحظ فى هذه الفقرة ان الهجويرى وضع ابن فورك ضمن من يقولون بأن الولى يعرف نفسه انه ولى ، بينما نرى القشيرى على عكس هذا فهو يقول : « واختلف اهل الحق فى الولى : هل يجوز أن يعلم انه ولى أم لا ؟ فكان الامام أبو بكر بن فورك رحمه الله يقول : لا يجوز ذلك ، لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن » (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٦٦٢) .

انه ولى ، وأن هذه كرامات(١) . وقد قلد جماعة من العوام هذا الفريق ، وقلد بعض ذلك الفريق ، ولا اعتبار لقولهم .

أما المعتزلة فينكرون تخصيص الكرامات كلية ـــ وحقيقة الولاية تخصيص الكرامات ـــ ويقولون ان جميع المسلمين أولياء الله جل جلاله حين يطيعون لأن كل من قام بأحكام الايمان ، وأنكر صفات الله ورؤيته ، وأجاز خلود المؤمن فى النار ، وأقر بجواز التكليف على مجرد العقل من غير ورود الرسل ونزول الكتب ، فهو ولى لدى جميع المسلمين . ومثل هذا الشخص ولى ، ولكنه ولى الشيطان . ويقولون : اذا استوجبت الولاية الكرامة ، لوجب أن يكون لجميع المؤمنين كرامات ، لأنهم مشـــتركون فى الايمان ، وما داموا مشتركين فى الأصل ، فيجب أن يشتركوا ايضا فى الفروع . ثم يقولون انه يجوز أن يكون للمؤمن والكافر كرامة ، وذلك مثل جـــائع فى سفر يظهر له مضيف ، أو عاجز يركبه شخص على دابة ، ومثل هذا . ويقولون : اذا جاز لأحد أن يقطع مسافة فى ليلة ، لوجب أن يكون ذلك للنبى ، لأنه حين قصد النبى عليه السلام مكة ، قال الله تعالى : « وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس(٢) » .

ونقول : قولكم باطل اطلاقا ، لأن الله تعالى قال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا(٣) » الآية . أما معنى حمل الأثقال ، واجتماع الصحابة للذهاب من مكة فقد كان كرامة خاصة لا عامة ، ولو كانوا جميعا ذهبوا الى مكة لصارت عامة ، ولصار الايمان الغيبى ضروريا ، وارتفعت كل الأحوال والأحكام ، لأن الايمان محل العموم ، وفيه المطيع والعاصى ، والولاية

---

(١) أشار الكلاباذى الى الاختلاف فى الولى فقال : « واختلفوا فى الولى : هل يجوز أن يعرف أنه ولى أم لا ، فقال بعضهم : لا يجوز ذلك لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة ، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن ، وفى وجوب الأمن زوال العبودية لأن العبد بين الخوف والرجاء ، قال الله تعالى : « ويدعوننا رغبا ورهبا » . وقال الأجلة منهم والكبار : يجوز أن يعرف الولى ولايته ، لأنها كرامة من الله تعالى للعبد ، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضى زيادة الشكر (التعـــرف ص ٧٤) . أما القشـــيرى فهو وان كان يؤيد مبدأ معرفة الولى ولايته ، الا أنه يرى أن ذلك لا يجوز لجميع الأولياء ، يقول : « وكان الأستاذ أبو على الدقاق رحمـــه الله يقول بجوازه . وهو الذى نؤثره ونقول به . وليس ذلك بواجب فى جميع الأولياء حتى يكون كل ولى يعلم انه ولى واجبا ، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ، كما لا يجوز أن لا يعلمه بعضهم . فاذا علم بعضهم أنه ولى كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها » (الرسالة جـ ٢ ص ٦٦٢) .

(٢) سورة « النحل » آية ٧ .

(٣) سورة « الاسراء » آية ١ .

فى محل الخصوص ، فما جعله الله تعالى حكما فى محل العموم ، أمر به النبى صلى الله عليه وسلم لموافقتهم فى حمل الأثقال ، وما جعله حكما فى محل الخصوص ، اوصل به نبيه فى ليلة من مكة الى بيت المقدس ، ومن هناك الى قاب قوسين ، واطلعه على زوايا العالم وخباياه ، وحين عاد كان مايزال كثير من الليل باقيا .

وفى الجملة ، فانه يوجد فى حكم الايمان الخاص والأخص ، ونفى التخصيص مكابرة عيانية ، فكما انه يكون ببلاط الملك : البواب ، والحاجب ، والسائس ، والوزير ، فانهم وان كانوا سواء فى حكم العبودية ، الا ان لبعضهم خصوصية . وكذلك المؤمنون ، فانهم مهما كانوا سواء فى حقيقة الايمان ، الا انه يكون منهم العاصى والمطيع والعالم والعابد .

اذن : فقد صح ان انكار التخصيص انكار لكل المعانى . والله أعلم .

فصل : ولكل من المشايخ رحمهم الله رمز فى تحقيق العبارة عن الولاية ، وسأذكر ما يمكن ذكره من عبارات رموزهم ، لتكون الفائدة اتم ان شاء الله عز وجل :

قال ابو على الجوزجانى رحمه الله : « الولى هو الفانى فى حاله ، والباقى فى مشاهدة الحق : لم يكن له عن نفسه اخبار ، و لامع غير الله قرار » . لأن اخبار العبد يكون عن حاله ، فاذا فنيت الأحوال ، لا يصح له الاخبار عن نفسه ، ولا يقر مع غير الحق ، لانه يخبره عن حاله ، اذ أن اخبار الغير عن حال الحبيب كشف لستر الحبيب ، وكشف ستر الحبيب على غير الحبيب محال . وأيضا حين يكون فى المشاهدة تكون رؤية الغير محالا ، وحين لا تكون رؤية الغير ، كيف يمكن القرار مع الخلق ؟

وقال الجنيد رضى الله عنه : « من صفة الولى أن لا يكون له خوف ، لأن الخوف ترقب مكروه يحل فى المستقبل ، او انتظار محبوب يفوت فى المستأنف ، والولى ابن وقته ، ليس له مستقبل فيخاف شيئا . وكما لا خوف له ، لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل ، أو مكروه يكشف ، وذلك فى الثانى من الوقت . كذلك لا يحزن ، لأن الحزن من حزونة الوقت . فمن كان فى ضياء الرضا وروضة الموافقة اين يكون له حزن ، كما قال الله تعالى : « الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١) » ؟

---

(١) سورة « يونس » آية ٦٢ .

ويتصور للعامة فى هذا القول انه حين لا يكون خوف ولا رجاء ، ولا حزن يخلفه أمن ، فانه لا يكون امن ايضا ، لان الأمن يكون من عدم رؤية الغيب والاعراض عن الوقت ، وهذه صفة من ليس لهم رؤية بشرية ولا ركون الى صفة . والخوف والرجاء والأمن والحزن جملة ترجع الى حظوظ النفس فاذا فنيت تلك ، صار الرضا صفة للعبد ، واذا جاء الرضا ، استقامت الأحوال فى رؤية المحول ، وظهر الاعراض عن الأحوال ، ومن ثم انكشفت الولاية على القلب ، وظهر معناها على السر .

ويقول ابو عثمان المغربى رحمه الله : « الولى قد يكون مشهورا ، ولا يكون مفتونا » . ويقول آخر : « الولى قد يكون مستورا ، ولا يكون مشهورا » ، فهذا الذى احترز من الشهرة ولى ، لأن فى شهرته فتنة . فقال ابو عثمان : يجوز أن يكون مشهورا ولكن شهرته تكون بلا فتنة ، لأن الفتنة فى الكذب ، ولما كان الولى صادقا فى ولايته ، ولا يقع على الكاذب اسم الولاية ، ويكون اظهار الكرامة على يده محالا ، فانه يلزم ان تسقط الفتنة عن حاله .

وهذان القولان يرجعان الى ذلك الخلاف : هل يعرف الولى انه ولى ؟ لأنه اذا عرف يكون مشهورا ، واذا لم يعرف يكون مفتونا . « والشرح لذلك طويل » .

وفى الحكايات أن ابراهيم بن ادهم رحمه الله قال لرجل : أتريد ان تكون وليا من أولياء الله تعالى ؟ قال : أريد . قال « لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله ، واقبل بوجهك عليه » .

اى : لا ترغب فى الدنيا والعقبى ، لأن الرغبة فى الدنيا اعراض عن الحق بشىء فان ، والرغبة فى العقبى اعراض عن المولى بشىء باق ، وحين يكون الاعراض بشىء فان ، فان الفانى يفنى ، ويفنى الاعراض . وحين يكون الاعراض بشىء باق ، فلا يجوز الفناء على البقاء ، ولا يجوز على اعراضه أيضا .

أما قوله : فرغ نفسك من الكونين ، فانه يقصد به الا تجعل للدنيا والعقبى طريقا الى قلبك من أجل محبة الحق تعالى ، ووجه قلبك الى الحق ، فاذا وجدت فيك هذه الأوصاف تكون وليا .

وسئل أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : من الولى ؟ قال : « الولى هو الصابر تحت الأمر والنهى » ، لأنه كلما ازدادت محبة الحق فى قلبه ، أصبح أمره أكثر تعظيما على قلبه ، وازداد جسده بعدا عن نهيه .

ويحكى عنه ايضا انه رضى الله عنه قال : قيل لى : بالبلد الفلانى ولى من اولياء الله عز وجل ، فنهضت ، وقصدت زيارته . فلما بلغت مسجده ، خرج من الدار ، وبصق على الأرض فى المسجد . فرجعت من هنالك ، ولم اسلم عليه ، وقلت : يجب على الولى أن يحفظ الشريعة على نفسه ، او يحفظها الحق عليه ، فلو كان هذا الرجل وليا ، لمـــا بصق على أرض المسجد ، حفظا لحرمته ، او لحفظه الحق ، لصحة كرامته . وفى تلك الليلة رايت النبى عليه السلام فى النوم فقال لى : يا ابا يزيد ! لقد حلت بك بركات ما فعلت . وفى اليوم التالى بلغت هذه الدرجة التى ترونها .

وسمعت أن رجلا دخل على الشيخ ابى سعيد ، ودخل بقدمه اليسرى اولا فى المسجد ، فرده قائلا : من لا يعرف كيفية دخـــول منزل الحبيب لا يليق بنـــا .

وفريق من الملاحدة ــ لعنهم الله ــ انتموا الى هذه الطريقة الخطيرة وقالوا : تلزم الخدمة(١) الى ان يصير العبد وليا ، فاذا صار وليا ارتفعت الخدمة . وهذه ضلالة ، ولا يوجد فى طريق الحق اى مقام يرتفع فيه اى ركن من أركان الخدمة . وساشرح ذلك تماما فى مكانه ، ان شاء الله وحده .

الكلام فى اثبـــات الكرامات :

اعلم أن ظهور الكرامات جائز على الولى فى حال صحة التكليف عليه ، ويتفق على هذا فريقان من اهل السنة والجماعة ، وهو ليس بمستحيل فى العقل ايضا ، لأن هذا النوع فى مقدور الله تعالى وتقدس ، واظهاره لا يتنافى مع اى أصل من اصول الشرع والارادة ، وجنسه غير منقطع عن الأوهام .

والكرامة علامة صدق الولى ، ولا يجوز ظهورها على الكاذب ، الا كعلامة على كذب دعواه ، وهى فعل ناقض للعادة فى حال بقاء التكليف . ومن يعرف بتعريف الحق الصدق من الكذب ، على وجه الاستدلال ، فهو ايضا ولى .

وتقول طائفة من أهل السنة ان الكرامة صحيحة ، لكن لا الى حد الاعجاز ، مثل استجابة الدعوة ، وحصول المراد ، وما شابه هذا مما لا ينقض العـــادة .

ونقول : اى فساد تتصورونه من ظهور فعل ناقض للعادة على يد ولى صـــادق فى زمان التكليف ؟ فاذا قالوا ان هذا النوع ليس فى مقدور الله

(١) المقصود بالخدمة : اداء التكليف من عبادات وطاعات .

تعالى ، فهذه ضلالة . واذا قالوا ان هذا النوع مقدور ، ولكن اظهاره على يد الولى ابطال للنبوة ونفى لتخصيصها ، فهذا محال أيضا ، لأن الولى مخصوص بالكرامات ، والنبى مخصوص بالمعجزات . « والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وانما هى معجزة لحصولها ، ومن شرطها اقتران دعوى النبوة بها ، فالمعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للأولياء » . وحين يكون الولى وليا والنبى نبيا لا تكون بينهما اية شبهة حتى يلزم هذا الاحتراز ، لأن شرف الأنبياء ومراتبهم عليهم السلام بعلو الرتبة وصفاء العصمة ، لا بمجرد المعجزة او الكرامة ، او اظهار فعل ناقض للعادة على أيديهم . والكل متساو فى أصل الاعجاز ، أما فى الدرجات والتفضيل فلاحدهما على الآخر فضل . وما دام يجوز لتسوية الافعال الناقضة للعادة ان يفضل احدهم الآخر ، فلم لا يجوز أن يكون فعل ناقض للعادة كرامة للولى ، ويكون الأنبياء افضل منهم ؟ وما دام الفعل الناقض للعادة هناك لا يصير علة تفضيل وتخصيص لهم على بعضهم البعض ، فهنا أيضا لا يصير فعل ناقض للعادة علة لتخصيص الولى على النبى — يعنى أن هذا لايصير معهم — ومن يتبين له هذا الدليل من العقلاء ترتفع هذه الشبهة من قلبه .

واذا تصور احد انه اذا كان للولى كرامة ناقضة للعادة فانه يدعى النبوة ، فهذا محال ، لأن شرط الولاية صدق القول ، والادعاء بخلاف المعنى كذب ، والكاذب لا يكون وليا . واذا ادعى الولى النبوة فذلك قدح فى المعجزة، وكفر محض . والكرامة لا تكون الا للمؤمن المطيع ، والكذب معصية لاطاعة . ومادام الأمر هكذا فان كرامة الولى تكون موافقة لاثبات حجة النبى ، ولا تقع اية شبهة بين الكرامات والمعجزات ، لأن النبى يثبت نبوته باثبات المعجزة ، والولى أيضا يثبت ولايته بالكرامة ، فهذا الصادق فى ولايته يقول مايقوله الصادق فى نبوته ، وكرامته عين اعجاز النبى .

ورؤية كرامة الولى تكون للمؤمن زيادة يقين على صدق النبى ، لا شبهة فيه ، لأنهما ليسا متضادين فى الدعوى حتى ينفى أحدهما الآخر ، بل ان دعوى احدهما عين برهان دعوى الآخر . وكما انه فى الشريعة حين يتفق جماعة من الورثة فى الدعوى ، اذا ثبتت حجة أحدهم فان حجته تثبت حجة الآخرين بحكم اتفاقهم واستوائهم فى الدرجة والدعوى ، واذا كانت الدعوى متضادة لا تكون حجة أحدهم حجة للآخر ، فانه اذا ادعى النبى صحة النبوة بدلالة المعجزة وصدقه الولى فى دعواه ، فان اثبات الشبهة فى هذا المحل يكون محالا .

الكلام فى الفرق بين المعجزات والكرامات :

ولمـــا صح ان تحقق المعجزة والكرامة محال على يد الكاذب ، فيجب لا محالة ان يكون الفرق بينهما اظهر ليصير معلوما وبينا لك .

فاعلم ان سر المعجزات : الاظهار ، وسر الكرامات : الكتمان ، وثمرة المعجزة تعود على الغير ، والكرامة خاصة بصاحبها . وصاحب المعجزة ايضا يقطع بأن هذه معجزة ، والولى لايستطيع ان يقطع بأن هذه كرامة او استدراج . وصاحب المعجزة ايضا يتصرف فى الشرع ، ويقول ويفعل فى ترتيب نفيه واثباته ، بأمر الله ، ولا وجه لصاحب الكرامة فى هذا سوى التسليم وقبول الأحكام ، لأن كرامة الولى لا تنافى حكم شرع النبى بأى وجه .

ولو قال قائل : انك اذا قلت ان المعجزة ناقضة للعادة ، ودلالة على صدق النبى ، فما دامت هكذا فان جنسها لا يجوز الا على النبى ، وهذا يصير امرا عاديا ، واثبات الكرامة يبطل عين حجتك لاثبات المعجزة ، فاننا نقو ل: ان هذا الأمر على خلاف الصورة التى اعتقدتها ، لأن الاعجاز ناقض لعادات الخلق ، ولمـــا كانت كرامة الولى هى عين معجزة النبى ، وتظهر نفس البرهان الذى تظهره معجزة النبى ، فان الاعجاز لا ينتقض الاعجاز : الم تر انه حين صلب الكفار خبيبا(١) فى مـــكة كان الرسول عليه الســـلام جالسا فى المسجد بالمدينة ، وكان يراه ويقول للصحابة ما يفعلونه معه ، ورفع الله تعالى الحجاب عن عين خبيب ايضا حتى راى هو ايضا النبى وسلم عليه ، وابلغ الله تعالى سلامه الى اذن النبى ، وكذلك اسمع جواب الرسول صلى الله عليه وسلم لخبيب رضى الله عنه ، ودعا حتى صار وجهه الى القبلة ؟ فرؤية النبى عليه السلام له من المدينة وهو بمكة كانت فعـــلا ناقضا للعادة ، ومعجزة ، ورؤيته رضى الله عنه للنبى عليه الصلاة (والسلام) من مكة كانت ايضا فعلا ناقضا للعادة ، وكرامة له .

ومن المتفق عليه ان رؤية الغائب (فعل) ناقض للعادة ، فلا فرق بين غيبة الزمان وغيبة المكان ، فسواء كرامة خبيب فى حال غيبة المكان

---

(١) فى المتن « حبيب » وفى فهرس أعلام الكتاب كذلك . والأصح : خبيب ، وهو خبيب بن عدى بن مالك ، شهد احدا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان فيمن بعثهم النبى مع رهط « عضل » و « القارة » ليعلموهم شرائع الاسلام فغدروا بهم فى الطريق وقتلوا منهم اربعة ، وجاءوا بزيد بن الدثنة وخبيب بن عدى الى مكة أسيرين فابتاع صفوان بن امية زيدا وقتله ، وابتاع حجير بن اهاب خبيبا وصلبه .
(انظر : صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٥٣ ، ص ٢٦٧) .

عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرامة المتاخرين فى حال الغيبة عنه(١) . وهذا فرق بين جدا وبرهان ظاهر واضح على استحالة التضاد بين الكرامة والاعجاز ، لأن الكرامة لا تثبت الا فى حال تصديق صاحب المعجزة ، ولاتظهر الا على يد مؤمن مصدق مطيع ، لأن كرامة الأمة معجزة النبى عليه السلام ، ولأن شرعه باق فيجب ان تبقى حجته ايضا ، فالأولياء شهود على صدق رسالة الرسول . ولا يجوز أن تظهر كرامة على يد غريب(٢) .

وترد حكاية فى هذا المعنى عن ابراهيم الخواص رحمه الله ، وهى مناسبة جدا هنا .

قال (ابراهيم) : اوغلت فى البادية متجردا بحكم عادتى ، ولما سرت مسافة ، نهض رجل من ناحية وسألنى الصحبة . ونظرت اليه فاحسست من رؤيته بنفرة فى قلبى ، وقلت له : كيف يجوز هذا ؟ فقال لى : يا ابراهيم ! لا تغتم ، فانا رجل من النصارى والصابئه(٣) ، اتيت من اقصى بلاد الروم على امل صحبتك . فلما عرفت انه غريب هدأ قلبى ، وسهل على طريق الصحبة وقضاء حقها ، وقلت : يا راهب النصارى ! ليس معى طعام وشراب ، واخشى ان يصيبك اذى فى هذه البادية . قال : يا ابراهيم !

---

(١) اى فى حال غيبة الزمان ، فالفاصل الزمنى بين المتاخرين والنبى عليه السلام ، كالفاصل المكانى الذى كان بينه وبين خبيب .

(٢) يقصد بالغريب : الكافر .

(١) « الصابئة » : فى مقابل « الحنيفية » . وفى اللغة : صبأ الرجل ، اذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . (الملل والنحل جـ ٢ ص ٩٥) وكانت الفرق فى زمان ابراهيم الخليل صنفين : الصابئة ، والحنفاء ، فالصابئة كانت تقول : اننا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته الى متوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب . والحنفاء كانت تقول : انا نحتاج فى المعرفة والطاعة الى متوسط من جنس البشر يكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، فيتلقى الوحى بطرف الروحانية ، ويلقى الى نوع الانسان بطرف البشرية . (الملل والنحل جـ ٢ ص ٧٠) .

الا تزال مع كل مالك من الصيت والشهرة فى العالم تحمل هم الطعـــام ؟ قال (ابراهيم) : فعجبت من انبساطه ، وقبلت صحبته لأرى الى أى حد تصل دعواه . فلما انقضت سبعة أيام وليال أدركنا العطش ، فتوقف وقال : يا ابراهيم ! لقد دوت طبول شهرتك فى العالم ، فهات ما عندك من دالات(١) على هذه الحضرة ، اذ لم تبق لى طاقة من الظمأ . قال (ابراهيم) : فسجدت على الأرض ، وقلت : يا الهى ! لا تفضحنى أمام هذا الكافر الذى يحسن الظن بى فى عين الغربة ، وحقق ظنه فى . ورفعت رأسى ، فرأيت طبقا وضع عليه قرصان وشربتا ماء ، فأكلنا وذهبنا من هنالك . ولمـــا مرت سبعة أيام اخر ، قلت لنفسى : فلأجرب هذا النصرانى ليرى ذله ، قبل أن يمتحننى بشىء آخر ، فقلت : يا راهب النصاري ! تعـــال ، فاليوم نوبتك لترينا ما عندك من ثمرة المجاهدة . فسجد على الأرض وقال شيئا ، فظهر طبق عليه أربعة أقراص وأربع شربات ماء ، فتعجبت جدا واغتممت ، ويئست من حالى ، وقلت لنفسى : لا آكل من هذا لأنه ظهر من أجل كافر ، وهو معونة له ، فكيف آكل منه ؟ فقال لى : يا ابراهيم ! كل . قلت : لا آكل . قال : لأى علة لا تأكل ؟ قلت : لأنك لست أهـــلا ، وهذا ليس من جنس حالك ، وأنا فى عجب من أمرك ، فاذا حملت هذا على الكرامة ، فان الكرامة لا تجوز على الكافر ، واذا قلت انه معونة وأنت مدع ، تقع لى شبهة . قال : يا ابراهيم ! كل ، ولك بشارتان : احداهمـــا اسلامى « أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورســـوله » والأخرى : أن لك خطرا عظيما عند الحق تعالى . قلت : لم ؟ قال : لأنه ليس لنا شىء من هذا الجنس ، وقد ســـجدت خجـــلا منك وقلت : يا الهى ! اذا كان دين محمد حقا ومحمودا فامنحنى قرصين وشربتى ماء ، واذا كان ابراهيم الخواص وليك ، فامنحنى قرصين وشربتى ماء ! ولمـــا رفعت رأسى كان الطبق قد أحضر . فأكل ابراهيم ، وأصبح ذلك الشاب الراهب واحدا من عظماء الدين(٢) . وكان هذا عين اعجاز النبى

---

(١) « الدالة » : ما تدل به على صديقك ، والجراة . يقال : له عليه دالة ، اى جراة بسبب وجاهته عنده . (أقرب الموارد) .

(٢) أورد القشيرى هذه الحـــكاية مختصرة ، وهنا اختـــلاف فى بعض التفاصيل . (انظر : الرسالة جـ ٢ ص ٦٨٣ — ٦٨٤) .

موصولا بكرامة الولى ، ونادر جدا أن يظهر البرهان للغير فى غيبة النبى ، ويكون للغير فى حضور الولى نصيب من كرامة الولى .

وفى الحقيقة لا يعرف منتهى الولاية غير المبتدىء فيها ، وذلك الراهب كان من المكتومين ، مثل سحرة فرعون ، فابراهيم كان يثبت صدق معجزة النبى ، وذاك الآخــر كان يطلب صــدق النبوة وعز الولاية ايضا ، وقد حقق الله تعالى بحسن عنايته مقصوده . وهذا فرق ظاهر بين الكرامة والمعجزة ، والكلام فى هذا كثير ، لكن الكتاب لا يحتمل اكثر من هذا .

واظهار الكرامة على الأولياء كرامة اخرى ، وشرطها الكتمان لا الاظهار بالتكلف . وقال شيخى رحمه الله : اذا اظهر الولى ولايته ودعا بها فلا ضير على صحة حاله ، ولكن تكلفه فى اظهارها يكون رعونة ، والله اعلم .

الكلام فى اظهار جنس المعجزة على يدى من يدعى الالهية :

اتفق مشايخ هذه الطائفة وجملة اهل السنة والجماعة على انه يجوز أن يظهر فعل ناقض للعادة مثل المعجزة والكرامة على يد الكافر الذى تنقطع أسباب الشبهة عن ظهورها عليه ، ولا يشك أحد فى كذبه ، ويكون ظهور ذلك الفعل ناطقا على كذبه . وهذا مثلما عمر فرعون أربعمائة سنة لم يمرض خلالها ، وكان المــاء يرتفع من خلفه ، فعندما كان يتوقف كان المــاء يتوقف ، وحينما كان يسير كان الماء يسير ، وامثال هذه العلامات ، ولم يشتبه اى عاقل فى انه كان كاذبا فى دعوى الالهية وكافرا — لأن العقلاء يدركون بالضرورة أن الله تعالى ليس مجسما و لامركبا — ولو أن كثيرا من هذه الأفعال كانت تظهر عليه لمــا بقيت للعاقل شبهة فى كذب دعواه . وقس على ذلك ايضا ما يروى عن شداد صاحب ارم(١) ، وعن النمروذ من هذا النوع .

---

(١) ارم ذات العماد : مدينة عاد فى اليمن بين أبتر والشحر ، يقال كان فيها مائة الف عمود كانت الجن قد اصطنعتها لعاد بن شداد بن سام بن نوح ، وكانت سخرت له الجن قبل سليمان بن داود بأربعة آلاف عام .

ويذكر أبو طالب المكى أن طائفة من الأبدال تجتمع فى هذه المدينة ليالى الجمع ، وفى الأعياد ، وكان سهل بن عبد الله يزورها فى كل جمعة . (قوت القلوب جـ ٢ ص ١٣٨) .

ومثل هذا ما أخبرنا به المخبر الصادق من انه فى آخر الزمان يخرج دجال ويدعى الالهية ، ويسير وعلى جانبيه جبلان : احدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما يكون عن يمينه مكان النعيم ، وما يكون عن يساره موضع العذاب والعقوبة ، ويدعو الخلق الى نفسه ، ويعاقب من لا يؤمن به ، والله تعالى يميت الخلق ويحيهم بسبب ضلالته(١) ، ويبسط له الأمر المطلق فى العالم ، ولو ظهر عليه مئات الأفعال الناقضة للعادة لما وقع للعاقل فى كذبه شبهة ، لأن العاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى لا يركب الحمار ، ولا يتغير ولا يتلون . وهم يسمون هذا حكم الاستدراج .

ويجوز أيضا أن يظهر فعل ناقض للعادة على يد مدع للرسالة وكاذب ، فيكون دليلا على كذبه ، ويكون على يد الصادق دليلا على صدقه . ولكن لا يجوز أن يظهر فعل يشتبه فيه شخص ، لأنه حين يجوز اثبات الشبهة لا يمكن معرفة الصادق من الكاذب ؛ وعندئذ لا يعرف الطالب من يجب عليه ان يصدقه ومن يجب عليه أن يكذبه ، وعندئذ يبطل حكم النبوة كلية .

ويجوز أن يظهر على يد مدعى الولاية شىء من جنس الكرامة ، لأنه صادق فى دينه ، ولو أن معاملاته ليست طيبة ، لأنه يثبت بذلك صدق الرسول ويظهر فضل الحق ، فلا ينسب ذلك الفعل لحوله وقوته . ومن يكن صادقا فى أصل الايمان يكن صادقا فى الولاية بالبرهان ، فهو ولى باعتقاده فى جميع الاحوال وان تكن أعماله ليست متفقة مع اعتقاده ، ودعواه الولاية مثل دعوى الايمان لا تنافى تركه المعاملات . والكرامة والولاية فى الحقيقة من مواهب الحق لا من مكاسب العبد ، فالكسب لا يصير علة لحقيقة الهداية .

وقد قلنا قبل هذا ان الأولياء ليسوا معصومين لأن العصمة ليست شرطا لهم ، ولكنهم محفوظون من الآفة التى يقتضى وجودها نفى الولاية ، ونفى الولاية والعياذ بالله مرتبط بالردة لا بالمعصية ، وهذا مذهب محمد بن على

---

(١) هكذا فى النص . ووردت فى « التعرف » اشارة الى هذا نصها : « وجوز بعض المتكلمين وقوم من الصوفية اظهارها (اى المعجزة) على الكذابين من حيث لا يعلمون ، وقت ما يدعونها فيما لا يوجب شبهة ، كما روى فى قصة فرعون من جرى النيل معه ، وكما اخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الدجال : انه يقتل رجلا ثم يحييه فيما يخيل اليه (انظر : « التعرف » ص ٧٤) .

الترمذى والجنيد وابى الحسن النورى والحارث المحاسبى وغيرهم من اهل الحقائق رحمهم الله . اما اهل المعاملة مثل سهل بن عبد الله التسترى وابى سليمان الدارانى وحمدون القصار وغيرهم فمذهبهم أن شرط الولاية المداومة على الطاعة ، وحين تمر الكبيرة على قلب الولى يعزل عن الولاية . وقلنا قبل هذا ان العبد ، باجماع الأمة ، لا يخرج من الايمان بالكبيرة ، وليست ولاية باولى من اخرى ، فمادامت ولاية المعرفة التى هى أصل كل الكرامات لا تزول بالمعصية ، فمحال ان يزول ما هو اقل منها فى الشرف والكرامة بالمعصية . وقد طال هذا الخلاف بين المشايخ ، وليس مرادى هنا اثبات هذا كله ، ولكن أهم الأشياء فى معرفة هذا الباب هو أن تعلم علم اليقين : فى اى حال تظهر الكرامة على الولى ؟ افى حال الصحو ، ام فى حال السكر ؟ وفى الغلبة ، ام فى التمكين ؟ وقد شرحت الصحو والسكر تماما فى ذكر مذهب ابى يزيد رحمه الله .

وابو يزيد وذو النون المصرى ومحمد بن خفيف والحسين بن منصور ويحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنهم ومعهم جماعة على أن اظهار الكرامة على الولى لا يكون الا فى حال السكر ، وما يكون فى حال الصحو هو معجزة الأنبياء . وهذا فى مذهبهم فرق واضح بين المعجزة والكرامة ، لأن اظهار الكرامة على الولى يكون فى سكره وهو مغلوب لا طاقة له على الادعاء ، واظهار المعجزة على النبى يكون فى حال صحوه ، لأنه يتحدى ويدعو الخلق لمعارضتها . وصاحب المعجزة مخير بين طرفين : حكم أحدهما اظهارها حيثما يريد ، والآخر : كتمانها ، وليس للأولياء هذا ، لأنه يتفق لهم حينا ان يطلبوها (الكرامة) ولا تكون ، وحينا لا يطلبونها وتكون ، اذ أن الولى ليس داعيا حتى ينسب حاله الى بقاء الأوصاف ، لأنه مكتوم ، وحاله يوصف بفناء الصفة ؛ فواحد منهما صاحب شرع ، والآخر صاحب ستر . فيجب اذن الا تظهر الكرامة الا فى حال الغيبة والدهشة حين يكون تصرفه كله بتصرف الحق ؛ ومن يكن وقته هكذا يكن كل نطقه من تأليف الحق ، لأن صحة صفة البشرية اما أن تكون للاهى أو الساهى أو لمطلق الالهى ، والأنبياء لا يكونون ساهين ولا لاهين ، ومطلق الالهى لا يكون الا الأنبياء . ويبقى هنا الأولياء ؛ وهم فى تردد وتلون ، وبدون تحقيق وتمكين ، وطالما كانوا — بقيام حال البشرية — مع انفسهم ، يكونون محجوبين ، وعندما يكاشفون يصيرون مدهوشين ومتحيرين فى حقيقة الطاف الحق ، واظهار الكرامات لا يصح الا فى حال الكشف ، لأنها درجة القرب ، وذلك هو الوقت الذى يستوى لدى (الولى) فيه الحجر والذهب . وهذه الحال لا تصير بأى حال صفة لأحد من الآدميين غير الأنبياء الا وتكون عارية فيه ، ولا يكون ذلك الا فى حال السكر ، مثلما حدث ان انقطع حارثة يوما عن الدنيا وكوشف فى الدنيا بالعقبى ، فقال

رضى الله عنه : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وفضتها ومدرها » . وفى اليوم التالى رآوه يعمل فوق نخلة ، فقالوا له : ما تفعل يا حارثة ؟ قال : اطلب قوتى ، اذ لا مناص لى من ذلك ، فكان كذلك فى تلك الساعة ، وفى هذه الساعة هكذا .

فمقام صحو الأولياء درجة العوام ، ومقام سكرهم درجة الأنبياء ، وعندما يرجعون الى انفسهم يعتبرون أنفسهم من آحاد الناس ، وحين يغيبون عن أنفسهم ويرجعون الى الحق يصير السكر مذهبهم ، ويصيرون مهذبين للحق ، ويصير كل العالم فى حقهم مثل الذهب ، كما يقول الشبلى رحمه الله : « ذهب اينما ذهبنا ، ودر حيث درنا ، وفضة فى الفضاء » .

وسمعت من السيد الامام الخزامى فى سرخس قوله : كنت صبيا ، وكنت فى وقت من الأوقات سألت الطابرانى عن بداية حاله ؛ فقال : ذات مرة كنت فى حاجة الى حجر ، فكان كل حجر آخــذه من مجرى نهر سرخس يصير جوهرا ، فكنت القيه ثانية(١) . وكان هذا لأن كلاهما كانا لديه سواء ؛ بل كان الجوهر حينذاك احقر من الحجر ، لأنه كان يريد الحجر لا الجوهر .

وسمعت من السيد الامام الحزامى فى سرخس قوله : كنت صبيا ، وكنت قد ذهبت الى محلة من محلات الحدائق طلبا لأوراق التوت من اجل دودة القز ، وطلعت على شجرة فى وقت الظهيرة ، واخــذت اضرب فرع تلك الشجرة ، فمر ابو الفضل حسن رضى الله عنه بتلك المحلة ، وكنت على الشجرة فلم يرنى ، ولم اشك قط فى انه كان غائبا عن نفسه وحاضرا مع الحق بقلبه ، فرفع رأسه وقال على حكم الانبساط : يا الهى ! منذ اكثر من سنة لم تعطنى دانقا لأحلق راسى ، اتفعل هذا مع احبائك ؟ فصارت كل أوراق الأشجار وغصونها وأصولها ذهبا فى الحال . وعندئذ قال : ياله أمر عجيب ! كل تعريضنا اعراض ! الا يمكن التحدث معك لانشراح القلب ؟ !

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الرسالة على هذا النحو : « سألت احمد الطابراني السرخسي رحمه الله ، فقلت له : هل ظهر لك شيء من الكرامات ؟ فقال : فى وقت ارادتى وابتداء أمرى ربما كنت أطلب حجرا استنجي به فلم أجد ، فتناولت شيئا من الهواء فكان جوهرا ، فاستنجيت به ، وطرحته . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٧٥) .

ويرد عن الشبلى أنه ألقى باربعة آلاف دينار جملة فى دجلة ، فقالوا له : ما تفعل ؟ قال : الحجر أولى بالماء . قالوا : لم لا تعطيها للخلق ؟ قال : سبحان الله ! بم أحتج الى الله فى انى رفعت الحجاب عن قلبى وجعلته على قلوب اخوتى المسلمين ، وليس من شرط الدين ان تريد أن يكون أخوك المسلم اسـوأ منك ؟

وهذا كله حال السكر ، وقد شرحته ، أما المراد هنا فاثبات الكرامة .

ثم ان الجنيد وأبا العباس السيارى وأبا بكر الواسطى، ومحمد بن على الترمذى صاحب المذهب « رضوان الله عليهم أجمعين » على أن الكرامة تظهر فى حال الصحو والتمكين دون السكر ، لأن الله تعالى جعل أولياءه أولياء للعالم ، وناط بهم الحل والعقد ، وصير احكام العالم موصولة بهمتهم ، فوجب أن تكون آراؤهم أصح كل الآراء ، وقلوبهم أشفق كل القلوب ، وبخاصة على خلق الله ، لأنهم واصلون ، والتلوين والسكر يكونان فى حال الابتداء ، فاذا حصل البلوغ تبدل التلوين بالتمكين ، ومن ثم يكون الولى وليا حقا ، وتكون كراماته صحيحة .

ومعروف بين أهل هذه الطريقة أنه ينبغى للأوتاد أن يطوفوا كل ليلة حول العالم ، واذا وجد مكان لم تقع عليه أعينهم ، وظهر فيه خلل فانهم عندئذ يرجعون الى القطب ليستحضر همته حتى يزيل الله تعالى ذلك الخلل عن العالم ببركاته .

وأولئك الذين يقولون ان الذهب والمدر صارا لديهم سواء ، فهذا كله علامة السكر ، وعدم صحة الرؤية . ولا يكون لهذا كبير شرف ، فالشرف يكون للصحيح الرؤية الصحيح المعرفة الذى يكون الذهب لديه ذهبا ، والمدر مدرا ، ولكنه يكون بصيرا بآفاتهما ، حتى ليقول « يا صفراء ويا بيضاء غرى غـيرى(۱) » ، لأنى رأيت آفاتكما . فمن ير آفاتهما ، ويعرف انهما محـل الحجاب ، ويقل بتركهما : يلق الثواب .

وأيضا : من يكن الذهب لديه مثل المدر لا يستقيم قوله بترك المدر : أما رأيت انه حين كان حارثة صاحب سكر ، قال : الذهب والمدر والحجر والفضـة

---

(۱) رواه الامام أحمد عن أبى صالح السمان عن على رضى الله عنـه : أنه فرق جميع ما فى بيت المال وهو يقول : يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى (اللمع ص ۱۸۱) .

لدى سواء ، وان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان صاحب صحو فرأى آفة قبض الدنيا ، وادرك ثواب تركها ، فكف يده عنها ، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ؟

ويروى ابو بكر الوراق الترمذى أن محمد بن علي رضى الله عنه قال له يوما : يا ابا بكر ! سامضى بك اليوم الى مكان . قلت : الأمر للشيخ ، وسرت معه . ولم يمض كثير حتى رايت صحراء كبيرة جدا ، وتختا ذهبيا موضوعا على حافة عين ماء تحت شجرة خضراء وسط تلك الصحراء ، وقد جلس عليه شخص ارتدى ثيابا طيبة ، فلما اقترب منه محمد بن على رضى الله عنه ، سلم ، فنهض واجلسه على التخت . فلما مضت مدة ، اقبلت من كل ناحية جماعة من الناس حتى اجتمع هنالك اربعون شخصا ، فأشار الى السماء ، فظهر ماكول ، فاكلنا . وسأل محمد بن على سؤالا ، وتكلم الرجل طويلا فى ذلك السؤال ، بحيث لم أفهم من حديثه كلمة . فلما انقضى بعض الوقت ، استأذن محمد بن على ورجع ، وقال لى : يا ابا بكر ! اذهب فقد صرت سعيد الأبد . وعدنا الى ترمذ بعد فترة ، وقلت : ايها الشيخ ! اى مكان كان ذلك ؟ ومن كان الرجل ؟ قال : كان ذلك تيه(١) بنى اسرائيل ، وكان ذلك الرجل القطب المدار عليه . قلت : ايها الشيخ ! كيف وصلنا فى هذه الساعة من ترمذ الى التيه ؟ قال : يا ابا بكر ! لا شأن لك بالوصول والسؤال والكيفية .

وهذا علامة على صحة الصحو لا السكر .

وقد اختصرنا هذا الآن ، لأننا لو شغلنا بتفصيله وشرح اخواته يطول الكتاب ، ونتخلف عن المقصود ، فلأصل بعض الدلائل التى تتعلق بهذا الكتاب بذكر كراماتهم وحكاياتهم ، ليكون فى ذلك تنبيه للمريدين ، وترويح للعلماء ، ومذاكرات للمحققين ، وللعوام زيادة يقين ورفع شبهة .

---

(١) « التيه » ارض بين ايلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من ارض الشام . والغالب على أرض التية الرمال وفيها مواضع صلبة ، وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة . يتصل حد من حدودها بالجار ، وحد بجبل طور سيناء وحد بأرض بيت المقدس وما اتصل به من فلسطين ، وحد ينتهى الى مفازة فى ظهر ريف مصر الى حد القلزم . (معجم البلدان ج ١ ص ٩١٢) .

الكلام فى ذكر كراماتهم :

اعلم انه ما دامت حجة العقل على صحة الكرامات قد ثبتت ، وقام الدليل على ثبوتها ، فانه ينبغى أن يصير الدليل الكتابى وما جاء فى الأخبار الصحاح معلوما لك أيضا ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بصحة الكرامات والأفعال الناقضة للعادات على يد أهل الولاية ، وانكار ذلك جملة انكار لحكم النصوص .

من جملة ذلك : ما أخبرنا به نص الكتاب فى قوله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى(١) » . فاذا قال قائل من المنكرين بأن تلك كانت معجزة موسى صلوات الله عليه ، فانه يجوز أن نقول أيضا ان كرامة الأولياء هذه معجزة محمد صلى الله عليه وسلم ، فان يقل ان هذه فى الغيبة فلا يجب أن تكون معجزة ، وتلك كانت فى وقت (موسى) ، نقول : ان موسى غاب عنهم وذهب الى الطور ، وكان نفس الحكم باقيا ، فسيان غيبة الزمان وغيبة المكان ، وما دامت المعجزة تجوز هناك فى غيبة المكان ، فانها تجوز هنا أيضا فى غيبة الزمان .

وأخبرنا أيضا عن كرامة آصف بن برخيا انه حين أراد سليمان عليه السلام أن يحضروا له عرش بلقيس قبل مجيئها ، أراد الله تعالى ان يبدى شرفه للخلق ، ويظهر كرامته ، ويبين لأهل زمانه ان كرامة الأولياء جائزة : قال سليمان عليه السلام : من يحضر تخت بلقيس هنا قبل مجيئها ؟ « قوله تعالى : قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك(٢) » فقال سليمان : ينبغى أسرع من هذا ، فقال آصف(٣) : انا آتيك به قبل ان يرتد

---

(١) سورة « البقرة » آية ٥٧ .

(٢) سورة « النمل » آية ٣٩ .

(٣) آصف بن برخيا : يقال انه كان أحد المسرفين ثم تداركه مولاه واجتباه وأعطاه العلم والفضل وأطلعه على الاسم الأعظم . وكان آصف ابن خالة سليمان عليه السلام فأوحى الله تعالى الى سليمان : يا ابن رأس العابدين ، ويا ابن محجة الزاهدين ، الى كم يعصينى ابن خالتك آصف ، وأنا أحلم عنه مرة بعد مرة ؟ فوعزتى وجلالى لئن أخذته عطفة من عطفاتى عليه لأتركنه مثله لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله اليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع يديه نحو السماء وهو يقول : الهى وسيدى ! أنت أنت وأنا أنا ، فكيف أتوب ان لم تتب على ؟ وكيف أستعصم ؟ ان لم تعصمنى لأعودن ! فأوحى الله اليه : صدقت ، أنت أنت وأنا أنا ، استقبل التوبة فقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . (قوت القلوب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩) .

اليك طرفك(١) » ، فلم يغضب عليه سليمان لهذا القول ، ولم ينكره ، ولم يره مستحيلا . ولم تكن هذه معجزة بأى حال ، لأن آصف لم يكن نبيا ؛ فلا محالة ان تكون كرامة . واذا كانت معجزة لوجب اظهارها على يد سليمان .

واخبرنا ايضا عن احوال مريم وزكريا انه حين كان يدخل على مريم كان يرى فى الصيف فاكهة الشتاء ، وفى الشتاء فاكهة الصيف ، فكان يقول : « أنى لك هذا ؟ » فتقول مريم : « هو من عند الله(٢) » . ومن المتفق عليه ان مريم لم تكن نبية . وقد اخبرنا الله عز وجل عن حالها ايضا ببيان صريح فى قوله : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا(٣) » .

وايضا احوال أصحاب الكهف ، وحديث الكلب معهم ، ونومهم وتقلبهم فى الكهف يمينا وشمالا ، « لقوله تعالى : ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد(٤) » ، فهذه كلها افعال ناقضة للعادة ، ومعلوم انها ليست معجزة ، فلابد أن تكون كرامة .

ويجوز ان تكون الكرامة بمعنى استجابة الدعوات بحصول امور موهومة فى زمان التكليف ، ويجوز ان تكون قطع مسافة كبيرة فى ساعة ، ويجوز ان تكون ظهور طعام من مكان غير متوقع ، ويجوز ان تكون اشرافا على افكار الخلائق ، وما شابه ذلك .

وفى الأحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم جاء حديث الغار ، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا يوما للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ! حدثنا بشيء من عجائب افعال الأمم الماضية . فقال : كان قبلكم ثلاثة اشخاص يسيرون الى مكان ، فلما جن الليل قصدوا غارا وناموا فيه ، فلما مضى هزيع من الليل انحدرت صخرة من الجبل وسدت باب الغار تماما ؛ فتحيروا وقالوا لبعضهم البعض : لا ينجينا من هذا المكان الا أن نشفع اعمالنا الخالية من الرياء الى حضرة الله تعالى . فقال واحد منهم : كان لى أبوان ، ولم اكن املك شيئا من حطام الدنيا غير عنيزة ، وكنت اقدم لهما لبنها ، واحضر كل يوم حزمة حطب انفق ثمنها على طعامى وطعامهما .

---

(١) سورة « النمل » آية ٤٠ .
(٢) سورة « آل عمران » آية ٣٧ .
(٣) سورة « مريم » آية ٢٥ .
(٤) سورة « الكهف » آية ١٨ .

وذات ليلة جئت متأخرا ، والى ان حلبت العنزة وثردت لهما طعامهما فى اللبن كانا قد ناما ، فبقى القدح فى يدى وانا واقف على قدمى ، ولم اطعم شيئا ، وكنت انتظر يقظتهما حتى طلع الصباح ، واستيقظا ، وطعما ، وعندئذ جلست . ثم قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى قولى هذا فاغثنا . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فتحركت الصخرة حركة وظهر شق . وقال الثانى : كانت لى ابنة عم ذات جمال ، وكان قلبى مشغولا بها دائما ، وكنت ادعوها الى فلا تجيب ، الى ان أرسلت اليها مرة بالحيل مائة وعشرين دينارا لتخلو معى ليلة ، فلما اقتربت منى ظهرت فى قلبى خشية من الله عز وجل ، فانصرفت عنها وتركت لها الذهب . وعندئذ قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى هذا فابعث الينا بالفرج . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فتحركت الصخرة حركة اخرى وازداد الشق انفراجا ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج بعد . وقال الثالث : كان لدى جماعة من الأجراء يعملون ، واخذوا جميعا اجرهم كاملا ، وغاب واحد منهم ، فاشتريت بأجره نعجة . وفى السنة التالية صارت اثنتين ، وفى الثالثة اربعا ، وهكذا كانت تزيد كل سنة . ومضت عدة سنوات فتجمع له مال كثير ، وجاءنى الرجل قائلا : اتذكر انى عملت لك مرة ؟ انا الآن محتاج الى اجرى ، فقلت له : هيا ، فهذا المال كله لك ، فقال : اتهزأ بى ؟ قلت : لا ، بل اقول حقا . واعطيته كل ذلك المال ، وانصرف . وعندئذ قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى هذا الكلام فابعث الينا بالفرج . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فازدادت الصخرة انفراجا عن باب الغار حتى خرج الثلاثة(١) .

وكان هذا الفعل ناقضا للعادة .

ومعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث جريج الراهب ، وقد رواه ابو هريرة رضى الله عنه فقال : قال النبى عليه السلام : لم يتكلم فى الصغر بالمهد الا ثلاثة : أولهم عيسى عليه السلام — وكلكم تعرفونه — والثانى : راهب فى بنى اسرائيل اسمه جريج ، وكان رجلا مجتهدا(٢) ، وكانت له أم

---

(١) ينقل الهجويرى عن الرسالة القشيرية معظم قصص الكرامات . وحديث الغار هذا أورده القشيرى باسناد طويل ، وقال عنه انه حديث صحيح ومتفق عليه . والعبارة هنا تختلف فى بعض المواضع عما ورد بالرسالة (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٦٩ — ٦٧١) .

(٢) ورد فى الرسالة ، وهو الأصح : « لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصبى من زمن جريج ، وصبى آخر . أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلا عابدا فى بنى اسرائيل » .

تقية : فجاءت لرؤية ولدها يوما وكان يصلى ، فلم يفتح باب الصومعة ، وكذلك فى اليوم الثانى والثالث ، حتى قالت أمه من غضبها : اللهم افضح ولدى ، وخذه بحقى ! وكان فى زمانه امراة زانية فقالت لجماعة : انا افتن جريجا ، وذهبت الى صومعته ، فلم يلتفت اليها ، فصاحبت راعيا فى الطريق وحملت منه ، فلما جاءت المدينة قالت : هذا الحمل من جريج . ولما وضعت حملها ، قصد الناس صومعته ، وجاءوا به الى السلطان ، فقال جريج : يا غلام ! من ابوك ؟ فقال : يا جريج ! ان أمى تكذب عليك ، وأبى راع .

واما الثالث : فان امراة كان لها صبى ، وكانت قد جلست على باب بيتها ، ومر فارس جميل الوجه حسن الملبس ، فقالت : يا رب اجعل ابنى مثل هذا الفارس . فقال الصبى : يا رب لا تجعلنى مثله . وبعد مدة مرت امراة سيئة السمعة ، فقالت الأم : يا رب لا تجعل ابنى مثل هذه المراة ، فقال الصبى : يا رب اجعلنى مثلها . فتعجبت الأم ، وقالت : يا بنى ! لم تقول هذا ؟ قال : لأن ذلك الفارس جبار من الجبابرة ، وهذه المراة امراة صالحة ولكن الناس يسبونها ، ولا أريد أن اكون من الجبابرة ، واريد أن أكون من الصالحين(١) .

ومعروف ايضا قصة زائدة جارية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذ دخلت يوما على النبى عليه السلام وسلمت عليه ، فقال لها النبى : يا زائدة ! لم تزورينا غبا ؟ أنت موفقة ، وانا احبك . قالت : يا رسول الله ! قد جئت اليوم بعجائب . قال : ما هى ؟ قالت : ذهبت صباحا للاحتطاب ، فلما حزمت حزمة ، وضعتها على صخرة لاحملها ؛ فرأيت فارسا هبط من السماء ، وسلم على وقال لى : ابلغى محمدا منى السلام ، وقولى له ان رضوان خازن الجنان يقرئك السلام ، ويقول : ابشر فقد قسمت الجنة من اجل امتك ثلاثة اقسام : فريق يدخلها بغير حساب ، وفريق يحاسب حسابايسيرا ، وفريق يغفر له بشفاعتك . قال هذا وصعد الى السماء ، والتفت الى فيما بين السماء والأرض فوجدنى لم ارفع الحزمة ، فقال : يا زائدة ! اتركى الحزمة على الصخرة . وقال لها : يا صخرة ! احملى الحزمة مع زائدة الى باب عمر. فنهض النبى عليه السلام وسار مع الصحابة حتى دار عمر رضى الله عنه ، فراوا اثر مجىء الصخرة وذهابها ، فقال (عليه السلام) الحمد لله ، اذ لم يخرجنى الله تعالى من الدنيا الا وقد بشرنى رضوان بدخول امتى الجنة ، واعطى الله عز وجل امراة من امتى هذه الكرامة ، وابلغها درجة مريم .

---

(١) أورد القشيرى حديث جريج هذا باسناد طويل ، والعبارة هنا مختلفة فى بعض التفاصيل . (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٦٨ — ٦٦٩) .

ومعروف أن النبى عليه السلام بعث العلاء بن الحضرمى لغزو ، وعرض له فى الطريق قطعة من البحر ، فساروا عليها ، وعبروها جميعا بحيث لم تبتل اقدامهم(١) .

ومعروف عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يسير فى طريق فرأى جماعة وقوفا على قارعة الطريق ، وقد اخذ عليهم الطريق سـبع ، فقال عبد الله بن عمر : أيها الكلب ! اذا كان لديك امر من الله فالزمه ، والا فافسح لنا الطريق لنمر . فنهض الأسد ، وتواضع له ، ومضى(٢) .

وفى اثر معروف عن ابراهيم النبى عليه السلام انه راى رجلا جالسا فى الهواء فقال له : يا عبد الله ! بم وجدت هذا ؟ قال : بشىء يسير . قال : ما هو ؟ قال : اعرضت عن الدنيا ، واقبلت على امر الله ، فقيل لى : الآن ماذا تريد ؟ قلت : ان يكون لى فى الهواء مسكن لينقطع قلبى عن الخلق .

وعندما جاء الفتى الأعجمى الى المدينة قاصدا قتل عمر ، قالوا له ان امير المؤمنين نائم بمكان فى الخرائب ، فذهب اليه ورآه نائما على التراب وقد وضع الدرة تحت راسه ، فقال لنفسه : اكل هذه الفتن فى الدنيا من هذا (الرجل) ، وقتله لدى سهل جدا ؟ وسل السيف ، فرأى أسدين اقبلا وقصداه ، فصاح ، فاستيقظ عمر رضى الله عنه ، وروى له القصة ، واسلم .

وفى أيام خلافة ابى بكر رضى الله عنه أرسل خالد بن الوليد الى سواد العراق ، فجىء بين الهدايا بحق فيه سم قاتل لا يوجد مثله فى خزانة اى ملك . وفتح خالد رضى الله عنه الحق والقى بالسم على كفه ، وقال : باسم الله ، ووضعه فى فمه ، فتعجب الناس ، واهتدى كثير منهم .

---

(١) ورد هذا الخبر فى اللمع ، وهنا اختلاف يسير فى العبارة (انظر : اللمع ص ٣٩٧) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة منسوبة الى ابراهيم بن ادهم أنه كان فى رفقة ، فعرض لهم السبع ، فقالوا : يا أبا اسحق ! قد عرض لنا السبع . فجاء ابراهيم وقال : يا اسد ! ان كنت أمرت فينا بشىء فامض ، والا فارجع . فرجع الأسد ، ومضوا . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٩١) .

ويروى الحسن البصرى رحمه الله انه كان فى « عبادان(١) » رجل اسود يأوى الى الخرائب ، وذات يوم اشتريت من السوق طعاما وحملته اليه ، فقال لى : ما هذا ؟ قلت : طعام جئت به عساك فى حاجة اليه . فلم يقل شيئا ، واشار بيده وضحك منى ، فرأيت حجر ومدر حيطان تلك الخرابة كله ذهبا ، فخجلت من فعلتى ، وتركت ما كنت قد حملته ، وفررت بنفسى من هيبته(٢) .

ويروى ابراهيم بن أدهم قائلا : مررت براع وطلبت منه ماء فقال : لدى لبن وماء ، فأيهما تريد ؟ قلت : اريد المـــاء . فنهض ، وضرب الحجر بعصاه ، فخرج منه ماء عذب لطيف ، فتعجبت ، قال : لا تعجب ، لأنه حين يكون العبد مطيعا للحق ، يطيعه العالمون جميعا .

وكان أبو الدرداء وسلمان (الفارسى) رضى الله عنهما جالسين معا يأكلان ويسمعان تسبيح القصعة(٣) .

ويروى عن ابى سعيد الخراز رضى الله عنه انه قال : فى بعض الأوقات كنت اطعم كل ثلاثة ايام مرة ، وكنت اسير فى البادية . وفى اليوم الثالث بدا على الضعف ، ولم أجد طعاما ، وطلب الطبع عادته ، فجلست فى مكان ، فصاح بى هاتف يقول : يا أبا سعيد ! اختر : اتريد للنفس سببا لدفع الضعف بلا طعام ، أم طعاما لتسكين النفس ؟ فقلت : يا الهى ! اريد سببا . فدبت فى قوة ، ونهضت ، وسرت اثنتى عشرة مرحلة اخرى دون طعام وشراب(٤) .

---

(١) عبادان : كانت قطيعة لحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان . وهذا الموضع فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع ، وهو تحت البصرة قرب البحر الملح . (معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٩٧) .

(٢) وردت فى اللمع والرسالة ، وهنا اختلاف يسير (انظر : اللمع ص ٣٩١ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٧٥) .

(٣) ورد فى اللمع (انظر ص ٣٩٧) .

(٤) وردت فى اللمع والرسالة وهنا اختلاف فى العبارات . (انظر : اللمع ص ٥-٤ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٨١) .

ومعروف انهم اليوم فى « تستر(١) » يسمون بيت (سهل بن) عبد الله « بيت السباع » . واهل تستر متفقون على ان كثيرا من الأسود والسباع كانت تجىء اليه ، وكان يقدم لها الطعام ، ويرعاها . واهل تستر خلق كثيرون(٢) .

ويقول ابو القاسم المروزى : كنت أسير مع ابى سعيد الخراز ، فرايت على شاطىء البحر شابا يرتدى مرقعة ، وقد علق محبرة فى ركوة ، فقال ابو سعيد : سيماء هذا الشاب عبائية ، ومعاملته حبرية : وحين انظر اليه اقول انه من الواصلين ، وحين انظر الى المحبرة اقول انه من الطالبين ، فتعال نسأله الأم وصل . وقال له الخراز : ايها الفتى ! ما الطريق الى الله قال : الطريق الى الله طريقان : احدهما طريق العوام ، والآخر طريق الخواص ، ولا علم لك بطريق الخواص ، اما طريق العوام فهذا الذى تسلكه ، وتجعل معاملتك علة الوصول الى الحق ، وترى المحبرة من الحجاب(٣) .

ويقول ذو النون المصرى : ذات مرة ركبنا سفينة لنذهب من مصر الى

---

(١) تستر : اعظم مدينة بخوزستان ،وهو تعريب «شوشتر» . وبخوزستان انهار كثيرة اعظمها نهر تستر ، وهو الذى بنى عليه سابور شادروان بباب تستر حتى ارتفع ماؤه الى المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض، وبتستر قبر البراء بن مالك الانصارى ، وفتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ١ ص ٨٤٧ ، ٨٥٠) .

(٢) ذكر ابو نصر السراج انه دخل هذا البيت (انظر : اللمع ص ٣٩١) ؛ واورد القشيرى ايضا ذلك . (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٧٤) .

(٣) وردت هذه الحكاية عن ابى القاسم بن مروان النهاوندى ، قال : كنت انا وابو بكر الوراق مع ابى سعيد الخراز نمشى على ساحل البحر نحو « صيدا » فراى شخصا من بعيد ، فقال : اجلسوا ، لا يخلو هذا الشخص ان يكون وليا من أولياء الله . قال : فما لبثنا ان جاء شاب حسن الوجه وبيده ركوة ومحبرة ، وعليه مرقعة . فالتفت ابو سعيد اليه منكرا عليه لحمله المحبرة مع الركوة ، فقال له : يا فتى ! كيف الطرق الى الله تعالى ؟ فقال يا ابا سعيد ! أعرف الى الله طريقين : طريقا خاصا وطريقا عاما ، فأما الطريق العام : فالذى انت عليه ، وأما الطريق الخاص : فهلم ! ثم مشى على الماء حتى غاب عن اعيننا ، فبقى ابو سعيد حيران مما راى . (الرسالة ج ٢ ٦٨٩ — ٦٩٠) .

جدة(١) ، وكان معنا فى السفينة فتى يلبس مرقعة ، وكنت أتوق الى صحبته، ولكن هيبته كانت تمنعنى من الحديث معه ، لأنه كان رجلا عزيز الحال جدا ، ولم يكن يخلو من العبادة ، الى ان ضاعت ذات يوم صرة جواهر من رجل ، فاتهم صاحبها هذا الفتى ، وارادوا ان يغلظوا له القول ، فقلت : لا تتحدثوا معه هكذا حتى أسأله بالحسنى . واقتربت منه وقلت له متلطفا : ان هؤلاء الناس يتهمونك ، وقد منعتهم من الاغلاظ والجفاء معك ، فما العمل ؟ فرفع وجهه الى السماء وقال شيئا ، فرايت الأسماك وقد ظهرت على وجه الماء ، وقد امسكت كل منها بجوهرة فى فمها ، فأخذ جوهرة واعطاها للرجل . فلما راى اهل السفينة ذلك ، وضع قدمه على الماء ومضى . واما الذى سرق الصرة من اهل السفينة فقد اعادها ، وندم اهل السفينة كثيرا(٢) .

ويروى عن ابراهيم الرقى(٣) انه قال : فى ابتداء أمرى ، قصدت زيارة مسلم المغربى ، فلما دخلت مسجده كان يؤم الناس ، وقرا الفاتحة خطأ ، فقلت لنفسى : ضاع تعبى ! وفى اليوم التالى اردت ان اذهب الى شاطىء النهر للطهارة ، وكان قد نام فى الطريق اسد ، فرجعت . وكان اسد آخر يسير فى اثرى فصرخت ، فخرج مسلم من الصومعة ، ولما رآه الأسدان ، تواضعا له ، فأمسك بأذن كل منهما وعركها ، وقال : يا كلاب الله ! الم اقل لكم لا تتعرضوا لضيوفى ؟ ثم قال لى : يا (ابا) اسحق ! لقد انشغلت بتقويم ظاهرك للخلق لأنك كنت تخشى الخلق ، وانشغلنا نحن بتقويم باطننا للحق ليخشانا الخلق(٤) .

---

(١) جدة : بلد على ساحل بحر اليمن ، وهى فرضة مكة بينهما يوم وليلة (معجم البلدان جـ ٢ ص ٤١) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى ترجمة مالك بن دينار ، واشار الهجويرى الى انه هو الذى اتهم بسرقة الجوهرة (انظر جـ ١ ص ٢٩٩) ، كما وردت فى الرسالة ، وهنا بعض الاختلاف (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٦٨٣ — ٦٨٤) .

(٣) ابراهيم بن داود الرقى : كنيته ابو اسحق ، من جلة مشايخ الشام، ومن اقران الجنيد وابن الجلاء . صحبه اكثر مشايخ الشام ، وتوفى سنة ست وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٣١٩ ، الرسالة جـ ١ ص ١٤٣ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٨١ تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٧٥ ، نفحات الانس ص ١٦٤) .

(٤) اوردها القشيرى على انها من كرامات ابى الخير الأقطع التيناتى ، قال : « وحكى عن ابراهيم الرقى انه قال : قصدته مسلما عليه ، فصلى صلاة المغرب فلم يقرا الفاتحة مستويا . فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ، =

وذات يوم خرج شيخى من بيت الجن قاصدا دمشق ، وكان المطر قد هطل ، وكنا نسير بمشقة فى الوحل ، وتنظرت الى الشيخ فكان حذاؤه وثوبه جافين ، فحدثته (فى ذلك) فقال : نعم ، لأنى رفعت التهمة من طريق التوكل ، وحفظت قلبى من وحشة الحرص ، حفظ الله تعالى قدمى من الوحل .

ووقعت لى مرة واقعة ، وصعب على طريق حلها ، فقصدت الشيخ أبا القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وكان بطوس ، فوجدته فى مسجد بيته وحيدا ، وكان يتحدث الى عمود بعين واقعتى ، فقلت له : مع من تتكلم ؟ قال : يا بنى ! لقد انطق الله عز وجل لى هذا العمود فى هذه الساعة فسألنى هذا السؤال .

وبفرغانه(١) قرية يسمونها « شلاتك » ، وكان هنالك شيخ من أوتاد الأرض كانوا يلقبونه « الباب » — وهم يسمون كل صوفية تلك الديار وكبار الشيوخ بالباب — وكانت له زوجة عجوز تدعى فاطمة ، وقصدت زيارته من اوزكند(٢) ، ولما دخلت عنيه ، قال : فيم جئت ؟ قلت : لأرى الشيخ بصورته ، ولينظر الى بعين الشفقة . فقال : يا بنى ! اننى اراك منذ اليوم الفلانى ، وحتى لا يجعلوك تغيب عنى أردت أن أراك . وعندما حسبت الأيام والأعوام كان ذلك يوم ابتداء توبتى . وقال : يا بنى ! ان قطع المسافات عمل الصغار ، وعليك بالهمة بعد هذه الزيارة ، فليس هناك شىء قط مرتبط بالحضور الى المشايخ ، ثم قال : يا فاطمة ! هات ما عندك لياكل هذا الدرويش . فأحضرت طبقا من العنب الطازج ، ولم يكن هذا أوانه ، وكان على الطبق رطب ، ولا يمكن وجود الرطب فى فرغانه .

= فلما سلمت خرجت للطهارة ، فقصدنى السبع ، فعدت اليه وقلت : ان الأسد قصدنى . فخرج وصاح على الأسد وقال : ألم اقل لك لا تتعرض لضيفانى؟ وتنحى ... وتطهرت . فلما رجعت قال : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٧٤) .

(١) « فرغانة » : يقال لها « كاسان » وهى مدينة جليلة القدر ، عظيمة الأمر ، من المدن المضافة الى عمل سمرقند (البلدان ص ٥٩) يقال كان بها أربعون منبرا . وبينها وبين سمرقند خمسون فرسخا . (معجم البلدان جـ ٣ ص ٨٧٩) .

(٢) أوزكند : بلد بما وراء النهر ، من نواحى فرغانه ، ويقال لها : أوزجند ، وهى آخر مدن فرغانة مما يلى دار الحرب ، وينسب اليها جماعة منهم على بن سليمان بن داود الخطيبى : ابو الحسن الاوزكندى (معجم البلدان جـ ١ ص ٤٠٤) .

وذات مرة كنت جالسا على تربة الشيخ أبى سعيد رحمه الله بميهنه ، وحيدا كعادتى ، فرأيت حمامة بيضاء مقبلة ، ودخلت تحت الفوطة الملقاة على تربته ، فقلت : عساها فرت من أحد . وحين نهضت نظرت تحت الفوطة ، فلم يكن هناك شيء قط . ورأيت هذا فى اليوم الثانى والثالث ، وبقيت فى عجب منه ، حتى رأيت (الشيخ) فى المنام ذات ليلة ، فسألته عن تلك الواقعة ، فقال : ان تلك الحمامة هى صفاء معاملتى التى تدخل كل يوم قبرى لمنادمتى .

ويروى ابو بكر الوراق قائلا : ذات يوم أعطانى محمد بن على الحكيم الترمذى بعض أجزاء من تصانيفه وقال : الق هذه فى جيحون . فلما خرجت نظرت فكانت كلها طرائف لطيفة ، فلم يطاوعنى قلبى ، ووضعتها فى منزلى ، وعدت وقلت له : القيتها . قال : فما رأيت ؟ قلت : لم ار شيئا . قال : لم تلقها . فقلت : لقد صارت مشكلتى مشكلتين ؛ احداهما : لم يقول القها فى المـــاء ؟ ، والأخرى : اى برهان سيظهر ؟ ورجعت واخذت الأجزاء وجئت الى شاطىء جيحون متألم القلب ، ورميت الأجزاء من يدى ، فرأيت المـــاء قد انشق وظهر صندوق مفتوح وسقطت فيه هذه الأجزاء ، واغلق الصندوق باحكام ، وجرى الماء على حاله . فعدت وقلت له ؛ فقال : الآن القيتها . فقلت : ايها الشيخ ! استحلفك بعزة الله أن تقول لى هذا السر . فقال : اعلم انى كنت قد صنفت كتابا فى علم هذه الطائفة ، يصعب على جميع العقول تحقيقه ، وقد طلبه منى أخى الخضر عليه السلام ؛ وكانت سمكة قد أحضرت هذا الصندوق بأمره ، وأمر الله تعالى الماء أن يوصله اليه(١) .

واذا ذكرت كثيرا من هذه الحكايات فانها لا تنفد بعد ، ومرادى من هذا الكتاب اثبات اصول الطريقة فى الفروع والمعاملات . وقد عمل النقالون كتبا وجمعوا كثيرا منها ، وينشرها المذكورون فوق المنابر .

والآن اجيء بالفصول المتصلة بهذا ، فى هذا الكتاب المشبع ، حتى لا يلزم الرجوع اليها فى مكان آخر ، ان شاء الله تعالى .

---

(١) هذه الحكاية مكررة ، فقد سبق ذكرها فى ترجمة ابى بكر الوراق (انظر : جـ ١ ص ٣٥٤) واثبت الناشر فى الحواشى ما ترجمته : « وقد ذكر فى هذا الموضع فى نسخة أخرى حكاية محمد بن على الحكيم التى ينقلهـــا ابو بكر الوراق من انه اعطانى جزءا لألقيه فى الماء . وصارت مكررة هنـــا ولذا لم اكتبهـــا » .

الكلام فى تفضيل الأنبياء على الأولياء :

اعلم أن جملة مشايخ هذه الطريقة مجمعون على أن الأولياء فى جميع الأوقات والأحوال متابعون للأنبياء ومصدقون لدعوتهم . والأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بداية النبوة . وجميع الأنبياء أولياء ، ولكن لا يكون من الأولياء نبى . والأنبياء متمكنون فى نفى صفات البشرية ، والأولياء عارية. وما يكون لهذا الفريق حالا طارئة يكون لذلك الفريق مقاما ، وما يكون مقاما لهذا الفريق يكون لذلك الفريق حجابا ، ولا يختلف فى هذا أى احد من علماء أهل السنة ومحققى هذه الطريقة ، غير فريق من الحشوية ، وهم مجسمة أهل خرسان(١) المتكلمون بكلام متناقض فى أصول التوحيد ، لأنهم لايعرفون اصل هذه الطريقة ، ويسمون انفسهم أولياء ، وهم أولياء حقا ولكنهم أولياء الشيطان ، ويقولون ان الأولياء افضل من الأنبياء ، ويكفيهم هذه الضلالة انهم يجعلون جاهلا افضل من محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم . وفريق آخر من المشبهة الذين ينمون الى هذه الطريقة ويجيزون — لعنهم الله — حلول ونزول الحق (فى جسم العبد) بمعنى الانتقال ، ويقولون بجواز التجزئة على ذات البارىء تعالى ، وذلك فى المذهبين المذمومين اللذين وعدت بأن أذكرهما بالتفصيل فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وفى الجملة فان هاتين الطائفتين اللتين تدعيان الاسلام متفقتان فى نفى

---

(١) « مجسمة أهل خراسان » : هم الكرامية . ويقول البغدادى ان الكرامية بخراسان ثلاثة أصناف : حقائقية ، وطرائقية ، واسحاقية . وهذه الفرق الثلاث لا يكفر بعضها بعضا وان كفرها سائر الفرق ، فلهذا عددناها فرقة واحدة . وزعيمها محمد بن كرام — شيخ الكرامية من المجسمة ؛ كان له فى خراسان من الاتباع ما يزيد على عشرين الفا ، ومثل ذلك فى أرض فلسطين . توفى سنة ٢٥٥ هـ — كان مطرودا من سجستان الى غرجستان، وورد نيسابور فى زمان ولاية محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، وتبعه على بدعته من اهل سواد نيسابور شرذمة . وضلالات اتباعه متنوعة : فمنها أن ابن كرام دعا اتباعه الى تجسيم معبوده وزعم انه له حد ونهاية من تحته والجهة التى منها يلاقى عرشه . وقد وصف ابن كرام معبوده فى بعض كتبه بانه جوهر . وذكر فى كتابه ان الله تعالى مماس لعرشه وأن العرش مكان له . (انظر : « الفرق بين الفرق » ص ١٣٠ — ١٣١) .

تخصيص الأنبياء ، وكل من يعتقد نفى تخصيص الأنبياء يصير كافرا ، فالأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين دعاة وائمة ، والأولياء متابعون لهم باحسان ، ومحال ان يكون المأموم أفضل من الامام .

وجملة القول : اعلم انه اذا وضعت احوال وانفاس أوقات جميع الأولياء فى جنب قدم صدق لنبى فانها تتلاشى جملة ، لأن هذه الطائفة (أى الأولياء) يطلبون ويسلكون ، وتلك (اى الأنبياء) قد وصلوا وادركوا ، ورجعوا بأمر الدعوة ، ويحملونها لقوم .

واذا قال قائل من هؤلاء الملاحدة المذكورين ــ لعنهم الله ــ ان العادة قد جرت بأنه اذا جاء رسول من ملك الى شخص فلابد أن يكون المبعوث اليه أفضل منه ، مثلما أن الأنبياء أفضل من جبريل ، فتصورهم هذا خاطىء ، ونقول لهم : اذا ارسل ملك رسولا الى شخص وجب أن يكون المرسل اليه أفضل ، كما ارسل جبريل الى الرسل وكانوا كل منهم أفضل منه . ولكن حين يكون الرسول الى جماعة أو قوم فلا محالة أن يكون الرسول أفضل من تلك الجماعة ، كالأنبياء عليهم السلام من الأمم . ولا تقع لأى عاقل شبهة فى هذا ، ولا يخطر له اشكال ، فنفس واحد من أنفاس الأنبياء أفضل من أوقات كل الأولياء ، لأن الأولياء حين يصلون الى النهاية يخبرون عن المشاهدة ، ويخلصون من حجاب البشرية ــ وان كانوا عين البشر ــ واول قدم للنبى تكون فى المشاهدة . وما دامت بداية هذا نهاية ذاك ، فانه لا يمكن أن يقاس هذا بذاك .

الا ترى أن جميع طلاب الحق من الأولياء متفقون على أن مقام الجمع من التفاريق هو كمال الولاية ؟ وصورة ذلك ان العبد ، من غلبة المحبة ، يصل الى درجة يصير فيها عقله مغلوبا فى النظر الى الفعل ، وبشوقه للفاعل يراه كل العالم ، كما قال ابو على الروذبارى رحمه الله : « لو زالت عنا رؤيته ما عبدناه » ، لأننا لا ندرك شرف العبادة الا برؤيته . وهذه المعانى تكون للأنبياء بداية الحال ، لأن التفرقة لا تحدث فى احوالهم ، ويكون نفيهم واثباتهم ومسلكهم ومقطعهم واقبالهم واعراضهم وبدايتهم ونهايتهم كلها فى عين الجمع ، كما هو الشأن فى بداية حال ابراهيم صلوات الله عليه ، اذ رأى النجم والقمر فقال « هذا ربى(١) » ، وأيضا لما رأى الشمس قال « هذا ربى » ، فلم يكن

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٧٦ .

ـ من غلبة الحق على قلبه واجتماعه فى عين الجمع ـ يرى الغير ، واذا رآه ، رآه بعين الجمع . وفى عين الرؤية تبرا من رؤيته وقال : « لا احب الآفلين(١) » ، فابتدأ بالجمع ، وانتهى بالجمع ، فلا جرم أن تكون للولاية بداية ونهاية ولا يكون ذلك للنبوة ، فالأنبياء كانوا أنبياء مذ كانوا ، ويبقون أنبياء ما بقوا ، وكانوا كذلك فى معلوم الحق ومراده قبل أن يوجدوا .

وسئل أبو يزيد رضى الله عنه : « ما تقول فى حال الأنبياء ؟ قال : هيهات ! لا تصرف لنا ابدا فيهم ، فكل ما نتصوره فيهم كله نحن ، وقد جعل الحق تعالى اثباتهم ونفيهم فى درجة لا تصل اليها اعين الخلق ، فكما ان مراتب الأولياء خافية عن ادراك الخلق ، كذلك مراتب الأنبياء خافية عن تصرف الأولياء .

وأبو يزيد رضى الله عنه ، وكان رجلا عجيبا فى وقته ، يقول : حملوا سرنا الى السماوات فلم ينظر الى شىء ، واروه الجنة والنار فلم يلتفت الى شىء ، وجازوا به المكونات والحجب ، فصرت طيرا ، وكنت اطير فى هواء الهوية حتى اشرفت على ميدان الاحدية ، ورايت فيه شجرة الأزلية ، فلما نظرت كنت أنا كل ذلك(٢) ، فقلت : يا الهى ! ليس لى طريق اليك مع الأنية ، ولا معدى لى عن انيتى ، فما ينبغى لى عمله ؟ فجاءه الامر ان : يا ابا يزيد ! خلاصك من أنيتك منوط بمتابعة حبيبنا ، فأكتحل بتراب قدمه ، وداوم على متابعته ، وهذه حكاية طويلة ، وأهل الطريقة يسمونها « معراج بايزيد » .

والمعراج عبارة عن القرب ، فمعراج الأنبياء يكون من وجه الاظهار بالشخص والجسد ، ومعراج الأولياء يكون من وجه الهمة والأسرار ـ واجساد الأنبياء فى الصفاء والطهر والقربة مثل قلوب الأولياء واسرارهم ؛ وهذا فضل ظاهر ـ ويكون ذلك بأن يجعل الولى مغلوبا فى حالة حتى

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٧٦ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وزيدت فى الحواشى عبارات اخرى ، وورد فى اللمع انه حكى عن ابى يزيد انه قال : اول ما صرت الى وحدانيته ، فصرت طيرا جسمه من الأحدية ، وجناحاه من الديمومية ، فلم ازل اطير فى هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت الى هواء مثل ذلك مائة الف الف مرة ؛ فلم ازل اطير الى ان صرت فى ميدان الأزلية ، فرايت فيها شجرة الأحدية . ثم وصف أرضها واصلها وفرعها وأغصانها وثمارها ؛ ثم قال : فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة . وتبع ذلك تفسير لهذا القول للجنيد (انظر اللمع ص ٤٦٤ وما بعدها) .

يسكر ، وعند ئذ يغيب عنه سره فى الدرجات ، ويزين بقرب الحق ، وعندما يعود الى حال الصحو تكون تلك البراهين كلها قد ارتسمت فى قلبه ، ويحصل له علمها ، فالفرق كبير بين شخص يحمل شخصه الى حيث يحمل فكر الآخر ، وبالله العون والتوفيق .

الكلام فى تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة والمؤمنين ايضا :

يتفق اهل السنة والجماعة وجمهور مشايخ الصوفية رحمة الله عليهم اجمعين على ان الانبياء والمحفوظين من الأولياء أفضل من الملائكة ، وذلك على خلاف المعتزلة الذين يقولون ان الملائكة افضل من الانبياء ، وانهم أرفع فى الرتبة ، والطف فى الخلقة ، واكثر طاعة للحق تعالى وتقدس ، فيجب أن يكونوا افضل .

ونقول : الحقيقة على خلاف ما تتصورون ، فالجسد المطيع ، والرتبة الرفيعة ، والخلقة اللطيفة ليست علة لفضل الحق جل جلاله ، فالفضل لمن جعل الحق تعالى له الفضل . وكل هذا الذى تقولونه كان لابليس ولكنه ملعون ومخذول بالاجماع ، فالفضل لمن يجعل الله تعالى وتقدس له الفضل ، ويصطفيه من الخلق .

والدليل على فضل الأنبياء أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، ومن الضرورى ان يكون حال المسجود له اعلى من حال الساجد .

وان يقولوا ان الكعبة حجر جماد والمؤمن افضل منها ويسجد لها ، فجائز ايضا ان الملائكة كانوا افضل من آدم وسجدوا له ، نقول : لا يقول احد ابدا ان المؤمن يسجد للكعبة او المحراب او الحائط ، بل الكل يقولون انه يسجد لرب الكعبة . والجميع يقولون أن الملائكة سجدوا لآدم وفقا لقوله تعالى : « اسجدوا لآدم(١) » وحين أمر الله المؤمنين قال : « واسجدوا واعبدوا ربكم(٢) » ، فالكعبة ليست مثل آدم . والمسافر اذا أراد أن يصلى لله وهو على ظهر دابة فانه اذا لم يتجه الى الكعبة يكون معذورا ، والمغمى عليهم اذا فقدوا الاستدلال على القبلة فى بادية فانهم حيثما يولوا وجوهم يكونوا قد امتثلوا امر الله . ولم يكن للملائكة فى السجود لآدم عذر ، وذاك (اى ابليس) الذى جعل لنفسه عذرا صار ملعون الابد وذليلا . وهذه الأدلة واضحة لمن له بصيرة .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٣٤ .
(٢) سورة « الحج » آية ٧٧ .

واعلم أيضا انه اذا كان الملائكة مضطرين فى حق المعرفة ، فلأنهم لا شهوة لهم فى خلقتهم ، ولا حرص ولا آفة فى قلوبهم ، ولا رياء فى جبلتهم : غذاؤهم الطاعة ، ومشربهم الاقامة على الأمر . ثم ان الشهوة مركبة فى طينة آدم ، وارتكاب المعاصى محتمل منه ، وزينة الدنيا مؤثرة فى قلبه ، والحرص والحيلة منتشران فى طبعه ، وللشيطان سلطان كبير على شخصه لأنه يجرى مجرى الدم فى عروقه ، ومقرونة به النفس التى تدعوه الى كل الشرور ، فالشخص الذى يكون كل هذا وصفا لوجوده ، ومع امكان الشهوة يتعفف عن الفسق والفجور ، ومع عين الحرص يعرض عن الدنيا ، ومع بقاء وسواس الشيطان فى قلبه يرجع عن المعاصى ، ويعرض عن الآفات النفسية لينشغل بالقيام على العبادة ، والمداومة على الطاعة ، ومجاهدة النفس ، ومحاربة الشيطان ، فانه يكون فى الحقيقة افضل من أولئك (أى الملائكة) ، لأنهم ليس فى صفاتهم معترك للشهوة ، ولا فى طباعهم ميل الى الغذاء واللذة ، ولا هم زوجة وولد ، ولا انشغال بالأهل والنسب،ولا هم محتاجون للآلة والسبب،ولا مستغرقون فى الأمل والآفة .

لعمرى انى لأعجب ممن يرى الفضل فى الأفعال ، أو العز فى الجمال ، او العظمة فى جذب المنال ، وهو سرعان ما يرى تلك النعمة والعظمة تزول عنه ، لم لا يرى الفضل من مالك الأعيان ، والعز من رضاء السبحان ، والعظمة من المعرفة والايمان ، ليرى هذه النعمة خالدة عليه ، ويرى قلبه سعيدا بها فى الدارين ؟ !

ان جبريل الذى عبد الله آلاف السنين فى انتظار خلعة ، كانت خلعته حفظ غاشية محمد « صلى الله عليهما » حتى خدم دابته ليلة المعراج ، فكيف يكون افضل ممن يروض النفس فى الدنيا ، ويجاهد ليل نهار ، والحق يشمله بعنايته ، ويكرمه برؤيته ، وينجيه من كل المخاطر ؟

وعندما تجاوزت نخوة الملائكة الحد ، وجعل كل منهم صنماء معاملته حجة ، واطال لسان اللوم فى الآدميين ، أراد الحق جل جلاله أن يظهر لهم حالهم ، ويعلموا أن طهرهم محض عصمة الحق جل جلاله ولطف عنايته ، فقال لهم : اختاروا من بينكم ثلاثة يكونون اكبركم وتعتمدون عليهم ليذهبوا الى الأرض ، ويكونوا خلفاء فى الأرض ، ويدعوا الخلق الى الصلاح ، وينصفوا ويعدلوا بين الآدميين . فاختاروا ثلاثة ملائكة : واحد منهم قبل أن يصل الى الأرض رأى آفتها ، فطلب من الله تعالى أن يعود . وجاء الاثنان الى الأرض ، وقبل أن يصلا اليها ، بدل الله تعالى خلقتهما ، وجعلهما يرغبان فى الطعام والشراب ، وابتلاهما بالشهوة حتى عاقبهما بذلك ، وشاهدا فضل الآدميين على الملائكة عيانا .

وفى الجملة : فان خواص المؤمنين افضل من خواص الملائكة ، وعوام المؤمنين افضل من عوام الملائكة ، فالمحفوظون والمعصومون من الآدميين افضل من جبريل وميكائيل عليهما السلام ، وغير المعصومين افضل من الحفظة ؛ يعنى كرام الكاتبين ، والله أعلم .

وقد قيل فى هذا المعنى كلام كثير ، وقال كل من المشايخ شيئا . والله تعالى يفضل من يشاء على من يشاء ، والله تعالى اعلم .

والطف ما يتعلق بمذهب الحكيمية فى التصوف واختلاف المتصوفة مع بعضهم البعض هو ما ذكرته على سبيل الاختصار والتخفيف .

والولاية فى الحقيقة سر من أسرار الحق لا يتضح الا بالسلوك . ولا يعرف الولى غير الولى . ولو جاز اظهار هذا الأمر على كل العقلاء لما ظهر الحبيب من العدو ، ولما تميز الواصل من الغافل ، فالله تعالى أراد أن يجعل جوهر المحبة فى صدف الخلق الوضيع ، ويلقيه فى بحر البلاء ليفديه الطالبون بأرواحهم ، لمعزته ، ويقدموا الروح نثارا على ذلك البحر السالب للأرواح ، ويغوصوا فى قاع البحر ليحصل مرادهم او يهلكوا كلية فى سبيل ذلك ؛ أو ينقضى عليهم حال الدنيا .

وقد أردت أن أطيل فى اصل هذا الكلام ولكن منعنى خوف ملالك ، ونفور طبعك ، فعطفت العنان صوب الاختصار . وهذا المقدار كاف لملاحظ ؛ مريد للطريقة ، والله أعلم بالصواب .

الخـــرازيـــة

أما الخرازيون فينتمون الى ابى سعيد الخراز رضى الله عنه ، وله فى هذه الطريقة تصانيف زاهرة ، وفى التجريد والانقطاع اثر عظيم . وكان أول من عبر عن حال الفناء والبقاء(١) ، واضمر طريقته كلها فى هاتين العبارتين . واتكلم الآن عن معناهما ، واورد اخطاء جماعة فيهما ، لتعرف ما هو مذهبه ، وما مقصود هذه الطائفة من هاتين العبارتين المتداولتين .

الكلام فى الفناء والبقـــاء :

« قوله تعالى : ما عندكم ينفد وما عند الله باق(٢) » . « وقوله تعالى : كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام(٣) » .

اعلم ان الفناء والبقاء على لسان العلم بمعنى ، وعلى لسان الحال بمعنى آخر . واهل الظاهر ليسوا اكثر تحيرا فى عبارة من العبارات منهم فى هذه العبارة .

---

(١) « الفناء والبقاء » : ذكر القشيرى أن الصوفية أشاروا بالفناء الى سقوط الأوصاف المذمومة ، واشاروا بالبقاء الى قيام الأوصاف المحمودة .
وقسم القشيرى الفناء الى فنائين ، هما : فناء العبد عن افعاله الذميمة وأحواله الخسيسة ، ويكون بعدم هذه الأفعال . وفناؤه عن نفسه وعن الخلق ، بزوال احساسه بنفسه وبهم ، فاذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجودا . واذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق ، فنفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم، ولا به ، ولا احساس ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق اجمعين ، غير محس بنفسه وبالخلق .
وجعل القشيرى فناء العبد على ثلاث مراحل : فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق . ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق . ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق . (انظر : الرسالة جـ ١ ص ٢١١ ـ٢١٣) .
(٢) سورة « النحل » آية ٩٦ .
(٣) سورة « الرحمن » آية ٢٦ ، ٢٧ .

و « البقاء » على لسان العلم ومقتضى اللغة على ثلاثة انواع :

الأول : بقاء طرفه الأول فى الفناء ، وطرفه الآخر فى الفناء ، مثل هذه الدنيا التى لم تكن موجودة فى الابتداء ، ولا تكون موجودة فى الانتهاء ، وموجودة الآن .

والثانى : بقاء لم يكن موجودا قط ووجد ، ولا يفنى ابدا ، وذلك هو الجنة والنار ، والآخرة واهلها .

والثالث : بقاء لا يمكن ابدا انه لم يكن ، ولا يمكن انه لا يكون ، وذلك بقاء الحق وصفاته جل جلاله ، لم يزل ولا يزال ، وهو قديم مع صفاته . والمراد من بقائه : دوام وجوده « تعالى الله عما يقول الظالمون » ، ولا مشاركة لأحد معه فى أوصافه .

وعلم الفناء هو ان تعلم أن الدنيا فانية . وعلم البقاء هو ان تعلم ان العقبى باقية ، لقوله تعالى : « والآخرة خير وابقى(١) » ، وقال « ابقى » هنا على وجه المبالغة ، لأن بقاء عمر الآخرة لا يكون فى الفناء .

اما بقاء الحال وفناؤه : فهو انه حين يفنى الجهل فلا محالة أن يبقى العلم ، وحين تفنى المعصية تبقى الطاعة ، وعندما يحصل للعبد العلم والطاعة فإن الغفلة ايضا تفنى ببقاء الذكر . يعنى أنه حين يصير العبد عالما بالحق ويبقى بعلمه فانه يفنى به عن الجهل ، وعندما يفنى عن الغفلة يبقى بذكره ، ويكون هذا اسقاطا للأوصاف المذمومة بقيام الاوصاف المحمودة . ولكن ليس مقصود خواص أهل هذه الطريقة بهذه العبارة ما ذكرناه ، واشاراتهم فى هذا الأصل ليست بالعلم والحال .

وهم لا يستعملون الفناء والبقاء فى درجة كمال أهل الولاية ، لانهم تحرروا من مشقة المجاهدة ، وخرجوا من قيد المقامات وتغير الأحوال ، ووصلوا الى ادراك الطلب ، وراوا جميع المرئيات بالعين ، وسمعوا جميع المسموعات بالأذن ، وعرفوا جميع المعروفات بالقلب ، وادركوا كل المدركات بالسر ، وراوا فى ادراكها آفة ادراكها ، واعرضوا عنها جملة ، وفنى القصد فى المراد ، وبلغوا الطريق ، فسقطت الدعوى وانقطعت عن المعنى ، وصارت الكرامات حجابا ، والمقامات غاشية ، ولبست الأحوال لباس الآفة ، وبقوا فى عين المراد بلا مراد من المراد ، وسقط المشرب عن الكل ، وصار الأنس بالمستأنسات

---

(١) سورة « الأعلى » آية ١٧ .

هذرا ؛ « لقوله تعالى : ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة(١) » .
وانا اقول فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

فنـــاء فنائى بفقـــد هـــوائى   فصار هوائى فى الأمور هواك

« فاذا فنى العبد عن اوصافه ، ادرك البقاء بتمامه » . اى انه اذا فنى العبد عن آفة الأوصاف فى حالة وجود الأوصاف ، بقى فى فناء المراد ببقاء المراد(٢) ، فلا يكون له قرب أو بعد ، ولا تبقى له وحشة او انس ، ولا يكون له صحو أو سكر ، ولا فراق أو وصال ، ولا طمس او اصطلام ، ولا اسماء واعلام ، ولا سمات وارقام . ويقول واحد من المشـــايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

وطاح مقامى والرســـــوم كلاهما   فلست أرى فى الوقت قربا ولا بعدا
فنيت به عنى فبـــان لى الهـــــدى   فهذا ظهور الحق عنـــد الفنا قصدا

وفى الجملة : ان الفناء عن شىء لا يصح الا برؤية آفته ، ونفى ارادته ، لأن كل من تصور أن الفناء عن شىء يصح بحجاب ذلك الشىء يكون على خطأ ، فليس الأمر كأن يقول الآدمى حين يحب شيئا : اننى باق بذلك ، وعندما يكره شيئا يقول : اننى فان عنه ، لأن هذين صفة الطالب ، وليس فى الفناء محبة وعداوة ، ولا فى البقاء رؤية جمع وتفرقة .

وقد اخطأت جماعة فى هذا المعنى ، وهم يظنون أن الفناء بمعنى فقد الذات وانعدام الشخص ، وان البقاء هو أن يلحق بقاء الحق بالعبد ، وهذان كلاهما محال(٣) .

---

(١) سورة « الأنفال » آية ٤٢ .
(٢) اى : بقى فى فناء مراده ببقاء مراد الحق .
(٣) اشار السراج الى هذه الجماعة ووصفها بالضلال ، يقول : « أما القوم الذين غلطوا فى فناء البشرية ، فقد سمعوا كلام المحققين فى الفناء فظنوا انه فناء البشرية ، فوقعوا فى الوسوسة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هى القالب ، والجثة اذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الالهية .
ولم تحسن هذه الفرقة الضالة ان تفرق بين البشرية واخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر ، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود ، ولا لون البياض عن الأبيض ، واخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من انوار سلطان الحقائق . وصفات البشرية ليســت هى عين البشرية .
(اللمع : ص ٥٤٣) .

ورايت فى بلاد الهند رجلا كان يدعى التفسير والتذكير والعلم ، وقد ناظرنى فى هذا المعنى ، فلما نظرت وجدته لم يكن يعرف الفناء والبقاء ، ولم يفرق بين المحدث والقديم .

ويعتقد كثير من جهلة هذه الطائفة بفناء الكلية ، وهذه مكابرة واضحة لأنه لا يجوز أبدا فناء الأجزاء الطينية وانقطاعها .

ونقول لهؤلاء المخطئين والجهلة : ماذا تريدون بهذا الفناء ؟ فاذا قالوا : فناء العين ، فانه محال ، واذا قالوا . فناء الوصف ، فانه يجوز فناء صفة ببقاء صفة أخرى ، لأن حوالة هاتين الصفتين الى العبد ، ومن المحال أن يقوم شخص بصفة آخر .

ومذهب النسطورية(١) من الروم ، والنصارى(٢) هو انهم يقولون بأن مريم

---

(١) « النسطورية » : فرقة من النصارى ، وهم منسوبون الى « نسطور » وكان بطريقا بالقسطنطينية .

(٢) « النصارى » : فرق ، منهم : أصحاب « اريوس » وكان قسيسا بالاسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد ، وان عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وانه كلمة الله تعالى التى بها خلق السماوات والأرض . وكان فى زمن قسطنطين الأول ، اول من تنصر من ملوك الروم .

ومنهم : أصحاب بولس الشمشاطى وكان بطريقا بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان من قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام .

ومنهم : أصحاب مقدونيوس وكان بطريقا فى القسطنطينية بعد ظهور النصرانية ، وكان من قوله التوحيد المجرد وان عيسى عبد ، مخلوق ،انسان، نبى ، رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وان عيسى هو روح القدس وكلمة الله عز وجل ، وان روح القدس والكلمة مخلوقان .

ومنهم : البربرانية وهم يقولون بأن عيسى وأمه الهان من دون الله عز وجل ، وهذه الفرقة قد بادت (واعظم الفرق التى تفرعت عنها) ثلاث فرق ، هى :

الملكانية : وهى مذهب جميع ملوك النصارى من الحبشة والنوبة ، ومذهب جميع نصارى افريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام ، وقولهم ان الله تعالى عبارة عن ثلاثة اشياء : أب وابن وروح القدس كلها لم تزل، وان عيسى عليه السلام اله تام كله وانسان تام كله ليس احدهما غير =

فنيت عن كل أوصاف الناسوت بالمجاهدة ، واتصل بها بقاء اللاهوت ، وأدركت البقاء بذلك ، حتى بقيت ببقاء الله ، وكان عيسى نتيجة ذلك ، ولم يكن تركيب عيسى من أصل الانسانية ، لأن بقاءه تحقيق لبقاء الالهية فهو وأمه والله باقون ببقاء واحد ، هو القديم ، وصفة الحق . وهذا كله يوافق قول الحشوية من المجسمة والمشبهة الذين يقولون بأن ذات الله محل الحوادث ، ويجيزون للقديم صفة المحدث .

ونقول للجميع : كيف يكون المحدث محل القديم ، والقديم محل المحدث ؟ وكيف يكون للقديم وصف محدث ، وللمحدث وصف قديم ، وجواز هذا هو مذهب الدهرية(۱) ، ويبطل حدوث العالم ؟ فاما يجب أن يقال لصنع الصانع :

= الآخر ، وأن الانسان هو الذى صلب وقتل ، وان الاله منه لم ينله شيء من ذلك ، وان مريم ولدت الاله والانسان ، وانهما معا شيء واحد ابن الله تعالى .

والنسطورية : وقالت مثل ذلك الا انهم قالوا ان مريم لم تلد الاله وانما ولدت الانسان ، وأن الله تعالى لم يلد الانسان وانما ولد الاله : وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان .

واليعقوبية : وقالت ان المسيح هو الله تعالى نفسه ، مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان ، وان الله تعالى عاد محدثا ، وأن المحدث عاد قديما ، وانه تعالى هو كان فى بطن مريم محمولا به . وهم فى أعمال مصر وجميع النوبة والحبشة وملوك الأمتين المذكورتين (الفصل فى الملل ص ٤٨ — ٤٩) .

(۱) « الدهرية » : يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع . (الفرق بين الفرق ص ۱۷۷) . وذهبوا الى أن العالم لم يزل ، واعترضوا على سائر الناس الذين يقولون بأن العالم محدث ، لم يكن ثم كان .

فمما اعترضوا به أن قالوا : لم نر شيئا الا حدث من شيء أو فى شيء ، فان كان العالم محدثا يكون أحدثه (البارى) لأنه (علة العالم) ، أو أحدثه لعلة (أخرى) ، فان كان لأنه (علته) ، فالعالم لم يزل لأن محدثه لم يزل . واذ هو علة خلقه ، فالعلة لا تفارق المعلول ، وما لم يفارق من لم يزل ، فهو أيضا لم يزل .

وان كان أحدثه لعلة ، فتلك العلة لا تخلو من أحد وجهين ، اما أن تكون لم تزل ، واما أن تكون محدثة . =

« قديم » ، أو أن كلاهما محدث بامتزاج المخلوق مع غير المخلوق وحلول غير المخلوق فى المخلوق ؛ ويكفيهم هــذا الخسران ، لأنهم اذا قالوا بان القديم محل الحادث ؛ أو ان الحادث محل القديم ، أو أن الصنع والصانع قديمان ؛ واذا صار البرهان ضرورة ، لوجب أن يقال للمحدث : «صنع» ، ولصانعه : « محدث » ؛ لأن محل الشيء يكون مثل عين الشيء ؛ فعندما يكون المحل محدثا يجب أن يكون الحال محدثا ايضا ، فيلزم لهذا كله أن يقال للمحدث : « قديم » ؛ أو للقديم « محدث » ، وكلا هذين ضلالة . وفى الجملة : ان كل شيء يكون موصولا أو مقرونا أو متحــدا أو ممتزجا بشيء يكون حكم هذين الشيئين واحدا .

اذن : بقاؤنا صفتنا ؛ وفناؤنا صفتنا ؛ وفى تخصيص أوصافنا يكون فناؤنا مثل بقائنا . وبقاؤنا مثل فنائنا ، فالفناء وصف يكون ببقــاء وصف آخر .

وايضا : اذا عبر أحد عن فناء لا تعلق للبقاء به ، فجائز . واذا عبر عن بقاء لا تعلق للفناء به ، فجائز ايضا ، لأن المراد من ذلك : فناء ذكر الغــير ، وبقاء ذكر الحــق . « من فنى من المراد بقى بالمراد » ، لأن مرادك فان ، ومراد الحق باق . وحين تكون قائما بمرادك ، يفنى مرادك، ويكون قيامك بالفناء ، وايضــا حينما تكون متصرفا بمراد الحق ، يبقى مراد الحق ، ويكون قيامك بالبقاء .

ومثال هذا ان كل ما يقــع فى سلطان النــار ، يصــير على صــفتها ، بقهرها . وكما ان سلطان النار يبدل وصف الشيء فى الشيء ، فسلطان ارادة الحق أولى من سلطان ارادة النــار . ولكن تصرف النار هــذا فى وصف الحديد ، والعين هى هى ؛ فلا يصير الحديد نارا ابدا . والله أعلم.

فصل : ولكل من المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى لطيفة بالرمز: يقول أبو سعيد الخراز رضى الله عنه ، وهو صاحب المذهب : « الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية » : أى أن فى فعل العبودية آفة ، ويصل العبد الى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويفنى عن رؤية فعله ، ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقرون بالعبد من فعله يكون كله

= فان كانت لم تزل ، فمعلولها لم يزل ، فالعالم لم يزل .
وان كانت محدثة : فلأنه احدثها ، فهذا يوجب أن العلة لم تزل ، بالمعنى المبين آنفا (انظر : الفصل فى الملل ص ٩ وما بعدها) .

ناقصا ، وما هو موصول به من الحق يكون كله كاملا ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته ، فانه يبقى بجمال الهية الحق .

ويقول ابو يعقوب النهرجورى رحمه الله : « صحة العبودية فى الفناء والبقاء » ، لأنه مالم يتبرأ العبد من كل نصيبه ، لا يليق للخدمة باخلاص، فالتبرؤ من نصيب الآدمية هو الفناء ، والاخلاص فى العبودية هو البقاء .

ويقول ابراهيم بن شيبان(١) رحمه الله : « علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة(٢) » . يعنى أنه عندما يقر العبد بوحدانية الحق ، يرى نفسه مغلوبا ومقهورا لحكم الحق ، والمغلوب يفنى فى غلبة الغالب . وحين يصح عليه فناؤه يقر بعجزه ، ولا يرى له حيلة غير العبودية ، فيتمسك بعتبة الرضا . وكل من يعبر عن الفناء والبقاء بغير هذه العبارات — يعنى بالعبارة التى ترى الفناء فناء العين ، والبقاء بقاء العين — فهذه هى الزندقة ، ومذهب النصارى ، كما مر ذكره من قبل .

ويقول صاحب الكتاب — رحمه الله — ان كل الأقاويل من وجه المعنى قريبة من بعضها البعض ، ولو أنها مختلفة فى العبارة . وحقيقة هذا كله هو أن فناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته ، حتى ينسى الدنيا والعقبى فى غلبة جلاله ، وتبدو الأحوال والمقامات حقيرة فى نظر همته ، وتتلاشى الكرامات فى حاله ، فيفنى عن العقل والنفس ، ويفنى أيضا فى عين الفناء عن الفناء ، فينطق لسانه بالحق ، ويخشع جسده ويخضع ، كما هو الحال فى ابتداء اخراج الذرية من ظهر آدم عليه السلام ، بدون تركيب الآفات ، فى حال عهد العبودية .

---

(١) « ابراهيم بن شيبان : ابو اسحاق القرمسينى ، ويسميه الجامى: الكرمانشاهى . شيخ الجبل فى وقته ، له مقامات فى الورع والتقوى يعجز عنها الخلق . صحب ابا عبد الله المغربى وابراهيم الخواص ، مات سنة سبع وثلاثين وثلثمائة . وكان شديدا على المدعين ، متمسكا بالكتاب والسنة ، لازما لطريق المشايخ والأئمة (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٠٢ ، الرسالة جـ ١ ص ١٦٣ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٠ ، تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٢٥٥ ، نفحات الأنس ص ٢١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٤٠٤) .

ويقول احد المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى :

(شــــعر عربى)

لا كنت ان كنت ادرى كيف السـبيل اليـكا
افنيتنى عن طبعـى فصرت ابـكى عليـكا

ويقول آخر :

ففى فنـائى فنـاء لفنـائى وفى فنـائى وجـدت انت
محوت اسمى ورسم جسمى سـئلت عنى فقلت انت

هذه هى أحكام الفناء والبقاء . وقد ذكرت طرفا منها فى بابى « الفقر » و « التصوف » ، وحيثما أعبر عن الفناء والبقاء فى هذا الكتاب ، فالمراد هو هذا . وهذا قانون مذهب الخرازيين وأصل ذلك الشيخ العظيم الطيبه الحال ، وهو اصل طيب ، والفضل الذى يكون دليل الوصـل يكون على أصل . وهذه العبارة مشهورة فى جريان كلام هذه الطائفة ، والله أعـلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

الخفيفية

أما الخفيفيون فينتمون الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وكان من كبراء سادات هذه الطائفة ، ومن اعزة الوقت « رضى الله عنهم وعن جميع أسلافهم » ؛ وكان عالما بعلوم الظاهر والباطن ؛ وله تصانيف معروفة فى فنون علم الطريقة ، ومناقبه اشهر من ان يمكن احصاؤها جميعا . وفى الجملة : كان رجلا عزيز الحال ، عزيز النفس ، ومعرضا عن الشهوات النفسية . وسمعت انه كان قد تزوج اربعمائة مرة ، وذلك لأنه كان من ابناء الملوك ، وعندما تاب كان اهل شيراز يتقربون اليه كثيرا ؛ ولما عظم حاله كانت بنات الملوك والرؤساء يطلبن أن يعقدن عليه للتبرك ؛ فكان يقبل ذلك ، ويطلقهن قبل الدخول(١) . ولكن كان له فى عمره اربعون امرأة : مثنى وثلاث متفرقات ؛ كن خادمات فراشه . وصحبته واحدة منهن أربعين عاما ، وكانت ابنة وزير .

وسمعت من الشيخ أبى الحسن على بن بكران الشيرازى رحمه الله أنه فى يوم من الأيام كانت كل واحدة من النسوة اللائى كن فى حكمه تحكى عنه حكاية ، وقد اتفقن جميعا على انهن لم يكن قد راين الشيخ ابدا فى الخلوة بحكم أسباب الشهوة . وظهر فى قلب كل واحدة وسواس وتعجبن — وقبل ذلك كانت كل واحدة منهن قد ظنت انها مخصوصة بذلك — وقلن : لا تعرف سر صحبته غير ابنة الوزير ؛ لأنها فى صحبته منذ سنوات وهى أحب نسائه اليه . واخترن اثنتين من بينهن ، وبعثن بهما اليها قائلات : لقد كان للشيخ معك انبساط اكثر ؛ فيجب ان تطلعينا على سر صحبته . قالت : حين جعلنى الشيخ فى حكمه ، جاء الى شخص وقال : ان الشيخ سيجىء الليلة الى بيتك . فطبخت أطعمة جيدة ، واكثرت من تزيين وتجميل نفسى . فلما جاء ، أحضروا الطعام ودعونى . فنظر برهة الى ، وبرهة الى الطعام ، ثم اخذ بيدى وادخلها فى كمه ، وكانت هناك خمس عشرة عقدة تقع بين صدره وسرته ، وقال : يا بنت الوزير ! سلى ما هذه العقد . فسألته ، فقال : كل هذه قد عقدها لهب الصبر وشدته ؛ لقد صبرت عن مثل هذا

(١) الأصل فى الزواج عند أهل السنة : التأبيد ؛ أى الدوام ، وإن تكون النية معقودة على هذا . أما الزواج على نية التوقيت كزواج المتعة أو ما يشبهه (كما فى هذه الحالة) ، فباطل شرعا عند أهل السنة .

الوجه وعن مثل هــذا الطمام ، قال هذا ونهض . وكانت هــذه أكثر اجتراءاته معى .

وطراز مذهبه فى التصوف هو الغيبة والحضور ، وهو يعبر عن ذلك ، وسأبينه بمقدار قوتى ان شاء الله العزيز .

الكلام فى الغيبة والحضور :

هذه عبارات طردها مثل عكسها ، ومن ثم تبدو متضادة فى عين المعنى المقصود ، وهى مستعملة ومتداولة بين ارباب اللسان واهل المعنى .

فالمراد من الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين ، حتى يصير الحكم الغيبى له مثل الحكم العينى .

والمراد من الغيبة : غيبة القلب عما دون الحق ، الى حد ان يغيب عن نفسه ، حتى أنه بغيبته عن نفسه لا يرى نفسه . وعلامة هذا : الاعراض عن حكم الرسوم ، مثلما يكون النبى معصوما عن الحرام ، فالغيبة عن النفس حضور بالحق ، والحضور بالحق غيبة عن النفس ، كأن يكون كل غائب عن نفسه حاضرا بالحق ، وكل حاضر بالحق غائبا عن نفسه . فمالك القلب هو الله عز وجل ، فاذا قهرت جذبة من جذبات الحق جل جلاله قلب الطالب ، جعلت الغيبة لديه مثل الحضور ، وارتفعت الشركة والقسمة ، وانقطعت الاضافة الى النفس ، كما يقول واحد من المشايخ رحمهم الله :

(شــعر عربى)

ولى فــؤاد وانت مالكه   بلا شريك فكيف ينقســم

ولمــا لم يكن للقلب مالك سواه ، فاذا غيبه او احضره يكون فى تصرفه .

هذا هو مجمل برهان مسلك الأحباب فى حكم النظر بعين الجمع . ولكن عندما يحدث الفرق ، فللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا كلام ، ففريق يقدم الحضور على الغيبة ، وفريق يقدم الغيبة على الحضور ، كما بينا فى الصحو والسكر ، ولكن الصحو والسكر يدل على بقاء الأوصاف ، والغيبة والحضور تدل على فناء الأوصاف ، فهذه اعز من تلك على التحقيق .

ومن يقدمون الغيبة علىالحضور ، وهم : ابن عطاء ، والحسين بنمنصور ، وأبو بكر الشبلى ، وبندار بن الحسين ، وأبو حمزة البغدادى ، وسمنون المحب رضى الله عنهم ، وجماعة من العراقيين ، يقولون : ان الحجاب الأعظم فى طريق الحق هو انت ، فاذا غبت عن نفسك فنيت آفات وجودك فيك ،

وتغيرت قاعدة الحال ، فصارت مقامات المريدين كلها حجابا لك ، وأحوال الطالبين موضع آفتك ، وصارت الأسرار زنارا ، والمثبتات حقيرة فى همتك ، واغمضت عينك عن نفسك وعن الغير ، واحترقت أوصاف البشرية فى مقرها بشعلة القرب . وتكون صورة هذا : مثلما أخرجك الله تعالى فى حال غيبتك من ظهر آدم ، واسمعك كلامه العزيز ، وخصك بخلعة التوحيد ولباس المشاهدة ، فغبت عن نفسك ، وحضرت بالحق دون حجاب . واذا حضرت بصفتك ، غبت عن قرب الحق ، فهلاكك فى حضورك . وهذا هو معانى قول الله عز وجل : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم(١) » .

وايضا : الحارث المحاسبى ، والجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وابو حفص الحداد ، وحمدون القصار ، وابو محمد الجريرى ، والحصرى ، ومحمد بن خفيف صاحب هذا المذهب رضى الله عنهم أجمعين ، ومعهم جماعة أخرى على أن الحضور مقدم على الغيبة ، لأن كل الوان الجمال منعقدة فى الحضور . والغيبة عن النفس طريق الى الحق ، فاذا اقبلت الحضرة صار الطريق آفة ، فكل من يغيب عن نفسه يكون لا محالة حاضرا بالحق .

وفائدة الغيبة : الحضور ، والغيبة بدون الحضور جنون . ويلزم ليكون المقصود من هذه الغيبة الحضور : اما الغلبة أو الموت أو الغفلة ، فاذا وجد المقصود سقطت العلة ، كما قيل : « ليس الغائب من غاب من البلاد ؛ انما الغائب من غاب من المراد . وليس الحاضر من ليس له مراد ، انما الحاضر من ليس له فؤاد حتى استقر فيه المراد » .

ولواحد من المشايخ رحمة الله عليهم بيتان فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

من لم يكن بك فانيا عن نفسه — وعن الهوى والانس والأحباب
فكأنه بين المراتب واقف — لمنال حظ او لحسن مآب

ومشهور أن واحدا من مريدى ذى النون قصد أبا يزيد ، وعندما وصل الى باب صومعته ودق الباب ، قال أبو يزيد : من أنت ؟ ومن تريد ؟ قال: أريد أبا يزيد . قال : من يكون أبو يزيد ؟ وأين،وأى شىء هو ؟ وقد بحثت منذ

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٩٤ .

مدة عن ابى يزيد ولم اجده . ولما عاد ذلك الشخص واخبر ذا النون قال رحمه الله : « اخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين الى الله(١) » .

وجاء رجل الى الجنيد رضى الله عنه وقال : كن حاضرا معى لحظة لأقول لك بضع كلمات , قال : ايها الفتى ! انك تطلب منى الشىء الذى اطلبه انا منذ زمن بعيد ، فمنذ سنوات طوال وانا اريد ان اكون حاضرا بالحق لحظة فلا استطيع ، فكيف أستطيع فى هذه الساعة ان اكون حاضرا بك ؟

ففى الغيبة وحشة الحجاب ، وفى الحضور راحة الكشف ، ولا يكون الكشف فى جميع الأحوال مثل الحجاب .

ويقول الشيخ ابو سعيد رحمه الله فى هذا المعنى :

(بيت عربى)

تقشـــع غيـم الهجـــر عن قمـــر الحب
وأســـفر نور الصـــبح عن ظلمـــة الغيب(٢)

وللمشايخ فى الفرق بينهما لطيفة هى حال ؛ ومن حيث الظاهر قال : وهذه العبارات قريبة من بعضها البعض ، لأن الحضور بالحق والغيبة عن النفس سواء ، ومن لا يكن غائبا عن نفسه لا يكن حاضرا بالحق ، والحاضر غائب ، مثل جزع أيوب صلوات الله عليه فى حال ورود البلاء ، فهو لم يكن بنفسه ، بل كان في تلك الحال غائبا عن نفسه ، فلم يفصل الحق تعالى عين ذلك الجزع عن الصبر ، وعندما قال « مسنى الضر(٣) » ، قال الله تعالى : « انا وجدناه صابرا(٤) » ، وهذا الحكم بعينه عيان فى هذه القصة ، فتأمله جيدا .

---

(١) ورد فى الرسالة مع اختلاف يسير (انظر : الرسالة جـ١ ص ٢١٦).
(٢) ورد فى اسرار التوحيد ضمن بيتين على النحو التالى :
تقشع غيم الهجر عن قمر الحب   واشرق نور الصبح فى ظلمة العتب
وجاء نسـيم الاعتـذار مخففـا   فصادفه حسن القبول من القلـب
(اسرار التوحيد (الأصـل الفارسى) ص ١٣٩ ويقابلها ص ١٥٣ من الترجمـة العربيـة) .
(٣) ســورة « الأنبياء » آية ٨٣ .
(٤) ســورة « ص » آية ٤٤ .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه انهْ قال : كان اهل السماوات والأرض مدة يبكون على حيرتى ، وكنت ايضا ابكى هكذا على غيبتهم ، والحال الآن انى لا أدرى بهم ولا بنفسى . وهذه اشارة طيبة الى الحضور .

هذا هو معنى الغيبة والحضور اوردته مختصرا ، لتكون قد عرفت مسلك الخفيفية ، وتعرف أيضا ما مراد هؤلاء القوم من الغيبة والحضور . ولو غولى أكثر من هذا لآل الأمر الى التطويل ومذهبنا فى هذا الكتاب الاختصار .

السيـــــــــارية

اما السياريون فينتمون الى أبى العباس السيارى رضى الله عنه ، وكان إمام مرو فى كل العلوم ؛ وصاحب ابى بكر الواسطى . ويوجد اليوم فى مرو ونسا طبقة كبيرة من اصحابه ، ولم يبق اى مذهب من مذاهب اهل التصوف على حاله الا مذهبه ، فلم تخل مرو أو نسا فى اى وقت من قدوة كان يرعى أصحابه فى اقامة مذهبه الى يومنا هذا . ولأهل نسا من اصحابه مع اهل مرو رسائل لطيفة — وكان كلامهم بينهم بالمراسلة — وقد رأيت بعض هذه الرسائل فى مرو ، وهى جيدة جدا . وبناء عباراتهم على الجمع والتفرقة ، وهذا لفظ مشترك بين كل أهل العلوم ، وكل طائفة تستخدم هذا اللفظ فى صنعتها لتفهيم عباراتها ، ولكن مراد كل طائفة منه يختلف عن الأخرى ، فالحسابيون مثلا مرادهم بالجمع والتفرقة : اجتماع الأعـــداد وافتراقها ، والنحويون : اتفاق الأسماء اللغوية وافتراق معانيها ؛ والفقهاء : جمع القياس وتفرقة النص أو عكس هذا ، والأصوليون : جمع صفات الذات وتفرقة صفات الفعل ؛ ولكن مراد هذه الطائفة به ليس كل هـــذا الذى ذكرناه .

والآن : اورد مقصود هذه الطائفة بهذه العبارات ، واختلاف مشايخهم فيها ليعلم لك حقيقة هذا ؛ ان شاء الله تعالى .

الكلام فى الجمع والتفرقة :

جمع الله تعالى الخلق فى الدعوة فى قوله تعالى « والله يدعوا الى دار السلام(١) » ، ثم فرقهم فى حق الهداية فى قوله تعالى : « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم(٢) » ، فدعا الجميع من وجه الدعوة ، وطرد جماعة بحكم اظهار المشيئة : جمع ، وامر الجميع . وفرق ، فطرد جماعة بالخذلان ، وقبل جماعة بالتوفيق . وأيضا جمع وفرق بالنهى : فمنح جماعة العصمة ، وجماعة الميل الى الآفة ، فالجمع بهذا المعنى هو الحقيقة ، والسر المعلوم ، ومراد الحق ، والتفرقة اظهار امره ونهيه ، كما امـــر ابراهيم ان اذبح اسماعيل ، واراد الا يذبحه ، وقال لابليس : اسجد لآدم ، واراد الا يفعل ، ولم يفعل . (وقال لآدم : لا تأكل القمح ؛ واراد ان يأكل(٣) ، وامثال هذا

(١ ، ٢) سورة « يونس » آية ٢٥ .
(٣) هذه العبارة ترجمت من الحاشية .

كثير ، « فالجمع ما جمع بأوصافه ، والتفرقة ما فرق بأفعاله » ، وهذا كله انقطاع للارادة ، وترك لتصرف الخلق فى اثبات ارادة الحق .

وفى هذا القدر الذى ذكرته فى الجمع والتفرقة اجماع لكل أهل السنة والجماعة ، باستثناء المعتزلة ، ومعهم مشايخ هذه الطريقة المختلفون من بعد هذا فى استعمال هذه العبارات ، فجماعة يطلقونها على التوحيد ، وجماعة على الأوصاف ، وجماعة على الأفعال .

فمن يطلقونها على التوحيد يقولون ان للجمع درجتين : واحدة فى أوصاف الحق ، والأخرى فى أوصاف العبد ، فالتى فى أوصاف الحق هى سر التوحيد وكسب العبد منقطع عنها ، والتى فى أوصاف العبد عبارة عن التوحيد بصدق النية وصحة العزيمة ، وهذا قول أبى على الروذبارى .

وتقول الجماعة الأخرى — وهم الذين يطلقونها على الاوصاف — أن الجمع صفة الحق ، والتفرقة فعله ، وكسب العبد منقطع عنهما ، لأنه لا منازع له فى الالهية ، فالجمع ذاته وصفاته ، لأن الجمع : التسوية فى الأصل ، ولا يتساوى فى القدم الا ذاته وصفاته ، ولا يجتمع الخلق فى افتراقهما بالعبارة والتفضيل .

ومعنى هذا هو أن له تعالى صفات قديمة ، وهو « تعالى الله » مخصوص بها ، وقيامها به ، واختصاص وجودها به . ولا يكون هو وصفاته اثنين ، لأنه لا يجوز الفرق والعدد فى وحدانيته ، وبهذا الحكم لا يجوز الجمع فى هذا المعنى . أما التفرقة فى الحكم فهى أفعال الله تعالى ، لأنها كلها متفرقة فى الحكم ، فلأحدها حكم الوجود ، وللآخر حكم العدم ، لأنها ممكنة الوجود ، ولواحد منها حكم الفناء ولآخر حكم البقاء .

وجماعة أخرى أيضا يطلقونها على العلم ، ويقولون : « الجمع : علم التوحيد ، والتفرقة : علم الأحكام » ، فعلم الأصول هو الجمع ، وعلم الفروع هو التفرقة . وقال مثل هذا أيضا أحد المشايخ رحمه الله : « الجمع ما اجتمع عليه أهل العلم ، والفرق ما اختلفوا فيه » .

وأيضا مراد جمهور محققى المتصوفة « نضر الله وجوههم » فى مجارى عباراتهم ورموزهم بلفظ التفرقة : المكاسب ، وبلفظ الجمع : المواهب ، أى المجاهدة والمشاهدة ، فما يحصل عليه العبد فى هذا الطريق عن طريق المجاهدة يكون كله تفرقة ، وما يكون محض عناية الحق تعالى وهدايته ، فهو جمع ، وفيه عز العبد ، لأن وجود أفعاله وامكان مجاهداته يتخلصان من

آنة الفعل بجمال الحق ؛ ويجد افعاله مستغرقة فى أفضال الحق ، ومجاهداته منفية فى حق الهداية ، ويكون قيامه كله بالحق ، والحق تعالى محول أوصافه ، وكل فعله اضافة الى الحق ليتحرر من نسبة كسب نفسه ؛ كما اخبرنا النبى عليه السلام « فى قوله عليه السلام خبرا عن الله تعالى : لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ولسانا ، بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يبطش(١) » : اى انه يصير فى ذكرنا مغلوب ذكرنا ؛ فيفنى كسبه من ذكره ؛ ويصير ذكرنا سلطان ذكره ، وتنقطع عن ذكره نسبة الآدمية فيكون ذكره ذكرنا ، حتى انه يكون فى حال الغلبة بتلك الصفة التى قال فيها ابو يزيد رحمه الله : « سبحانى سبحانى ما اعظم شأنى(٢) » ، فما قاله علامة قوله ؛ والقائل هو الحق ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحق ينطق على لسان عمر(٣) » .

وحقيقة هذا هى انه حين يظهر قهر من الحق سلطانه على وجود الآدمى ، فانه يأخذه من نفسه ؛ حتى يصير نطقه (اى العبد) كله نطقه (اى الحق) ، مع الاستحالة ، من غير أن يكون للحق تعالى وتقدس امتزاج بالمخلوقات ، واتحاد بالمصنوعات ، أو أن يكون حالا فى الأشياء « تعالى الله عن ذلك وعما يصفه الملاحدة علوا كبيرا » ، فيجوز اذن أن تصير المحبة من الحق سلطانا على قلب العبد ، وبغلبتها وافراطها يعجز العقل والطبايع عن حملها ؛ ويسقط أمره عن كسبه ، عندئذ يسمون هذه الدرجة بالجمع ، مثلما كان الرسول عليه السلام مستغرقا ومغلوبا فحدث منه فعل ، فدفع الله تعالى النسبة عن فعله، وقال ان ذلك كان فعلى لا فعلك ، وان دل على فعلك : « وما رميت اذ رميت

---

(١) حديث قدسى : رواه البخارى عن ابى هريرة ، واحمد عن عائشة، والطبرانى فى الكبير عن ابى أمامة .

(٢) وردت فى اللمع اشارة الى هذا القول ودافع السراج عن ابى يزيد ضد من اتهموه بالكفر بسبب هذه المقالة (انظر اللمع ص ٤٧٢) .

(٣) رواه احمد والترمذى عن ابن عمر ، وابو داود والحاكم عن ابى ذر، والطبرانى عن بلال : « ان الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه ». (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ١١٥) .

ولكن الله رمى(١) » ، وكما حدث أيضا فعل من هـذا النوع من داود عليه السلام ، فقال له : « وقتل داود جالوت(٢) » وكان هذا فى حال التفرقة . وفرق بين من يضيف فعلهاليه وهو محل الآفة والحوادث ، ومن يضيف فعله لنفسه وهو قديم ومنزه من الآفة ، فحينما يظهر على الآدمى فعل ليس من جنس افعال الآدميين يكون فاعله الحق جل وعلا لا محـالة . والاعجاز والكرامات كلها مقرونة بهذا ، فالأفعال المعتادة كلها تفرقة ، والناقضة للعادة جمع ، لأن الذهاب الى (قاب قوسين(٣)) فى ليلة ليس معتادا ، ولا يكون غير فعل الحق . وعدم الاحتراق بالنار(٤) ليس معتادا ، ولا يكون غير فعل الحق ، فالحق تعالى أعطى انبياءه وأولياءه هذه الكرامات ، واضاف فعله اليهم ، وافعالهم الى نفسه ، لأن فعل الأحبة فعله ، وبيعتهم بيعته ، وطاعتهم طاعته ، قال عز من قائل : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله(٥) » . وقال أيضا : « من يطع الرسول فقد أطاع الله(٦) » ، فأولياؤه مجتمعون بالأسرار ، ومفترقون باظهار المعاملة ، لتكون المحبة محكمة باجتماع الأسرار ، وتكون اقامة العبودية صحيحة بافتراق الأظهار ، كما يقول واحد من كبار المشايخ فى حال الجمع :

(شـعر عربى)

قد تحققت بسرى فتناجاك لسـانى
واجتمعنـا لمعـان وافترقنـا لمعـانى
فلئن غيبـك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى(٧)

---

(١) سـورة « الأنفال » آية ١٧ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٥١ .
(٣) اشـارة الى قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » سورة « النجم » آية ٧ ، ٨ .
(٤) اشـارة الى القـاء ابراهيم فى النار ، وعدم احراقها له بحفظ الحق تعـالى .
(٥) سورة « الفتح » آية ١٠ .
(٦) سورة « النساء » آية ٧٩ .
(٧) نسب القشيرىهذين البيتين الى الجنيد، واوردهما على النحو التالى:
وتحققتك فى سرى فناجاك لسانى   فاجتمعنا لمعانى وافترقنا لمعانى
ان يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى   فقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى
(الرسـالة ج ١ ص ٢١٠) .

فقال لاجتماع الأسرار : جمعا ، ولمناجاة اللسان : تفرقة ، ثم بين الجمع والتفرقة كلاهما فى نفسه ، وجعل نفسه قاعدتهما . وهذا كلام لطيف .

فصل : ويبقى هنا الاختلاف الذى بيننا وبين الجماعة التى تقول ان اظهار الجمع نفى للتفرقة لانهما متضادان ، اذ انه اذا استولى سلطان الهداية سقطت ولاية الكسب والمجاهدة .

وهذا تعطيل محض ، لأنه طالما كان امكان المعاملة وقدرة الكسب والمجاهدة فان ذلك لا يسقط عن العبد مطلقا ، لأن الجمع غير منفصل عن التفرقة : كالنور من الشمس ، والعرض من الجوهر ، والصفة من الموصوف، فلا تنفصل المجاهدة عن الهداية ، ولا الشريعة عن الحقيقة ، ولا الادراك عن الطلب . ولكن يمكن أن تكون المجاهدة مقدمة أو تكون مؤخرة ، ومن تكن المجاهدة متقدمة له تكن المشقة عليه اكثر ، لأنه يكون فى الغيبة ، ومن تكن المجاهدة مؤخرة له لا يكن عليه عناء وكلفة ، لأنه يكون فى الحضرة . ومن يبد له نفى مشرب الأعمال نفيا لعين العمل يكن على خطأ عظيم .

ويجوز أن يصل العبد الى درجة ينظر فيها الى كل اوصافه المحمودة بعين العيب ، ويراها ناقصة . وعندما يرى أوصافه المحمودة معيوبة ومعلولة ، فانه يلزم أن يرى اوصافه المذمومة اكثر عيبا . وقد اوردت ذلك لأنه قد وقع لقوم من الجهال غلط فى هذا المعنى — وهو أن ذلك مقرون بالاتحاد — لذا يقولون ان ادراك اى شيء غير مرتبط بجهدنا ، وان افعالنا وطاعتنا معيوبة، ومجاهداتنا ناقصة ، فعدم فعلها أولى من فعلها .

ونقول لهم : نحن وانتم معا نضع لأعمالنا فعلا — وللأفعال محل العلة ومنبع الآفة — فلا محالة أنه يجب أن يوضع فعل لغير المعمول أيضا . ولما صارا كلاهما فعلا ، والفعل محل العلة ، فلماذا اذن يعتبرون غير المعمول اولى من المعمول (وكلاهما فعل) ؟ وهذا خسران ظاهر وغبن فاحش . وقد جاء هذا فرقا حسنا بين الكفر والايمان ، لأن المؤمن والكافر متفقان على أن افعالهما محل العلة ، فالمؤمن بحكم الطاعة يرى المعمول اولى من غير المعمول ، والكافر بحكم العصيان يرى غير المعمول أولى من المعمول.

فالجمع هو أنه فى رؤية آفة التفرقة لا يسقط عنه حكم التفرقة .

والتفرقة هي أنه فى حجاب الجمع يمكن جعل التفرقة جمعا . وفى هذا المعنى يقول المزين الكبير(١) رحمه الله : « الجمع : الخصوصية ، والتفرقة : العبودية ، موصول احدهما بالآخر غير مفصول عنه » . لأن علامة الخصوصية حفظ العبودية ، فحينما لا يكون المدعى فى المعاملات قائما بالمعاملات ، يكون كاذبا فى دعواه . ويجوز أن يرتفع عن العبد ثقل المجاهدة وعناء الكلفة فى اداء حق المجاهدة والتكليف ، ولا يجوز أن ترتفع عين المجاهدة والتكليف فى عين الجمع الا بعذر واضح يكون عاما فى حـكم الشريعة . وانا ابين هذا ليصير معلوما لك على وجه افضل .

اعلم ان الجمع على نوعين : يقال لأحدهما : جمع السلامة ، وللآخر : جمع التكسير .

وجمع السلامة هو انه فى غلبة الحال وقوة الوجد وقلق الشوق التى يوجدها الحق تعالى فى العبد ، يكون الحق تعالى حافظا له ، ويجرى الأمر على ظاهره ، ويبقيـه على ادائه ، ويزينه بالمجاهدة ، كما كان سـهل بن عبد الله ، وابو حفص الحداد ، وابو العباس السيارى صاحب المذهب ، وابو يزيد البسطامى ، وابو بكر الشبلى ، وابو الحسن الحصرى وجماعة آخرون — رضوان الله عليهم اجمعين — دائما مغلوبين حتى يحين وقت الصلاة ، عندئذ يعودون الى حالهم ، فاذا صلوا غلبوا ثانية . لأنه طالما كنت فى محل التفرقة فانت تجرى الأمر ، وحين يجذبك فهو اولى بأمره أن يحفظه عليك لكلا معنيين : اولهما : حتى لا تزول علامة عبوديتك ، والثانى : حتى يقوم بحكم وعده (حيث قال) : انى لن انسخ ابدا شريعة محمد .

وجمع التكسير هو ان يكون العبد فى الحكم والها ومدهوشا ، ويكون حكمه حكم المجانين ، فواحد من هذين يكون معذورا والآخر مشكورا ، والمشكور يكون حاله نيرا جدا واقوى ممن يكون معذورا .

وفى الجملة : اعلم انه ليس للجمع مقام مخصوص ، ولا حال مفرد ، لأن الجمع جمع الهمة فى معنى مطلوبك ، ويكون كشف هذا المعنى لطائفـة فى

---

(١) المزين : ابو الحسن على بن احمد ، من اهل بغداد ، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله ، واقام بمكة مجاورا ومات بها . توفى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٨٢ ، الرسلة ج ١ ص ١٦٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٨ ، نفحات الانس ص ١٦١) .

المقامات ؛ ولطائفة فى الأحوال . وفى كلا الوقتين يحصل مراد صاحب الجمع ببقائه فى نفى المراد ، « لأن التفرقة فصل ، والجمع وصل » ، وهذا يصح فى كل الأشياء ، مثل جمع همة يعقوب بيوسف عليهما السلام ، اذ لم يكن قد بقى له شىء غير همته . ومثل جمع همة المجنون فى ليلى ، لأنه حينما لم يكن يراها كان كل العالم وكل الموجودات عنده صورة ليلى . ومثل هذا كما كان ابو يزيد يوما فى الصومعة ، فجاءه رجل وقال : « هل ابو يزيد فى البيت ؟ فقال ابو يزيد : هل فى البيت الا الله ؟ » .

ويقول واحد من المشايخ رحمه الله : جاء درويش الى مكة ، واقام سنة فى مشاهدة الكعبة ، فلم يطعم ، ولم يشرب ، ولم ينم ، ولم يذهب للطهارة ، لاجتماع همته برؤية البيت ، لأن الله تعالى قد اضافه الى نفسه فصار غذاء جسده ومشرب روحه .

واصل هذا كله أن الله تعالى جزأ وقسم أصل محبته التى هى جوهر واحد ؛ وخص كل واحد من احبابه بذلك الجزء من أجزاء الكل ؛ على قدر ابتلائه ، وعندئذ خلع عنه جوشن الانسانية ولباس الطبيعة وغاشية المزاج وحجاب الروح حتى حول بقوته الأجزاء التى كانت موصولة به الى صفته ، الى حد أن صار كل المحب كل المحبوب ، واخذت كل حركاته ولحظاته شرائطه ؛ وهذا هو السبب فى أن ارباب المعانى واصحاب اللسان سموا ذلك بالجمع .

ويقول الحسين بن منصور رحمه الله فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

لبيك لبيك يا سيدى ومولائى لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى
يا عين عين وجودى ومنتهى هممى يا منطقى واشاراتى وانبائى
يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى يا جملتى وتباعيضى واجزائى

فمن يكن فى اوصافه مستعارا يكن اثبات الوجود عليه عارا له ، ويكن التفاته الى الكونين زنارا ، وتكن كل الموجودات فى همته حقيرة .

وأيضا تسميه جماعة من ارباب اللسان ، لدقة الكلام واعجاب العبارة ، بجمع الجمع ، وهذه العبارة طيبة من حيث العبارة ، اما من حيث المعنى فالأفضل أن لا تقول للجمع جمعا ، لأنه تلزم التفرقة ليجوز عليها الجمع ، فاذا حصل الجمع فقد كان تفرقة ، لأن الجمع لا يتحول عن حاله . وهذه العبارات محل للتهمة ، لأنه ليس للمجتمع نظر الى ما هو فوق وتحت خارج نفسه : الم تر انه فى ليلة المعراج عرض على الرسول عليه السلام الكونان

والعالمان فلم يلتفت الى شيء لأنه كان مجموعا بالجمع ؟ والتفرقة لا تظهر للمجتمع ، حتى أن الله تعالى قال : « ما زاغ البصر وما طغى(١) » .

وقد ألفت فى بداية حالى كتابا فى هذا المعنى واسميته : « كتاب البيان لأهل العيان » ، وذكرت فى « بحر القلوب » ، فى باب الجمع،فصولا مطولة. وقد اكتفيت الآن بهذا المقدار للتخفيف .

هذا هو طرف من مذهب السيارية من المتصوفة ، وقد فرغت من الحديث عن فرق الصوفية المقبولة والمحققة .

والآن : أعود الى قول تلك الجماعة من الملاحدة — لعنهم الله — الذين الحقوا انفسهم بهم ، وقد جعلوا عباراتهم هذه آلة اظهار الحادهم ، وأخفوا ذلهم فى عزهم ، لتظهر مواضع اخطائهم ، ويتخلص المريدون من مكرهم ودعواهم ، ويرعوا أنفسهم ، والله أعلم .

---

(١) سورة « النجم » آية ١٧ .

الحـــــولـيــه

وأما الحلوليـــة ، « لعنهم الله ، قوله تعالى : فمـــاذا بعـــد الحق الا الضلال(١) » ، فهم من الطائفتين المطرودتين اللتين تنتميان الى هذه الطائفة، ويصادقونهم بضلالة من انفســـهم ، فطائفة منهما تنتمى الى ابى حلمان الدمشقى(٢) ، ويروون عنه ما يخالف ما هو مسطور عنه فى كتب المشايخ . واهل هذه الطريقة يعدون ذلك الشيخ من أرباب القلوب ، اما هؤلاء الملاحدة فينسبونه الى الحلول والامتزاج وتناسخ الارواح . وقد رايت طعنا فيه فى كتاب متقدم . ولعلماء الأصول أيضا صورة عنه ، والله عز وجل أعلم به.

والطائفة الاخرى ينسبون أقوالهم الىفارس وهو يدعى ان هذا هو مذهب الحسين بن منصور ، وانه ليس لأحد هذا المذهب الا أصحاب الحسين . وقد رايت ابا جعفر الصيدلانى ومعه اربعة آلاف رجل من الحلاجيين متفرقين فى العراق وكانوا جميعا يلعنون فارسا لهذه المقالة ، فليس فى كتبه (أى الحلاج) التى صنفها شىء سوى التحقيق .

وانا على بن عثمان الجلابى أقول : انى لا اعرف من كان فارس هذا وابو حلمان ، وماذا قالا ، ولكنى أقول ان كل قائل مقالة تخالف التوحيد والتحقيق ليس له من الدين اى نصيب ، وحين يكون اصل الدين غير مستحكم ، فالاولى أن يكون التصوف — وهو نتيجة وفرع — مختلا ، لأن اظهار الكرامات ، وكشف الآيات ، لا يكون الا على أهل الدين والتوحيد . وقد اخطأ قائلو هذا

---

(١) سورة « يونس » آية ٣٢ .

(٢) أبو حلمان الدمشقى : ينسب اليه الحلمانية من الحلولية . وكان أصله من فارس ومنشـــؤه حلب ، واظهر بدعتـــه بدمشـــق فنسب لذلك اليها . وكان كفره من وجهين : أحدهما : انه كان يقول بحلول الاله فى الأشخاص الحسنة ، وكان مع أصحابه اذا راوا صورة حسنة سجدوا لها يوهمون أن الاله قد حل فيها . والوجه الثانى : قوله بالاباحة ودعواه أن من عرف الاله على الوصف الذى يعتقده هو ، زال عنه الحظر والتحريم واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه (انظر : الفرق بين الفرق ص ١٥٦) .

الكلام جميعا فى الروح ، وانا الآن ابين كيفيتها وجميع احكامها ، واذكر مقالات الملاحدة واغلاطهم وشبهاتهم فى ذلك ؛ لتقوى بهذا — قواك الله — اذ ان فى هذا (الذى يقولونه) فسادا كثيرا .

الكلام فى الروح :

اعلم ان العلم بماهية الروح ضرورى ؛ وان العقل عاجز فى كيفيتها . وقد قال كل من علماء الأمة وحكمائها شيئا فى ذلك ، على حسب قياسه . وللكفار ايضا كلام فى ذلك ، مثلما ارسل كفار قريش — بايعاز من اليهود — النضر ابن الحارث ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن كيفية الروح وماهيتها .

وقد اثبت الله تعالى اولا عينها فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح(١) »، ثم نفى عنها القدم فى قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى(٢) » .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٣) » . وتوجد أدلة كثيرة مثل هذه على وجودها ، دون التصرف فى كيفيتها . فقالت جماعة ان « الروح هو(٤) الحياة التى يحيى بها الجسد » ، وجماعة من المتكلمين ايضا على هذا ، وبهذا المعنى تكون الروح عرضا ، لأن الحيوان يحيا بها بأمر الله عز وجل ، وهى من جنس التأليف والحركة والاجتماع وأمثال هذا من الاعراض التى يتحول بها الشخص من حال الى حال .

وقالت جماعة أخرى : « هو (أى اروح) غير الحياة ، ولا يوجد الحياة الا معها ، كما لا يوجد الروح الا مع البنية ، ولن يوجد احدهما دون الآخر ، كالألم والعلم به ، لأنهما شيئان لا يفترقان » . وهى بهذا المعنى ايضا عرض مثل الحياة .

وجمهور المشايخ ايضا ، وكثير من اهل السنة والجماعة — رحمهم الله — على أن الروح عين لا وصف ، لأنها طالما هى موصولة بالقالب على مجرى العادة فان الله تعالى يخلق الحياة فى ذلك القالب . وحياة الآدمى صفة ، وهو حى بها ، أما الروح فمودعة فى الجسد ، ويجوز ان تنفصل عن الآدمى

(١ ، ٢) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .
(٣) رواه البخارى عن عائشة ؛ وأحمد ومسلم عن ابى هريرة ، والطبرانى عن ابن مسعود .
(٤) هكذا فى النص . والروح تذكر وتؤنث .

ويظل حيا بالحياة كما فى حال النوم ، فهى تذهب وتبقى الحياة . ولكن لا يجوز فى حال ذهابها ان يبقى العلم والعقل ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ارواح الشهداء فى حواصل الطيور(١) » ، فلا محالة أن تكون (الأرواح) عينا . وقال الرسول عليه السلام : « الأرواح جنود مجندة » ، فلا محالة ان تبقى الجنود ، والبقاء لا يجوز على العرض ، والعرض لا يقوم بنفسه ، فهى اذن جسم لطيف يأتى بأمر الله عز وجل ، ويذهب بأمره . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : رايت فى ليلة المعراج آدم ويوسف وهارون وموسى وعيسى وابراهيم عليهم السلام فى السماوات ، فلا محالة أنها كانت أرواحهم. ولو كانت الروح عرضا لما قامت بنفسها حتى يمكن رؤيتها فى حال الوجود ، لأنه يلزم لوجودها محل لتكون عارضة فى ذلك المحل ، ومحلها الجوهر ، والجوهر مؤلف وكثيف ولطيف الجسم ، ولما كان جائز الرؤية فانه يجوز أن يكون فى حواصل الطيور ، ويجوز أن يكون جندا له مجىء وذهاب ، على نحو ما تنطق به الأخبار ، ويكون مجيئها وذهابها بأمر الله تعالى ، لقوله تعالى : « قل الروح من امر ربى » .

ويبقى هنا اختلاف الملحدة الذين يقولون أن الروح قديمة ، ويعبدونها ، ولا يعرفون فاعلا ومدبرا للأشياء غيرها ، ويسمونها روح الاله الذى لم يزل ، ويقولون انها تنتقل من شخص الى آخر ، وليس هنالك اجماع على اية شبهة وقعت للخلق بقدر ما على هذه ، لأن جميع النصارى على هذا مهما اختلفوا فى العبارة ، وكل اهل الهند والصين وجميع بلادها على هذا ، وتجتمع عليه الشيعة(٢) والقرامطة(٣)

---

(١) رواه مسلم : « ارواح الشهداء فى حواصل طيور خضر » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٧٨) .

(٢) « الشيعة » : هم الذين شايعوا عليا على الخصوص ، وقالوا بامامته نصا ووصاية : اما جليا ، واما خفيا ، واعتقدوا أن الامامة لاتخرج عن اولاده ، وان خرجت فبظلم من غيره ، او بتقية من عنده . وهم خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وامامية ، وغلاة ، واسماعيلية : وبعضهم يميل فى الأصول الى الاعتزال ، وبعضهم الى السنة ، وبعضهم الى التشبيه . (الملل والنحل على هامش الفصل جـ ١ ص ١٩٥ — ١٩٦) .

(٣) « القرامطة » : ينسبون الى حمدان قرمط ، وهو حمدان بن الأشعث ، لقب بقرمط لقرمطة فى خطه او فى خطوه ، وكان فى ابتداء امره اكارا من اكرة سواد الكوفة . وينسب البغدادى القرامطة الى الباطنية فيقول ان الدعوة الباطنية ظهرت فى أيام المأمون من حمدان قرمط ، ومن عبد الله بن ميمون القداح (الفرق بين الفرق ص ١٨) . =

والباطنية(١) ، وهاتان الطائفتان المبطلتان ايضا تقولان بهذه المقالة .
وكل جماعة من جملة من ذكرناهم لهم مقدمات لهذا القول ، وهم يؤيدون دعواهم بالبراهين .

= والقرامطة من المتشبثين بفكرة المهدى ، وعندما زار الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، عاصمتهم « الاحساء » عام ٤٤٣ هـ وجد أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذى فيه قبر مؤسس مذهبهم فرسا بسرج ولجام لا يغادر مكانه ليلا ونهارا ، ويقولون انه للمهدى يركبه متى ظهر . وكان وراء عقائدهم دائما قول بالحلول ، وقد قالت طائفة منهم بنبوة محمد بن اسماعيل بن جعفر (الفصل جـ ٤ ص ١٨٤) ، ومنهم من قالوا بالهيته : يقول ابن حزم فى حديثه عن الغالية : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا فقالت بالهية محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة » (الفصل جـ ٤ ص ١٨٧).

(١) « الباطنية » : يذكر الشهرستانى ان الباطنية لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولهم القاب كثيرة ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وبخراسان : التعليمية والملحدة ، وهم يقولون : نحن اسماعيلية (الملل جـ ٢ ص ٢٩) . وقد ظهرت دعوة الباطنية اولا فى زمان المأمون ، وانتشرت فى زمان المعتصم ، ودخل فى دعوتهم الأفشين صاحب جيش المعتصم . ومؤسسو الباطنية جماعة منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق ، ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . (الفرق بين الفرق ص ١٦٩)

وذكروا أن الذين وضعوا اساس دين الباطنية كانوا أولاد المجوس ، وكانوا مائلين الى دين اسلافهم من الثنوية وتأولوا آيات القرآن وسنن النبى على موافقة اسسهم .

وذكر زعماء الباطنية فى كتبهم أن الاله خلق النفس ، فالاله هو الأول ، والنفس هو الثانى ، وهما مدبرا العالم ، وسموهما : الأول والثانى . وقولهم ان الأول والثانى يدبران العالم هو بعينه قول المجوس باضافة الحوادث الى صانعين : أحدهما قديم ، والآخر محدث ، الا ان الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثانى ، وعبر المجوس عنهما بيزدان واهرمن. (انظر الفرق بين الفرق ص ١٧٠ وما بعدها) .

ونقول لهؤلاء جميعا : ماذا تريدون بلفظ القدم هذا ؟ امحدث متقدم فى الوجود ، أو قديم دائما ؟ فاذا قالوا ان مرادنا : محدث متقدم فى الوجود ، ارتفع الخلاف فى هذا الأصل ، لأننا نحن أيضا نقول ان الروح محدث مع تقدم وجودها على وجود الشخص ، كما قال النبى عليه السلام : « ان الله خلق الأرواح قبل الأجساد » ، واذا صح حدوثها ، فلا محالة ان يكون المحدث بالمحدث محدثا وتكون جنسا من خلق الله يتصل بجنس آخر ، ومن اتصالهما باحدهما الآخر يخلق الله الحياة وفق تقديره . اى أن الأرواح جنس من الخلق ، والأجساد جنس آخر ، وحينما يقدر حياة حيوان يأمر ان تتصل الروح بالجسد فتحصل الحياة فى الحى . أما تحولها من شخص الى شخص فلا يجوز ، فكما انه لا يجوز لشخص واحد حياتان ، فانه لا يجوز ايضا أن يكون لروح واحد شخصان . ولو لم تنطق بذلك الأخبار ، ولو لم يكن الرسول صادقا فى اخباره لما كان معقول الروح الا الحياة ، ولكانت صفة لا عينا .

واذا قالوا : ان مرادنا بهذا القول انها كانت قديمة دائما ، نقول : أهى قائمة بنفسها ، أو بالغير ؟ فاذا قالوا : انها قديمة قائمة بنفسها ، نقول : اهى اله العالم ، ام لا ؟ فاذا قالوا : انها ليست هو ، فان ذلك يكون اثباتا لقديمين ، وهذا غير معقول ، لأن القديم لا يكون محدودا ، ولأن وجود ذاتين يجعل من احدهما حدا للآخر ؛ وهذا محال .

وان يقولوا : انها اله العالم ، نقول : اذن فهى قديمة والخلق محدث ، ومحال ان يكون للمحدث امتزاج بالقديم ، أو اتحاد أو حلول ؛ او يصير المحدث مكان القديم ، أو يكون القديم حادثا ، لأن كل ما يتصل بشيء يكون مثله . والوصل والفصل لا يجوز الا على المحدثات ، لأنها من جنس بعضها البعض ، تعالى الله عن ذلك .

وان يقولوا : غير قائمة بنفسها ، وقيامها بغيرها ، فان هذا لا يخرج عن اثنتين : اما أن تكون صفة ، أو تكون عرضا . فاذا قالوا انها عرض ، فلا محالة من أنه يجب القول : أفى محل ، أو لا محل ؟ فان يقولوا : فى محل ، فان محلها يكون مثلها ويبطل اسم القدم عن كليهما . وان يقولوا : فى لا محل ، يكون محالا ، فما دامت عرضا غير قائم بذاته فمن غير المعقول ان تكون فى لا محل .

وان يقولوا : انها صفة قديمة — كما يقول الحلولية والتناسخية(١) — ويسمون تلك الصفة : صفة الحق ، يكون محالا ، لأن الصفة القديمة للحق لا تصير صفة للخلق ، واذا جاز أن تكون حياته صفة للخلق ، لجاز ايضا أن تكون قدرته قدرة للخلق وعندئذ تقوم الصفة بالموصوف ، فكيف يكون للصفة القديمة موصوف محدث ؟ . .

فلا محالة اذن ان لا يكون للقديم اى تعلق بالمحدث ، وقول الملحدة فى هذا باطل ؛ والروح مخلوقة وبامر الحق ؛ ومن يقول غير هذا يكون قوله مكابرة عيانا ، ولا يستطيع ان يفرق المحدث من القديم . ولا يجوز أن يكون الولى فى صحة ولايته جاهلا باوصاف الحق .

---

(١) « التناسخية » : منهم القائلون بتناسخ الأرواح فى الأجساد وانتقالها من شخص الى شخص ، ومنهم من قالوا بتناسخ روح الاله .

والقائلون بالتناسخ منهم أصناف كانوا قبل دولة الاسلام ، واصنافه ظهروا فى دولة الاسلام ، فممن كانوا قبل الاسلام : السمنية الذين قالوا بقدم العالم ، وبابطال النظر والاستدلال ، وانكر اكثرهم المعاد والبعث بعد الموت ، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح فى الصور المختلفة ، وأجازوا أن ينتقل روح الانسان الى كلب وروح الكلب الى انسان . ومنهم المانوية، ذلك أن مانى قال فى بعض كتبه ان الأرواح التى تفارق الأجساد نوعان : ارواح الصديقين ، وارواح اهل الضلالة ، فارواح الصديقين اذا فارقت أجسادها سرت فى عمود الصبح الى النور الذى فوق الفلك فبقيت فى ذلك العالم على السرور الدائم . وارواح اهل الضلالة اذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منكسة الى اسفل فتتناسخ فى أجسام الحيوانات الى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلحق بالنور العالى . وقال بعض اليهود بالتناسخ وزعم أنه وجد فى كتاب دانيال أن الله تعالى مسخ بختنصر فى سبع صور من صور البهائم والسباع وعذبه فيها كلها ثم بعثه فى آخرها موحدا .

واما اهل التناسخ فى دولة الاسلام فقد قالت البيانية والجناحية والخطابية والراوندية من الروافض الحلولية بتناسخ روح الاله فى الأئمة . واول من قال بهذا السبابية من الرافضة لدعواهم أن عليا صار الها حين حل روح الاله فيه . وزعمت البيانية ان روح الاله دارت فى الأنبياء ثم فى الأئمة الى ان صارت فى بيان بن سمعان . وادعت الجناحية مثل ذلك فى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وكذلك دعوى الخطابية فى ابى الخطاب . وكذلك دعوى قوم من الراوندية فى أبى مسلم ، فهؤلاء يقولون بتناسخ روح الاله دون أرواح الناس (الفرق بين الفرق ص ١٦٢ — ١٦٣) .

وبحمد الله تعالى قد حفظنا الله من البدعة والخطر ، ووهبنا العقل حتى نظرنا واستدللنا به ، ومنحنا الايمان حتى عرفناه بهدايته . نحمدا له غير موصول بغاية ، لأن الحمد المتناهى فى ازاء النعيم اللامتناهى لا يكون مقبولا .

ولما سمع الظاهريون هذه الحكاية من أهل الوصول ظنوا ان هذا هو اعتقاد جميع المتصوفة ، حتى حجبوا بغلطهم الكبير وخسرانهم الواضح عن جمال هذه الأخبار ، وخفيت عليهم لطيفة ولاية الحق ولوامعها ، واللوايح الربانية ، من بعد أن ردوا الكبار والسادة . فأما رد الخلق فهو مثل قبولهم، وقبولهم مثل ردهم .

فصل : يقول واحد من المشايخ رحمهم الله : « الروح فى الجسد كالنار فى الفحم ، فالنار مخلوقة ، والفحم مصنوع(١) » . ولا يجوز القدم الا على ذات الله وصفاته .

وكان من المشايخ رضى الله عنهم ابو بكر الواسطى الذى تحدث كثيرا فى الروح ، ويرد عنه انه قال : « الأرواح على عشرة مقامات » : أولها : ارواح المخلصين المحبوسة فى ظلمة ولا تدرى ماذا يراد أن يفعل بها . والثانى : أرواح العباد التى تسعد فى سماوات الدنيا بمواريث الأعمال وما عملت من الطاعات ، وتسير بقوتها . والثالث : أرواح المريدين التى تكون فى السماء الرابعة فى لذات الصدق وظل اعمالها مع الملائكة . والرابع : أرواح أهل السنن المعلقة من العرش فى قناديل النور : اغذيتها الرحمة واشربتها اللطف والقربى . والخامس : ارواح أهل الوفاء التى تطرب فى حجاب الصفاء ، ومقام الاصطفاء . والسادس : أرواح الشهداء فى حواصل الطيور فى الجنة ، تذهب فى الرياض حيث تريد ، من آن لآخر . والسابع : ارواح المشتاقين التى قامت فى حجب أنوار الصفاء على بساط الأدب . والثامن : ارواح العارفين التى تسمع صباح مساء كلام الله فى حظائر القدس ، وأماكنها فى الجنة ، وترى الدنيا . والتاسع : أرواح المحبين التى استغرقت فى مشاهدة الجمال ومقام الكشف ، لا تعرف سواه ، ولا تسكن الى اى شىء . والعاشر : أرواح الدراويش التى استقرت فى محل الفناء ، وتبدلت أوصافها ، وتغيرت احوالها .

ويرد عن المشايخ رضى الله عنهم أنهم راوها (اى الروح) كل منهم بصورة ،

---

(١) فى الأصل : مصنوعة .

وهذا جائز لأنها ــ كما قلنا ــ موجودة وجسم لطيف ، فيلزم أن تكون مرئية ، وحين يريد الحق تعالى يريها للعبد كما يريد .

ويقول صاحب الكتاب : ان حياتنا فى الجملة بالله ، وبقاؤنا به ، واحياؤنا فعل للحق ، ونحن أحياء بخلقه لا بذاته وصفاته ، وقول الروحانيين كله باطل . ومن الضلالة العظمى بين الخلق ان يقولوا للروح : قديم ، مهما عبروا عنها ، فتقول طائفة انها النفس والهيولى ، وتقول أخرى انها النور والظلمة ، ويقول مبطلو هذه الطريقة انها الفناء والبقاء ، أو الجمع والتفرقة ، أو صاغوا عبارات مزخرفة مثل هذه ويحسنون كفرهم بهـا . والمتصوفة ينفرون من هذه الطائفة ، لأن اثبات الولاية وحقيقة محبة الله لا تصح الا بمعرفته ، وحين لا يعرف شخص القديم من المحدث فانه يكون جاهلا فيما يقوله ، ولا يأخذ العقلاء بقول جاهل .

وقد ذكرنا الآن فى هذا الباب ما كانت تقصده هاتان الطائفتان المبطلتان ، واذا كان يلزم اكثر من هذا فينبغى طلبه من كتب لى ، فليس مرادى هنـا التطـويل .

وابين الآن فى هذا الكتاب بالبراهين الظاهرة كشف حجب أبواب المعاملات وحقائق أهل التصوف ، ليسهل عليك طريق معرفة المقصود ، وينفتح الطريق لكل من له بصيرة من المنكرين ، ويكون لى بهذا الدعاء والثواب ، ان شـاء الله تعـالى .

كشف الحجاب الأول
فى معرفة الله تعالى

« قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره(١) » . « وقال النبى عليه عليه السلام : لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحــور ، ولزالت بدعائكم الجبــال » .

فمعرفة الله تعــالى على نوعين : احدهما : علم ، والآخر : حال ، والمعرفة العلمية هى قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة .

واهم الأشياء للعبد فى جميع الأوقات والأحوال معرفة الله جل جلاله : «قوله تعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون(٢)» اى : ليعرفون ، فكثير من الخلق معرض عن هذا سوى من اصطفاهم الله وخلصهم من ظلمات الدنيا ، واحيا قلوبهم به ، « لقوله تعالى : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس »(٣) — يعنى عمر — « كمن مثله فى الظلمات »(٤) — يعنى ابا جهل — فالمعرفة حياة القلب بالحق ، واعراض السر عما سوى الحق . وقيمة كل امرىء بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له .

فالناس من علماء وفقهاء وغيرهم سموا صحة العلم بالله : المعرفة . ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحــال بالله : المعــرفة ، ولذلك قالوا ان المعرفة افضل من العلم ، لأن صحة الحال لا تكون الا بصحة العلم ، وصحة العلم ليست صحة الحال ، اى : لا يكون عارفا من لا يكون عالمــا بالحق ، ولكن يكون عالما من لا يكون عارفا . ومن كانوا جهالا بهذا المعنى من الطائفتين ناظروا فى هذا بلا فائدة ، وانكرت تلك الطائفة على هذه ، وهذه على تلك .

والآن اكشف سر هذا لتظهر الفائدة لكلا الطائفتين ، ان شاء الله .

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٩١ .
(٢) سورة « الذاريات »آية ٥٦ .
(٣ ، ٤) سورة « الأنعام » آية ١٢٢ .

فصـــل : اعلم ـــ اسعدك الله ـــ ان للناس فى معرفة الله تعالى وصحة العلم به اختلاف كبير ، فالمعتزلة يقولون ان معرفة الله عقلية ، ولا يجوز لغير العاقل معرفته . وهذا القول باطل بالنسبة للمجانين الذين فى ديار الاسلام لأن حكمهم حكم المعرفـــة ، وللأطفال غير العقلاء وحكمهم حكم الايمان ، فلو كانت المعرفة بالعقل لما كان لهم حكم المعرفة لأنه ليس لهم عقل ، ولما كان للكافرين الذين لهم عقل حكم الكفر . ولو كان العقـــل علة للمعرفة لوجب ان يكون كل عاقل عارفا ، ولكان كل غير العقلاء جهالا ، وهذه مكابرة عيان .

وتقول جماعة ان علة معرفة الحق الاستدلال ، ولا تجوز المعرفة لغير المستدل . وهذا القول باطل بالنسبة لابليس ، لأنه رأى آيات كثيرة ، والجنة والجحيم والعرش والكرسى ولم تصر رؤية كل هذا له علة للمعرفة .

« وقوله تعالى : ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله(١) » ، واذا كانت رؤية الآيات والاستدلال بها علة المعرفة لجعلها الله تعالى هى لا مشيئته علة معرفته .

وصحة العقل ، ورؤية الآية عند اهل السنة والجماعة سبب المعرفة لا علتها ، لأن علتها ليست سوى محض عناية الله ولطف مشيئته ، « عمت نعماؤه » ، فالعقل بغير عنايته يكون أعمى ، لأن العقل ذاته جاهل بنفسه ، ولم يعرف حقيقته احد من العقلاء ، وما دام جاهلا بنفسه فكيف يعرف غيره لا وبغير عناية الحق يكون الاستدلال والفكرة فى رؤية الآية كلاهما خطأ ، لأن أهل الهوى وطوائف الالحاد كلهم مستدل ولكن اكثرهم ليسوا عرفاء . ثم ان من يكن من اهل العناية تكن كل حركاته معرفة ، واستدلالاته طلبا ، وتركه الاستدلال تسليما . وفى صحة المعرفة لا يكون التسليم أولى من طلب الطالب ، لأن الطلب اصـــل لا وجه لتركه ، والتســـليم أصل لا وجه فيه للاضطراب ، وليست المعرفة حقيقة هذين .

واعلم انه لا هادى للعبد ولا شارح لقلبه فى الحقيقة غير الله ، « تعالى الله عن جميع ما يقول الظالمون » ، وليس لوجود العقل والدلائل امكان الهداية،ولا دليل على هذا أوضح من ان الله تعالى قال : « ولو ردوا لعادوا لمـــا نهوا عنه(٢) » . وعندما ســـئل أمير المؤمنين على عن المعرفة قال : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله » . فالله تعالى خلق الجسد وأحال حياته الى الروح ، وخلق القلب وأحال حياته الى نفسه ، فما دام ليس للعقل قدرة احياء الجسد ، فمحال أن يحيى القلب ، كما قال : « أومن

(١) سورة « الأنعام » آية ١١١ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٢٨ .

كان ميتا فأحييناه(١) » ، فأحال الحياة كلها الى نفسه ، ثم قال : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس(٢) ». وقال ايضا : « افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه(٣) » ، فأحال شرح القلب الى نفسه ، وربط ختمه ايضا بفعله فقال : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم(٤) » ، وقال أيضا : « ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا(٥) » ، فما دام قبض القلب وبسطه وختمه وشرحه له ، فمحال أن يعرف غيره هاديا ، لأن كل ما دونه علة وسبب ، ولا تستطيع العلة والسبب الهداية أبدا بغير عناية المسبب ، لأن الحجاب قاطع طريق لا هاد .

قوله تعالى : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم(٦) » أضاف التحبيب والتزيين الى نفسه ، وجعل الزام التقوى التى عينها المعرفة منه ، وليس للملزم فى الزامه اختيار الدفع والجلب ، فلا نصيب للخلق من معرفته بدون تعريفه غير العجز .

ويقول أبو الحسن النورى رضى الله عنه : « لا دليل على الله سواه ، انما العلم يطلب لأداء الخدمة » . وليس لأحد من المخلوقات القدرة على أن يوصل احدا الى الله ، فلم يكن هناك مستدل أكثر عقلا من أبى طالب ، ولا دليل اكبر من محمد ، ولكن لما جرى الحكم على ابى طالب بالشقاء ، لم تنفعه دلالة محمد . واول درجة من الاستدلال هى الاعراض عن الخلق ، لأن الاستدلال : التأمل فى الغير ، وحقيقة المعرفة : الاعراض عن الغير . وفى العادة يكون وجود كل المطلوبات بالاستدلال ، ومعرفته خلاف العادة ، فمعرفته ليست الا دوام حيرة العقل ، واقبال عنايته (تعالى) على العبد ، ولا سبيل فيها لكسب الخلق ، ولا دليل لعبده سوى انعامه ولطفه — وذلك من فتوح القلوب وخزائن الغيوب — لأن كل ما سواه محدث ، ويجوز أن يصل المحدث الى مثله ، ولا يجوز أن يصل الى خالقه بوجوده . وما يدخل تحت كسبه فهو كسب كاسب غالب ، ومكتسبه مغلوب ، فليست الكرامة ان

(١ ، ٢) سورة « الأنعام » آية ١٢٢ .
(٣) سورة « الزمر » آية ٢٢ .
(٤) سورة « البقرة » آية ٧ .
(٥) سورة « الكهف » آية ٢٨ .
(٦) سورة « الحجرات » آية ٧ .

يثبت العقل بدليل الفعل وجود الفاعل ، بل الكرامة هى ان ينفى القلب وجود نفسه بنور الحق سبحانه وتعالى ، فتكون المعرفة للأول قالا ، وللآخر حالا.

وما يراه جماعة من انه علة المعرفة ــ وهو العقل ــ قل لهم ، انظروا ، أى شىء يثبته العقل فى القلب من عين المعرفة ، وكل ما يثبته العقل تقتضى المعرفة نفيه ؟ ! يعنى أن كل ما يتصور فى القلب بدلالة العقلُ على انه الله ، فالله على خلافه ، واذا تصور خلاف ذلك ، فهو أيضا على خلافه ، فأى مجال يبقى هنا للعقل حتى تكون المعرفة باستدلاله ؟ لأن العقل ووهمه كلاهما جنس واحد ، وحيثما ثبت الجنس انتفت المعرفة ، فجاء اثبات استدلال العقل تشبيها،ونفيه تعطيلا،وليس مجاله الا فى هذين الأصلين،وهذان كلاهما نكرة ، لأن المشبهة والمعطلة(١) غير موحدين ، فلما كان العقل قد سار على قدر امكانه ، وما جاء منه كان كله ذاته ، لم يكن لقلوب الأحبة معدى عن الطلب ، فاستقروا على عتبة العجز بلا آلة ، وصاروا فى قرارهم بلا قرار ، ورفعوا أيديهم ضارعين وطلبوا لقلوبهم مرهما ، وكان طريقهم قد وصل الى نوع طلب قدرتهم ، وهنا صـــارت قدرة الحق قدرتهم . يعنى انهم وجدوا الطريق منه اليه ، واستراحوا من عناء الغيبة ، وسكنوا فى روضة الأنس ، واستقروا فى الروح والسرور . فلما رأى العقل القلوب بلغت مرادها أظهر تصرفه ، فلم يدرك شيئا ، وعجز وتحير ، فلما تحير عزل ، ولـــما عزل عندئذ البســه الله لباس الخدمة ، وقال له : طالما كنت مع نفسك فقد حجبت بآلة تصرفك.، فلما فنيت الآلة عجزت ، فلما عجزت وصلت . فصار نصيب القلب القربة ، ونصيب العقل الخدمة ، وكانت معرفته بالتعريف ، فالله عز وجل صير العبد عارفا بتعريفه وتعرفه حتى عرفه به ، فليست المعرفة ما تكون موصولة بآلة ، انما المعرفة ما يكون وجوده فيها عارية ، فصارت الأنانية خيانة لكل وجود العارف ، حتى صار ذكره بلا نســـيان ، وحاله بلا تقصير ، ومعرفته حالا لا قالا .

وقالت طائفة ايضا ان المعرفة الهام ، وهذا محال ، لأن للمعرفة برهان الباطل والحق ، وليس لأهل الالهام برهان على الخطا والصواب ، لأن واحدا يقول : انى ملهم بأن الله تعالى ليس له مكان ، ويقول آخر : اننى ملهم بأن

---

(١) « المعطلة » : يطلق البعض هذا الاسم على المعتزلة ، لأنهم قالوا ان الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلا، فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته لا بعلم وقدرة وصـــفات قديمة ومعان قائمة به ، فأثبتوا الذات وعطلوا الصفات ، ومن هنـــا سموا بالمعطله .

له مكانا ، ولا محـــالة ان يكون الحق فى جانب أحـــدى هاتين الدعوتين المتضادتين ، وكل منهما يدعى الالهام ، ويلزم لا محالة مميز ليفرق بين صدق وكذب هذين المدعيين ، وعندئذ يعرف بالدليل ، ويبطل حكم الالهام . وهذا قول البراهمة(١) والالهاميين .

وقد رايت فى زماننا أن قوما يغالون فى هذا كثيرا ، وينسبون حالهم الى طريق العباد ، والجميع على ضلالة ، وقولهم مخالف لجميع العقلاء من أهل الكفر والاسلام ، لأن عشرة ممن يدعون الالهام يدعون بعشرة أقوال متناقضة فى حكم واحد ، فتكون الدعاوى كلها باطلة ، ولا يكون أحد على حق . واذا قال قائل ان ما هو خــلاف للشرع لا يكون الهاما ، نقول : انك فى اصلك مخطىء ، وعلى غلط ، لانك حين تقيس الشريعة بالهامك يكون ثبات هذا الالهـــام بها .

المعرفة : شرع ونبوة وهداية ، لا الهام ، وحكم الالهام فى المعرفة باطل بكل الوجوه .

وقد قالت طائفة أخرى ان معرفة الله ضروره . وهذا أيضا محال ، لأنه فى كل شىء يكون علم العبد به ضرورة ، يجب ان يشترك فيه كل العقلاء ، وما دمنا نرى أن فريقا من العقلاء يجحدونه وينكرونه ويجيزون التشبيه والتعطيل ، فقد صح أنها ليست ضرورة . وايضا لو كانت معرفة الله ضرورة لـــا جاء بها التكليف ، لأن التكليف بمعرفة شىء يكون العلم به ضرورة محال ، مثل معرفة النفس والسماء والأرض والنهار والليل والآلام واللذات وامثالها التى لا يستطيع العاقل أن يلقى بنفسه الى الشك فى حال وجودها ، لأنه مضطر فى ذلك ، واذا أراد الا يعرفها فانه لا يستطيع .

اما الطائفة من المتصوفة الذين نظروا الى صحة يقينهم ، فقد قالوا اننا نعرفه بالضرورة — لانهم لم يجـدوا فى قلوبهم أى شك فســموا اليقين ضرورة — فهم مصيبون فى المعنى ولكنهم مخطئون فى العبارة ، لانه فى العلم

---

(١) « البراهمة » : هم اتباع الديانة البرهمية ، والفيدانتا الهندية من اكثر المذاهب تصويرا للديانة البرهمية ، واخص ما يمتاز به هذا المذهب هو القول بوحدة الوجود . وطريق النجاة والســعادة عندهم ليس فى الزهد والتعبد فحسب ، وانما هو أيضا فى أن يعرف المتعبد أن الاله « براهما » فى كل شىء ، وأن كل شىء هو براهما .
ويقول البغدادى ان البراهمة ينكرون جميع الأنبياء والرســل ، وان وافقوا المسلمين فى القول بحدوث العالم وتوحيد صانعه . وللشافعى كتاب فى تصحيح النبوة والرد على البراهمة . (الفرق بين الفرق ص ٢١٥، ٢٢٠).

بالضرورة لا يجوز التخصيص للصحيح ، لأن جميع العقلاء فيه سواء . والضرورة ايضا علم يظهر فى قلوب الاحبة بلا سبب ، والعلم بالله ومعرفته سبب .

أما الأستاذ ابو على الدقاق والشيخ ابو سهل والد سهل الذى كان رئيس نيسابور وامامها ، رحمة الله عليهم ، فعلي ان بداية المعرفة استدلال ، ونهايتها ضرورة ، مثل العلم بالطاعات فهو مكتسب فى البداية ويصير ضرورة فى النهاية ، بقول لأهل السنة والجماعة ، ويقولون : الا ترى أن العلم بالله يصير ضرورة فى الجنة ، وما دام يجوز ان يكون هنالك ضرورة فانه يجوز ان يصير هنا ايضا ضرورة . وهنا ايضا الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا فى ذلك الحال يسمعون كلامه بلا واسطة ، فكانوا يعرفونه بالضرورة ، والملائكة الذين كانوا يؤدون الوحى كذلك ، وامثال هذا .

ونقول : ان اهل الجنة فى الجنة يعرفونه بالضرورة لانها ليست دار تكليف ، كما أن الأنبياء عليهم السلام مأمونو العاقبة وآمنون من القطيعة ، ومن عرفه بالضرورة لا يكون له أيضا خوف من القطيعة . وللايمان والمعرفة فضل بأنهما غيبيان ، فاذا صارا عيانا يصير الايمان خبرا ، ويرتفع الاختيار فى عين ذلك ، وتضطرب أصول الشرع ، ويبطل حكم الردة ، ولا يصح تكفير « بلعم »(١) و « برصيصا »(٢) وابليس لأنهم بالاجماع كانوا عارفين بالله عز وجل ، كما اخبرنا عن ابليس من حال الطرد والرجم (أنه قال) : ((**فبعزتك لأغوينهم اجمعين**(٣))) . وفى الحقيقة فان قوله « فبعزتك » ، وتكلمه ، وسماعه الجواب يقتضى المعرفة ، والعارف طالما هو عارف فهو آمن من القطيعة ، والقطيعة تحصل بزوال المعرفة ، ولا يتأتى زوال العلم الضرورى . وهذه المسألة مملوءة بالآفة بين الخلق ، ويشترط أن تعرف هذا القدر لتكون قد نجوت من الآفة ، لأن علم العبد ومعرفته بالله تعالى لا يكونان الا باعلامه وهدايته الأزلية .

---

(١) بلعم بن باعوراء : يقال انه كان عابدا زاهدا ، اوتى الاسم الأعظم ، ثم انسلخ عن الآيات ، وادخل الهوى على العلم ، فضل بذلك وهلك ، ولم ينفعه ما كان منه من العبادة والزهادة (قوت القلوب ج ٢ ص ١٨٢) .

(٢) برصيصا : كان عابدا فى غاية التقوى ، وفى النهاية خدعه الشيطان فضل .

(٣) سورة « ص » آية ٨٢ .

ويجوز أن يزيد يقين العباد فى المعرفة حينا وينقص حينا ، ولكن أصل المعرفة لا يزيد ولا ينقص ، لأن زيادته نقصان ، ونقصه نقصان أيضا ، ولا يليق التقليد لمعرفة الله ، ويجب أن يعرف بصفات الكمال ، ولا يستقيم هذا الا بحسن رعاية الحق تعالى وصحة عنايته . والدلائل والعقول كلها ملك له وتحت تصرفه : اذا أراد فهو يجعل فعلا من افعاله دليلا لواحد ويهديه اليه ، واذا أراد ، يجعل الفعل نفسه حجابا له ، ايعجز عنه أيضا بذلك الفعل ، مثل عيسى عليه السلام فقد صار دليلا لقوم الى المعرفة ، وحجابا لقوم عن المعرفة ، حتى قالت طائفة انه عبد الله عز وجل ، وقالت طائفة انه ابن الله عز وجل . والصنم والقمر والشمس كذلك كانت دليل جماعة الى الحق ، وتخلفت بها أيضا جماعة . واذا كان الدليل علة المعرفة للزم ان يكون كل مستدل عارفا ، وهذا مكابرة عيان ، فالله تعالى يختار واحدا ويجعل جميع الأشياء هداة له حتى انه يصل اليه بسببها ويعرفه ، فالدليل هنا صار له سببا لا علة ، ولا يكون سبب أولى من سبب فى حق المسبب للمسبب . ولعمرى ان اثبات السبب للعارفين يكون زنارا فى المعرفة ، والالتفات الى غير المعروف شرك : « من يضلل الله فلا هادى له(١) » ، فعندما يكون فى اللوح المحفوظ ، لا بل فى مراد الحق ومعلومه أن الشقاوة نصيب شخص ، كيف يصير الدليل والاستدلال هاديا له ؟ « من التفت الى الأغيار فمعرفته زنار » ، فمن تلاشى واستغرق فى قهر الله كيف يتعلق به شىء بدون الحق ؟ فحينما خرج ابراهيم عليه السلام من الغار فى النهار لم ير شيئا — وفى النهار تكون البراهين اكثر والعجائب أظهر — وحين خرج فى الليل راى كوكبا ، فلو كان الدليل علة معرفته ، فالدلائل فى النهار اظهر ، والعجائب أبين . فالله تعالى يهدى العبد اليه كما يريد ، وبما يريد ، ويفتح له باب المعرفة حتى انه يصل فى عين المعرفة الى درجة تصير المعرفة فيها غيرا ، وتصير صفته ومعرفته آفة له ، ويحجب بالمعرفة عن المعروف حتى تصير حقيقة المعرفة دعوى له .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « اياك أن تكون بالمعرفة مدعيا » . لأنك تهلك فى ذلك ، فتعلق بمعناها حتى تجد النجاة . وكل من يكرم بكشف جلاله ، يصير وجوده وبالا له ، وتصير صفاته كلها محل آفته . وكل من يكون للحق ويكون الحق له لا يكون له شىء حتى تصح نسبته الى ذلك الشىء فى الكونين والعالمين . وحقيقة المعرفة هى العلم بأن الملك للحق تعالى وتقدس ، وحين يعرف شخص أن كل الممالك ملك له ، فأى امر يبقى له

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٨٦ .

مع الخلق حق يصير محجوبا بنفسه أو بالخلق ؟ والحجاب من الجهل ، واذا فنى الجهل يتلاشى الحجاب ، ويصير الدنيوى بالمعرفة عقبويا ، والله أعلم .

فصل : وللمشايخ فى هذا المعنى رموز كثيرة ، ولحصول الفائدة أذكر بعضا من أقاويلهم ان شاء الله عز وجل .

يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله : « المعرفة أن لا تتعجب من شىء » . لأن التعجب يتأتى من فعل يفعله الشخص زيادة عن مقدوره ، ولما كان تعالى وتقدس قادرا على الكمال ، فتعجب العارف من أعماله محال . واذا كان هنالك تعجب ، فينبغى أن يكون من أنه أوصل حفنة من التراب الى درجة أن صارت محلا لأمره ، وأبلغ قطرة دم الى مرتبة أن تتحدث عن محبته ومعرفته ، وتطلب رؤيته ، وتقصد قربه ووصله .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « حقيقة المعرفة : اطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار » . يعنى أنه ما لم يزين الحق تعالى بعنايته قلب العبد بنوره ، وينقيه من جميع الآفات ، بحيث لا يبقى للموجودات والمثبتات فى قلبه مقدار وزن خردلة ، لا تغلبه مشاهدة أسرار الباطن والظاهر . وعندما يفعل هذا ، تصير المعاينة كلها مشاهدة .

ويقول الشبلى رحمه الله : « المعرفة : دوام الحيرة » . والحيرة على نوعين : أحدهما فى الماهية ، والثانى فى الكيفية . والحيرة فى الماهية شرك وكفر ، وفى الكيفية معرفة ، لأنه ليس للعارف شك فى وجوده ، ولا مجال للعقل فى كيفيته . ويبقى هنا يقين فى وجود الحق ، وحيرة فى كيفيته ، ولهذا السبب قال (الشبلى) : « يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا » ، فاثبت أولا معرفة وجوده ، وكمال أوصافه ، وعرف أنه مقصود الخلق ومجيب دعواتهم ، وانه لا حيرة للمتحيرين فى سواه ، وعندئذ طلب زيادة الحيرة ، وعرف أن الحيرة والاضطراب كانت شرك وقفة للعقل فى المطلوب . وهذا المعنى لطيف جدا .

ويحتمل (أن يكون المعنى) أن معرفة الوجود الحق تقتضى التحير فى وجود نفسه ، لأن العبد اذا عرف الله ، يرى كل ذاته فى قيد قهره . وحين يكون وجوده وعدمه به ، وسكونه وحركته منه ، فانه يحار فى قدرته ، ويقول: ما دام بقاء كلى به ، فمن أكون أنا ؟ وعلام أكون ؟ ولهذا قال النبى عليه

السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، أى : كل من عرف نفسه بالفناء، عرف الله بالبقاء . ومن الفناء يبطل العقل والصفة . وحين لا يكون عين الشيء معقولا فانه لا يمكن فى معرفته غير التحير .

ويقول ابو يزيد رحمه الله : « المعرفة : أن تعرف أن حركات الخلق وسكناتهم بالله » . ولا تصرف لأى أحد فى ملكه بغير اذنه ، فالعين عين به ، والأثر أثر به ، والصفة صفة به ، والمتحرك والساكن متحرك وساكن به ، فما لم يخلق فى البنية الاستطاعة ، وفى القلب الارادة ، فان العبد لا يستطيع ان يفعل اى فعل . وفعل العبد على المجاز ، وفعل الحق على الحقيقة .

ويقول محمد بن واسع ، رحمه الله ، فى صفة العارف : « من عرف الله قل كلامه ودام تحيره» . لأنه يمكن التعبير عن الشيء الذى يدخل تحت العبارة، وللعبارة فى الأصول حد ، وحين لا يكون المعبر محدودا ليوضع عليه اساس العبارة ، كيف تثبت عبارة المعبر ؟ وحين لا يدخل المقصود فى العبارة — وليس للعبد بد منه — فأى حيلة له غير الحيرة الدائمة ؟ !

ويقول الشبلى رحمه الله : « حقيقة المعرفة : العجز عن المعرفة » . فالشيء الذى لا يبدو للعبد من حقيقته غير العجز فيه ، يجوز أن لا يكون للعبد فى ادراكه بنفسه اكثر من الدعوى ، لأن العجز يكون طلبا له ، وطالما كان الطالب قائما فى آلته وصفته ، فانه لا يصح عليه اسم العجز ، وحين تنتهى هذه الآلة والأوصاف ، فانه عندئذ يكون فناء لا عجزا .

ويقول فريق من الأدعياء انه فى حال اثبات صفة الآدمية وبقاء التكليف بصحة الخطاب وقيام حجة الله عليهم ، تكون المعرفة عجزا ، وقد صرنا عاجزين ، وعجزنا عن الكل . وهذه ضلالة وخسران ، ونقول لهم : فى طلب اى شيء عجزتهم ، وللعجز علامتان ، وكلتاهما ليستا معكم ، احداهما : علامة فناء آله الطلب ، والأخرى : اظهار التجلى ، فحيثما يكون فناء الآلة تتلاشى العبارة ، واذا عبرت العبارة عن العجز ، فان العبارة عن العجز لاتكون عجزا . وحيثما يكون اظهار التجلى ، لا يقبل علامة ولا يحصل التمييز، حتى لا يعرف العاجز انه عاجز ، أو ان ما هو منسوب اليه يسمى عجزا ، لأن العجز يكون غيرا ، واثبات معرفة الغير لا يكون معرفة . وما دام للغير مكان فى القلب ، وما دام للعارف عن الغير عبارة ، فانه لا يكون عارفا بعد .

ويقول ابو حفص الحداد رحمه الله : « منذ عرفت الله ما دخل فى قلبى حق ولا باطل(١) » . لأنه ما دام للخلق رغبة وهوى ؛ فانه يرجع الى القلب حتى يرشده القلب الى النفس التى هى محل الباطل . وحين يجد العز الدائم ، فانه يرجع أيضا الى القلب حتى يرشده القلب الى الروح التى هى منبع الحق والحقيقة . وحين يكون الغير فى القلب ، يصير رجوع العارف اليه نكرا . فكل الخلق طلبوا برهان المعرفة من القلب ؛ وطلبوا منه الرغبة والهوى ايضا ، فمن لم يرغبوا فى طلب الباطل من القلب ، ولم يطمئنوا الا الى الحق ، طلبوا الحق من القلب ، ولما لزمت علامة البرهان رجعوا الى الحق . وهذا هو الفرق بين العبد الذى يرجع الى القلب ، والعبد الذى يرجع الى الحق

ويقول ابو بكر الواسطى رحمه الله : « من عرف الله انقطع ، بل خرس وانقمع(٢) » « وقال النبى عليه السلام : لا احصى ثناء عليك(٣) » ، فالنبى عليه السلام طالما كان فى الغيبة كان افصح العرب والعجم ، وعندما حمل من الغيبة الى الحضرة قال : لا قدرة للسانى على كمال الثناء عليك ، فماذا اقول وقد صرت بلا قول من القول ، وبلا حال من الحال ؟ انت هو انت ، وكلامى بى أو بك ، فاذا قلت : بى ، اكون محجوبا بقولى ، واذا قلت : بك ، اكون بكسبى معيوبا فى تحقيق قربتك ، فأنا لا اتكلم . فجاء الأمر : اذا لم تقل يا محمد فاننا نقول ، « لعمرك اذا سكت عن ثنائى ، فالكل منك ثنائى » ، فاذا كنت لا ترى نفسك اهلا للثناء علينا ، فقد صيرنا جميع أجزاء العالم نائبة عنك ، لتثنى علينا ، وتحيل الثناء اليك .

وبالله التوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد فى الرسالة (انظر جـ ٢ ص ٦٠٢) .
(٢) ورد فى الرسالة (انظر جـ ٢ ص ٦٠٣) .
(٣) رواه مسلم عن عائشة : « لا احصى ثناء عليك . انت كما اثنيت على نفسك » .

كشف الحجاب الثالث
في التوحيد

قوله تعالى : « والهكم اله واحد(١) . وقوله تعالى : قل هو الله أحد(٢) » الى آخره . وقوله تعـالى : لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد(٣) » .

وقال النبى عليه السلام : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لأهله : اذا مت فاحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى نصفى فى البر ونصفى فى البحر فى يوم رايح . ففعلوا . فقال الله عز وجل للريح : اجمعى ما أخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : استحياء منك . فغفر له(٤) » .

وحقيقة التوحيد هى الحكم على وحدانية شىء بصحة العلم بواحدانيته . ولمـا كان الحق تعالى واحدا بلا قسيم فى ذاته وصفاته ، وبلا دليل وشريك فى أفعاله ، والموحدون يعرفونه بهذه الصفة ، فانهم يسمون علمهم بوحدانيته توحيـدا .

والتوحيد ثلاثة ، أولها : توحيد الحق للحق ، وذلك علمه بوحدانيته . والثانى : توحيد الحق للخلق ، وذلك حكمه بتوحيد العبد ، وخلقه التوحيد فى قلبه . والثالث : توحيد الخلق للحق ، وذلك علمهم بوحدانيـة الله عز وجل(٥) ، فحين يكون العبد عارفا بالحق ، يستطيع الحكم بوحدانيته ، وبأنه تعالى واحد لا يقبل الوصل والفصل ، ولا تجوز عليه الاثنينية . ووحدانيته ليست عددا حتى تصير اثنين باثبات عدد آخر ، فتكون وحدانيته عددا . وأنه ليس محدودا حتى تكون له الجهات الست ، ويلزم لكل جهة منها جهات ست أخرى ، ويكون هذا اثبات أعداد بلا نهاية . وليس له مكان ، وليس

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٦٣ .
(٢) سورة « الاخلاص » آية ١ .
(٣) سورة « النحل » آية ٥١ .
(٤) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٨١) .
(٥) ورد هذا التقسيم للتوحيد للقشيرى فى الرسالة (انظر ج ٢ص٥٨٢).

فى مكان حتى يكون متمكنا باثبات المكان ، ويلزم للمكان مكان أيضا ، ويبطل حكم الفعل والفاعل والقديم والمحدث . وليس عرضا فيحتاج الى جوهر ، ولا يبقى فى محله فى الحالين . وهو ليس جوهرا حتى لا يصح وجـوده الا مع مثله . وليس طبعا حتى يكون مبدأ السكون والحركة . وليس روحا فيحتاج الى بنية . وليس جسما فيكون مؤلفا من أجزاء ، ويكون قوة فى الأشياء . وليس حالا فى شيء فيكون من جنس الأشـياء ، ولا اتصال له بشيء فيكون ذلك الشيء جزءا منه . وهو مبرأ من كل النقائص والنقصان ، ومنزه عن الآفات ، ومتعال عن كل عيب . وليس له شبيه فيكون هو وشبيهه شيئين . ولا ولد له فيقتضى نسله وصله وفصله . ولا يجوز التغيير على ذاته وصفاته فيتغير وجوده بذلك ، ويصير المتغير فى الحكم مثل التغير . وهو موصوف بصفات الكمال التى يثبتها له الموحدون بحكم البصيرة والهداية، والتى وصف نفسه بها ، وبرىء من الصفات التى يصفه بها الملحدون بهواهم، لأنه لم يصف نفسه بها « تعالى الله عما يقول الظالمون » .

حى وعليم ، رءوف ورحيم ، مريد وقدير ، سميع وبصير ، متكلم وباق . وعلمه ليس حالا فيه ، وقدرته ليست صلابة فيه ، وسمعه وبصره ليسا متحددين فيه ، وكلامه ليس تبعيضا وتحديدا فيه ، وهو دائما مع صفاته قديم ، وكل المعلومات ليست خارجة عن علمه ، وليس للموجودات بد من ارادته . يفعل ما يريد ، ويريد ما يعلم ، وليس لاخلائق اشراف على أسراره. حكمه كله حق ، وليس لأحبائه سوى التسليم ، وامره كله حتم ، ولا حيلة لمريديه غير انفاذ أمره . مقدر الخير والشر ، ولا يليق الرجاء والخوف الا به . خالق النفع والضر ، وحكمه كله حكمة ، ولا وجه سوى الرضـا بقضـائه . وليس لأحد شمة من وصله ، ولا سبيل للوصول اليه ، ورؤيته تجوز لأهل الجنة . ولا يليق للتشبيه والجهات ، ولا تجرى عليه المقابلة والمواجهة ، ويجوز للأولياء مشاهدته فى الدنيا ، وليس الانكار شرطا . وكل من يعرفه هكذا لا يكون من أهل القطيعة ، وكل من يعرفه بخلاف ذلك ، لا دين له . والكلام كثير فى هذا المعنى ، فى الأصول والوصول ، ولكنى اقتصرت على هذا خشية التطويل .

وفى الجملة : اقول أنا على بن عثمان الجلابى اننى ذكرت فى بداية هذا الفصل ان التوحيد هو الحكم على وحدانية شيء ، ولا يمكن الحكم الا بالعلم ، ولذا فقد حكم أهل السنة على وحدانية الله بالتحقيق ، لأنهم رأوا صنعا لطيفا ، وفعلا بديعا عجيبا ، وشاهدوا لطائف كثيرة ، ورأوا أن وجود هذه الصنائع بنفسها محال ، ووجدوا علامة الحدوث ظاهرة فى كل شيء ، فلا محالة من وجود فاعل ليوجدها من العدم : أى أن العالم والأرض

والسماء والشمس والقمر والبر والبحر والجبال والصحارى بصورها الكثيرة وحركاتها وسكناتها ، والعلم والنطق والموت والحياة ؛ هذه كلها لابد لها من صانع ، وهى فى غنى عن صانعين أو ثلاثة ، والصانع الواحد ، الكامل ؛ الحى . العليم ؛ العالم ؛ القادر ؛ المختار مستغن عن شريك أو شركاء آخرين ، وبما ان الفعل لابد له من فاعل ، ولا حاجة لفعل واحد لوجود فاعلين . فلا محالة ان يكون واحدا بلا شك وريب « بعلم اليقين » .

وقد اختلف معنا الثنوية(١) فى هذا باثبات النور والظلمة ؛ والمجوس(٢) باثبات يزدان واهريمن . والطباعيون باثبات الطبع والقوة ، والفلكيون باثبات الكواكب السبعة ، والمعتزلة باثبات خالقين وصانعين بلا نهاية . وقد ذكرت دليلا مختصرا لرد هؤلاء جميعا . وليس هذا الكتاب موضعا لاثبات ترهات تلك الطوائف . ويلزم لطالب هذا العلم أن يطلب هذه المسألة من كتاب اكثر تطويلا ، الفته واسميته : « الرعاية بحقوق الله تعالى » ، أو فى كتب الأصوليين المتقدمين ، رضى الله عنهم .

واعود الآن الى الرموز التى قالها المشايخ فى التوحيد ؛ بتوفيق الله .

فصل : يرد عن الجنيد رحمه الله أنه قال : « التوحيد افراد القدم عن الحدث(٣) » . أى انك لا ترى القديم محل الحوادث والحوادث محل

---

(١) الثنوية : هم اصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، فقد قال الثنوية من المانوية والديصانية والمرقيونية بقدم النور والظلمة وزعموا أن العالم مركب منهما ، وان الخير والنفع من النور ، وأن الشر والضر من الظلام (الفرق بين الفرق ص ٢١٥—٢١٦) .

(٢) المجوس : من الثنوية ، فقد أثبتوا أصلين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر هما : « يزدان » و « اهرمن » .

ومسائل المجوس كلها تدور حول قاعدتين : احداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ؛ والثانية : سبب خلاص النور من الظلمة .

والمجوس الأصلية اثبتوا الأصلين ، الا أنهم زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى والظلمة محدثة (الملل والنحل على هامش الفصل : انظر ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣) .

(٣) ورد فى الرسالة : التوحيد الذى انفرد به الصوفية هو : افراد القدم عن الحدث . (انظر ج ٢ ص ٥٨٦) .

القديم ، وتعلم أن الحق تعالى قديم ، وانك بالضرورة محدث ، ولا يتصل به شيء من جنسك ، ولا يمتزج بك أى شيء من صفاته ، اذ لا مجانسة للقديم مع المحدث ، لأن القديم كان قبل وجود الحوادث . وبما أن القديم ، مذ كان ، لم يكن محتاجا الى المحدث قبل وجود الحوادث ، فانه لا يحتاج اليه ايضا بعد وجودها . وهذا مخالف لمن يقولون بقدم الأرواح ، وقد مرذكرهم . وعندما يقول شخص ان القديم نازل فى المحدث ، أو يرى أن المحدث يتعلق بالقديم ، فانه لا يبقى دليل على حدوث العالم . وقد قالوا هذا فى مذهب الدهرية(١) ، فنعوذ بالله من اعتقاد السوء .

وفى الجملة : ان جميع حركات المحدثات هى توحيد ، وشاهد على قدرة الله عز وجل ، واثبات لقدمه .

(شـــعر عـــربى)

ففى كل شيء لـــــه آيـــة   تـــدل على انـــــه واحـــد(٢)

أما العبد فغافل عن هذا كله لانه يريد مرادا سواه ، أو يسكن الى غير ذكره . ولمـــا كان لا ينبغى له شريك فى العدم والوجود ، فمحال أن يكون له شريك فى الترتيب .

ويقول الحسين بن منصور رحمه الله : « أول قدم فى التوحيد فناء التفريد » . لأن التفريد حكم بانفصال شخص عن الآفات ، والتوحيد حكم بوحدانية شيء . فيجوز فى التفريد اثبات الغير ، ولا يجوز أن يوصف غيره بهذه الصفة . ولا يجوز على الوحدانية اثبات الغير ، ولا يليق لغير الحق أن يوصف بهذه الصفة ، فجاء التفريد عبارة مشتركة ، والتوحيـــد ناف للشركة . وأول قدم فى التوحيد نفى الشريك ، ورفع المزاج من المنهـاج ، لأن المزاج فى المنهاج كطلب المنهاج بلا سراج .

---

(١) « الدهرية » : يقولون بقدم العالم وابديته ، ويجحدون الصانع ، ويقولون ان ما يحدث فى العالم يحدث بقوانينه الطبيعية (انظـــر : الفرق بين الفرق ص ٧٨ ، ١٩٩) .

(٢) ورد فى اللمـــع :

وفى كل شيء لـــه شـــاهد   يـــدل على انـــه واحـــــد

(انظر ص ٥٣).

ويقول الحصرى رحمه الله : « اصولنا فى التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث ، واثبات القدم ، وهجر الأوطان ، ومفارقة الاخوان ، ونسيان ما علم وجهل(١) » .

أما رفع الحدث : فهو نفى المحـــدثات عن مقارنة التوحيد ، واستحالة الحوادث عن ذاته المقدسة جل جلاله .

واثبات القدم هو : الاعتقاد بدوام وجود الله تعالى وتقدس ، وقد شرحنا هذا من قبل فى قول الجنيد رضى الله عنه .

والمراد من هجر الأوطان : الانقطاع عن كل مالوفات النفس ، ومواطن راحة القلب ، ومواضع استقرار الطبع ، وهجرة المريدين من رسوم الدنيا ، بالمقامات السنية ، والأحوال البهية ، والكرامات الرفيعة .

والمراد بمفارقة الاخوان : الاعراض عن صحبة الخلق ، والاقبال على صحبة الحق ، لأن كل خاطر يمر به ذكر الغير ، يكون حجابا وآفة بالقدر الذى يمر به هذا الخاطر على سر الموحد ، ويحجبه عن التوحيد بهذا القدر ، لأن التوحيد باتفاق الأمم هو جمع الهمم ، والراحة مع الغير دليل تفرق الهمـــــة .

والمراد بنسيان ما علم وجهل من التوحيد هو : أن علم الخلق يكون بمتى وكيف ، أو بجنس أو بطبع ، وكل ما يثبته علم الخلق فى توحيـــد الحق ينفيه التوحيد ، وكل ما يثبته جهلهم يكون على خلاف علمهم ، لأن الجهل ليس توحيدا . والعلم بتحقيق التوحيد لا يصح الا بنفى التصرف ، وليس فى العلم والجهل سوى التصرف : تصرف عن بصيرة ، وآخر عن غفلة .

ويقول واحد من المشايخ رحمهم الله : كنت فى مجلس الحصرى فاستولى على النوم ، ورايت ملكين نزلا من السماء الى الأرض وسمعا كلامه فترة ، فقال واحد منهما للآخر : الذى يقوله هذا الرجل علم التوحيد ، لا عين التوحيد . وعندما استيقظت كان (الحصرى) يتحدث عن التوحيد ، فالتفت الى وقال : يا فلان ! لا يمكن التحدث عن التوحيد الا بعلم التوحيد(٢) .

---

(١) ورد فى الرسالة : « رفع الحدث ، وافراد القدم ، وهجر الاخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل » (أنظر جـ ٢ ص ٥٨٤) .

(٢) ورد فى الرسالة منسوبا الى منصور بن خلف المغربى (انظـــر جـ ٢ ص ٥٨٤) .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال : « التوحيد : أن يكون العبد شبحا بين يدى الله ، تجرى عليه تصاريف تدبيره ، فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده ، بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له ،وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته فى حقيقة قربه ، بذهاب حسه وحركته ، لقيام الحق له فيما أراد منه ، وهو أن يرجع آخر العبد الى أوله ، فيكون كما كان قبل أن يكون(١) » .

والمراد من هذا كله أن لا يبقى للموحد اختيار فى اختيار الحق ، ولا يرى نفسه فى وحدانية الحق ، لأن نفسه تفنى فى محل القرب ، ويذهب حسه، وتجرى عليه أحكام الحق كما يريد الحق ، بفناء تصرف العبد ، حتى يصير كما كان ذرة فى الأزل فى حال عهد التوحيد ، لأن القائل هو الحق ، والمجيب هو الحق ، وهو علامة الذرة . ومن يكون كذلك لا يرتاح الخلق اليه حتى يدعونه الى شىء ، ولا يبقى له انس مع أحد حتى يجيب دعوتهم .

وهذا القول يشير الى فناء الصفة ، وصحة التسليم فى حال القهر ، وكشف الجلال الذى يفنى العبد عن أوصافه ، حتى يصير آلة وجوهرا لطيفا، فاذا ضرب على كبد حمزة(٢) يمر بلا تصرف ، واذا وضع على ظهر مسيلمة(٣) يحمله بلا تمييز . وفى الجملة : يكون فانيا عن الكل ، ويصبح شخصه مكان تعبية اسرار الحق ، حتى يكون لنطقه حوالة اليه ، ولفعله اضافة اليه ، ولصفته قيام به ، ويبقى عليه حكم الشريعة لاثبات الحجة ، ويفنى عن رؤية الكل . وهذه صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد أوصلوه فى ليلة المعراج

---

(١) أورده السراج للجنيد وقد أجاب به عن توحيد الخاصة (أنظر : اللمع ص ٤٩) .

(٢) حمزة بن عبد المطلب : عم النبى عليه السلام وأسد الله وأسد رسوله ، قتل يوم أحد ، اذ رماه وحشى غلام جبير بن مطعم بحربة فسقط ، ومثلت به هند بنت عتبة بن ربيعة وشقت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥) .

(٣) مسيلمة الكذاب : هو مسيلمة بن حبيب ، من حنيفة بن لجيم ، كان قد أسلم ثم ادعى النبوة فى سنة عشر وزعم انه شريك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة ، وقتل فى أيام أبى بكر الصديق . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٩ المعارف ص ١٧٨) .

الى مقام القرب ـ وللمقام مسافة اما القرب فلا مسافة له ـ وابتعد حاله عن نوع ما هو معلوم للخلق ، وانقطعت عنه الأوهام الى حد ان الكون افتقده ، وافتقد هو نفسه ، وحار فى فناء الصفة بلا صفة ، وتشوش ترتيب الطبائع واعتدال المزاج ، فبلغت النفس محل القلب ، والقلب درجة الروح ، والروح مرتبة السر ، والسر صفة القرب ، وانقطع عن الكل فى الكل ، فأراد ان تتخرب البنيـة ويفارق الشخص ـ وكان مراد الحق من ذلك اقـامة الحجة ـ فجاءه الأمر ان : ابق على حالك ، فوجد بذلك القوة ، وصارت تلك القوة قوته ، وبفنائه عن نفسه ظهر بقاؤه بالحق ، حتى رجع وقال : « انى لست كأحدكم(١) ، انى ابيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى » ، لأن حياتى به ، وبقائى به . كما قال عليه السلام : « لى مع الله وقت لا يسع معى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل(٢) » .

ويرد عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه انه قال : « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا وباطنا فى ملكه وقدرته ، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير احاطة ، ولا ادراك نهاية(٣) » . وهـذا قول جـامع لكل احكام التوحيـد .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « اشرف كلمة فى التوحيد قول ابى بكر رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته(٤) » . وقد اخطأ العلماء فى هذه الكلمة فيخالون أن العجز عن المعرفة هو عدم المعرفة ، وهذا محال ، لأن العجز يكون فى الحال الموجود ولا يكون فى الحال المعدوم ، كالميت فهو لا يكون عاجزا فى الحياة ويكون عاجزا فى الموت ، مع استحالة اسم العجز والقوة . والأعمى لا يكون عاجزا عن البصر ، لأنه فى العمى يعجز عن الرؤية . والمقعد لا يكون عاجزا عن القيام ، لأنه عاجز عن القيام فى القعود . وكذلك العارف فهو لا يكون عاجزا والمعرفة موجودة ، ويكون هذا كضرورة . وعلى هذا نحمل قول الصديق رضى الله عنـه .

---

(١) ورد فى اللمع (انظر ص ١٣٢) .
(٢) ورد فى اللمع : « لى مع الله وقت لا يسعنى فيـه شىء غير الله عز و جل »(انظر ص ١٦١) .
(٣) ورد فى الرسالة : (انظر جـ ٢ ص ٥٨٥) .
(٤) ورد فى اللمع (ص ٥٧) والرسالة (جـ ٢ ص ٥٨٥) .

وقد قال أبو سهل الصعلوكى والأستاذ أبو على الدقائق رحمهما الله : ان المعرفة تكون كسبا فى البداية ، وتصير ضرورة فى النهاية . والعلم بالضرورة هو ما يكون صاحبه مضطرا وعاجزا عن دفعه وجلبه فى حال وجوده ، فبهذا القول يكون التوحيد فعلا للحق تعالى وتقدس فى قلب العبد .

ويقول الشبلى أيضا رحمه الله : « التوحيد حجاب الموحد عن جمال الأحدية » . لأنه اذا قيل أن التوحيد فعل للعبد فلا محالة ان فعل العبد لا يصير علة لكشف جلال الحق فى عين الكشف ، لأن كل ما يصير علة للكشف يكون حجابا ، والعبد بكل أوصافه غير ؛ فاذا عد صفته : الحق ، فللصفة لا محالة موصوف ، ويجب أن يعد صفته الحق أيضا ، وعندئذ يصير الموحد والتوحيد والأحد ثلاثتهم جميعا وجودا لأحدهم الآخر ، وهذا ثالوث النصارى بعينه . وما دامت اية صفة لا تكون مانعة للطالب عن فنائه فى التوحيد ، فانه يكون ما يزال محجوبا بتلك الصفة ، وما دام محجوبا فهو ليس بموحد ، « لأن ما سواه من الموجودات باطل » . فاذا صح أن كل ما سواه باطل ، وأن الطالب سواه ، فان صفة الباطل تكون باطلة فى كشف جمال الحق ، وهذا تفسير : « لا اله الا الله » .

ومعروف فى الحكايات انه حين ذهب ابراهيم الخواص رضى الله عنه الى الكوفة لزيارة الحسين بن منصور ، قال له : يا ابراهيم ! فيم قضيت وقتك ؟ قال : لقد قومت نفسى على التوكل . فقال الحسين : « ضيعت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد(١) ؟ » .

وللمشايخ رحمهم الله كلام كثير فى التعبير عن التوحيد ، فقد قالت طائفة انه الفناء ، لأنه لا يصح الا فى بقاء الصفة . وقالت طائفة ان التوحيد ليس الا فناء صفة النفس ، ويجب جعل قياس هذا على الجمع والتفرقة ليصير معلوما .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : ان التوحيد سر من الحق الى العبد ، وهو لا يتضح بالعبارة حتى يزخرفه أحد بالعبارات المزخرفة ، لأن العبارة والمعبر غير ، واثبات الغير فى التوحيد اثبات للشريك ، وعندئذ يصير ذلك لهوا ، والموحد الهى وليس بلاه .

هذه هى احكام التوحيد ومسلك ارباب المعرفة فيه ، على سبيل الاختصار، وبالله العون والعصمة .

---

(١) هذه الحكاية مكررة (انظر ص ٤٣٦) .

كشف الحجاب الثالث
في الايمـــان

قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا آمنوا(١) » ، وقال ايضا في مواضع اخرى كثيرة : « يا ايها الذين آمنوا » .

وقال النبي عليه السلام : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر(٢) » .

والايمان من وجه اللغة هو التصديق . وللناس في اثبات حكمه في الشريعة كلام كثير ، واختلاف لا يحصى .

والمعتزلة يقولون لجملة الطاعات العلمية والعملية : الايمان ، ولذا يخرجون العبد بالذنب من الايمان . والخوارج يقولون عين هذا ، ويقولون للعبد كافرا ، بالذنب الذي يرتكبه .

وتقول طائفة اخرى ان الايمان قول فقط ، وتقول طائفة انه معرفة فقط ، ويقول فريق من متكلمي اهل السنة انه التصديق المطلق . وقد الفت في بيان هذا كتابا مستقلا ، والمراد هنا اثبات اعتقاد مشايخ المتصوفة ، وجمهورهم في الايمان على قسمين ، كما أن الفقهاء فريقان ، فجماعة مثل : الفضيل بن عياض وبشر الحافي وخير النساج وسمنون المحب وابي حمزة البغدادي و (ابي) محمد الجريري ، رضوان الله عليهم ، وكثير غيرهم يقولون ان الايمان هو القول والتصديق والعمل . وجماعة يقولون ان الايمان هو القول والتصديق ، مثل : ابراهيم بن ادهم وذي النون المصري وابي يزيد البسطامي وحاتم الأصم وابي سليمان الداراني والحارث المحاسبي والجنيد وسهل بن عبد الله التستري وشقيق البلخي ومحمد بن الفضل البلخي وغيرهم ، رضوان الله عليهم اجمعين . وجماعة آخرون من فقهاء الأمة مثل مالك والشافعي واحمد بن حنبل وجماعة غيرهم على القول الأول ، وايضا ابو حنيفة والحسين بن الفضل البلخي واصحاب ابي حنيفة مثل : محمد بن الحسن وداود الطائي وابي يوسف رحمهم الله على القول الثاني . وهذا الخلاف في الحقيقة يرجع الى العبارة لا الى المعنى .

---

(١) سورة « النساء » آية ١٣٦ .

(٢) رواه مسلم ، والبيهقي في شعب الايمان عن عمر ، وقال عنه صحيح (مختصر شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١٢) .

وابين الآن هذا المعنى بطريق الاختصار ، ليصير معلوما لك ، حتى لاتقول لاحد بهذا الخلاف انه مخالف للأصل فى الايمان ، ان شاء الله .

فصل : اعلم انه من المتفق عليه بين اهل السنة والجماعة ؛ واهل التحقيق والمعرفة أن للايمان اصلا وفرعا . واصله : التصديق بالقلب ؛ وفرعه: مراعاة الأمر . والعرب عادة يسمون فرع الشيء على وجه الاستعارة باسم الاصل مثلما يسمون نور الشمس فى جميع اللغات بالشمس . وبهذا المعنى يسمى فريق الطاعة ايمانا ، لأن العبد لا يصير آمنا من العقوبة الا بها . والتصديق المجرد لا يقتضى الأمن ما لم يؤد (العبد) احكام الأمر ؛ فكل من تكون طاعته أوفر ؛ يكون امنه من العقوبة اكثر ؛ ولما صار ذلك علة للأمن بالتصديق والقول سموه ايمانا .

ثم ان فريقا آخر قالوا : ان علة الأمن المعرفة لا الطاعة ؛ فمهما حصلت الطاعة فانه حين لا تكون المعرفة لا تجدى الطاعة ؛ وحين توجد المعرفة فانه اذا لم تكن الطاعة فان العبد ينجو أخيرا ، ولو ان حكمه يكون فى المشيئة : فاما ان يتجاوز الله عز وجل عن زلته بالفضل ، او يغفر له بشفاعة النبى عليه السلام ؛ او يعذبه بمقدار جرمه ثم يبعث به الى الجنة ؛ فهم حين يكونون اصحاب المعرفة فانهم ؛ وان يكونوا مجرمين ؛ لا يخلدون فى النار ، بحكم المعرفة . واصحاب العمل لا يدخلون الجنة بالعمل المجرد بدون المعرفة ؛ فهنا صار معلوما أن الطاعة لم تجىء علة للأمن ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لن ينجو احدكم بعمله ، قيل ؛ ولا انت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا ، الا أن يتغمدنى الله برحمته(١) » .

فالايمان من وجه الحقيقة ، بلا خلاف بين الأمة ، هو المعرفة والاقرار والعمل . وكل من يعرف (الله) يعرفه بوصف من الأوصاف ، واخص اوصافه على ثلاثة اقسام : بعض يتعلق بالجمال ، وبعض يتعلق بالجلال ، وبعض يتعلق بالكمال . ولا سبيل للخلق الى كماله بدون أن يثبتوا له الكمال وينفوا عنه النقص . ويبقى هنا الجمال والجلال ، فمن يكن شاهده جمال الحق فانه يكون فى المعرفة مشتاقا دائما لرؤيته ، ومن يكن شاهده جلال الحق فانه ينفر دائما من أوصاف (نفسه) ، ويكون قلبه محل الهيبة ، فالشوق من تاثير المحبة ، وكذلك النفرة من اوصاف البشرية ، لأن كشف حجاب صفة

---

(١) مكـــرر .

البشرية لا يكون بغير عين المحبة ، فصار الايمان والمعرفة محبة . وعلامة المحبة الطاعة ، لأنه حين يكون القلب محل المحبة ، والعين محل الرؤية ، والروح محل العبرة ، والقلب موضع المشاهدة ، يجب أن لا يكون الجسد تاركا للأمر . ومن يكن تارك الأمر لا يكن جاهلا بالمعرفة . وهذه الآفة ظهرت فى هذا الزمان بين المتصوفة ، لأن فريقا من الملاحدة راوا جمالهم ، وعرفوا قدرهم ومنزلتهم ، فتشبهوا بهم وقالوا ان هذه المشقة الكثيرة من أنك لم تعرف ، فاذا عرفت ارتفع التكليف .

ونقول : لا ، بل اذا عرفت صار القلب محل التعظيم ، وازداد تعظيم الأمر . ونرى انه من الجائز أن يصل المطيع الى درجة ترتفع فيها عنه مشقة الطاعة ، ويزداد توفيقه فى اداء أمره ، الى درجة أن ما يؤديه الخلق بمشقة لا تكون له فى ادائه مشقة ، وهذا لا يمكن أن يكون الا بالشوق المقلق والمزعج.

ويقول فريق ان الايمان كله من الحق ، ويقول فريق آخر انه كله من العبد ، وقد طال هذا الخلاف بين الخلق بما وراء النهر ، فمن يقل انه كله منه (من الحق) يكن ذلك جبرا محضا ، لأنه يلزم أن يكون العبد فيه مضطرا ، ومن يقل انه كله منه (من العبد) يكن قدرا محضا ، لأن العبد لا يعرفه بغير اعلامه ، وطريق التوحيد دون الجبر وفوق القدر .

والايمان فى الحقيقة هو فعل العبد مقرونا بهداية الحق ، لأن من اضله (الله) لا يستطيع الاهتداء الى الطريق ، ومن هداه لا يضل « لقوله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا(١) » ، فعلى هذا الأصل ينبغى أن تكون الطاعة هداية الحق ، والايمان فعل العبد .

وعلامة الايمان على القلب : اعتقاد التوحيد ، وعلى العين : الحفظ من المنهيات والعبرة فى العلامات والآيات ، وعلى الأذن : استماع كلامه ، وعلى المعدة : التخلى عن محرماته ، وعلى اللسان : صدق القول ، وعلى الجسد : التعفف عن المنهيات ، لتوافق الدعوى المعنى . ولهذا استجاز ذلك الفريق الزيادة والنقصان فى الايمان .

---

(١) سورة « الأنعام » آية ١٢٥ .

والمتفق عليه بين الجميع انه لا يجوز الزيادة والنقصان فى المعرفة ، لأنه لو كانت المعرفة تزيد وتنقص ، لوجب أن يزيد المعروف وينقص ، وبما أن الزيادة والنقصان لا يجوزان على المعروف ، فانهما لا يجوزان أيضا على المعرفة ، لأن المعرفة الناقصة لا تكون معرفة ، فيجب أن تكون الزيادة والنقصان فى العمل والفرع . ومن المتفق عليه ان الزيادة والنقصان اللذين فى العمل والفرع يجوزان على الطاعة ، وذلك يصعب على قلوب الحشوية الذين ينتسبون الى الفريقين ، لأن فريقا من الحشوية يقولون ان الطاعة من جملة الايمان ، وفريقا آخر لا يرون الايمان الا القول المجرد ، وكلا هذين عدم انصاف .

وجملة القول : ان الايمان على التحقيق هو استغراق كل اوصاف العبد فى طلب الحق ، ويجب أن يكون اتفاق جميع المؤمنين على هذا ؛ لأن غلبة سلطان المعرفة قاهر لأوصاف الانكار ، وحيثما يكون الايمان تنتفى اسباب الانكار ، فقد قيل : « اذا طلع الصباح بطل المصباح » . وقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها(١) » ، فاذا حصلت حقيقة المعرفة فى قلب العارف فنيت ولاية الظن والشك والانكار ، وسخر سلطانها حواسه وهواه ، حتى يكون كل ما يفعله ويقوله وينظره فى دائرة الأمر .

ووجدت فى الحكايات أن ابراهيم الخواص سئل عن حقيقة الايمان ، فقال (للسائل) ليس عندى الآن لهذا جواب ، لأن كل ما اقوله يكون عبارة ، ويلزمنى ان اجيب بالمعاملة . ولكنى اقصد مكة ، وانت أيضا اصحبنى فى هذا الطريق على هذا العزم ، لتجد جواب مسألتك . قال : ففعلت هكذا ، فلما توغلت معه فى البادية كان يظهر فى كل ليلة قرصان وشربتا ماء ، فكان يعطينى واحدا ويأكل الآخر ، الى أن اقبل ذات يوم فى وسط البادية شيخ راكب ، فلما رآه ترجل عن جواده ، وسأل كل منهما الآخر (عن حاله) وتحدثا مدة ، وركب الشيخ وعاد . فقلت : أيها الشيخ ! قل لى من كان ذلك الشيخ ؟ قال : كان جواب سؤالك . قلت : كيف ؟ قال : ذلك كان الخضر النبى عليه السلام الذى كان يطلب صحبتى ، ولم أجبه لأنى خشيت فى تلك الصحبة أن اعتمد عليه دون الحق ، فيفسد توكلى ، وحقيقة الايمان حفظ التوكيل على الله عز وجل ، لقوله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين(٢) » .

---

(١) سورة « النمل » آية ٣٤ .
(٢) سورة « المائدة » آية ٢٣ .

ويقول محمد بن خفيف رحمه الله : « الايمان : تصديق القلب بما أعلمه من الغيب » . لأن الايمان بالغيب ، والله تعالى غائب عن العين ، ولا يمكن ايجاده فى يقين العبد الا بالقوة الالهية ، ولا يكون ذلك الا باعلام الله تعالى . وبما انه ــ « جل جلاله وعم نواله » ــ معرف العرفاء ، ومعلم العلماء ، لأنه خلق فى قلوبهم المعرفة والعلم ، وقطع حوالة ذلك عن كسبهم ، فان كل من صدق قلبه بمعرفة الحق يكون مؤمنا .

وبحكم أن لى كلاما كثيرا فى هذا الباب ، فى غير هذا الكتاب ، اكتفيت هنا بهذا القدر حتى لا يطول الكتاب . وأيضا اذا حصلت هداية الحق يكون هذا القدر كافيا .

والآن : فلنمض الى سر المعاملات ، ولنكشف حجبها ليكون للطالبين فوائد ان شاء الله .

كشف الحجاب الرابع
في الطهارة

أول شيء يفرض على العبد بعد الايمان هو الطهارة لأداء الصلاة ، وتلك طهارة البدن من النجاسة والجنابة ، وغسل الأعضاء الثلاثة ، ومسح الراس اتباعا للشريعة ، أو التيمم فى حال فقد المـاء أو شـدة المرض ، أو الخوف من المرض كما هو معلوم من احكام هذا .

واعلم ان الطهارة على نوعين : احدهما طهارة الظاهر ، والآخر طهارة القلب ، فكما أن الصلاة لا تصح بدون طهارة البدن ، فان المعرفة لا تصح بدون طهارة القلب . فيلزم لطهارة البدن الماء المطلق ، ولا يجوز المـاء المشوب أو الملوث او المستعمل ، ويلزم لطهارة القلب التوحيد المحض ، ولا يليق بالاعتقاد المختلط والمشوش ، فهذه الطائفة يكونون دائما على الطهارة بالظاهر ، وعلى التوحيد بالباطن ، « كما أمر النبى عليه السلام : داوم على الوضوء يحببك حافظاك » ، وقوله تعالى : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(١) » ، فكل من يداوم على الطهارة بالظاهر تحبه الملائكة ، وكل من يقوم على التوحيد بالباطن يحبه الله تعالى .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول دائما : « اللهم طهر قلبى من النفاق(٢) » ولم يكن النفاق يتأتى فى قلبه بحال من الأحوال ، ولكن رؤيته لكراماته كانت تبدو له اثباتا للغير ، واثبات الغير نفاق فى محل التوحيد . ومهما جعلوا ذرة من كرامات المشايخ كحلا لأعين المريدين ، فقد كانت فى النهاية — فى محل كمالها — حجابا للمكرم ، لأن ما يكون غيرا تكون رؤيته آفة ، سواء رأى نفسه أو رأى غيره ، ولذلك قال ابو يزيد رضى الله عنه : « نفاق العارفين أفضل من اخلاص المريدين » . اى أن كل ما يكون مقاما

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .

(٢) « اللهم طهر قلبى من النفاق وعملى من الرياء ولسانى من الكذب وعينى من الخيانة فانك تعلم خائنـة الأعين وما تخفى الصـدور » رواه البخارى والطبرانى عن أم معبد الخزاعية وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصـغير جـ ١ ص ١٠١) .

للمريد يكون حجابا للكامل ، فهمة المريد أن يجد الكرامات ، وهمة الكامل أن يجد المكرم .

وفى الجملة فان اثبات الكرامات يبدو لأهل الحق نفاقا ، لأن ذلك معاينة للغير ، فآفة أحباء الله تكون خلاصا لأهل المعصية من المعصية ، وآفة أهل المعصية تكون نجاة لكل أهل الضلالة من الضلالة ، لأنه لو كان الكفار يعرفون أن معصيتهم مكروهة من الله عز وجل ، كما يعرف العصاة ، لنجوا جميعا من الكفر . ولو كان العصاة يعرفون أن جميع معاملاتهم محل للعلة ، كما يعرف الأحبة ، لنجوا جميعا من المعصية ، ولتطهروا من جميع الآفات .

فيلزم اذن أن تكون طهارة الظاهر موافقة لطهارة السر . اى انه عندما يغسل اليد ، يجب أن يغسل القلب من حب الدنيا . وحين يستنجى ، فكما انه طلب النجاة من نجاسة الظاهر ، يطلب النجاة من محبة الغير بالباطن . وحين يجعل الماء فى فمه فانه يجب أن يخلى فمه من ذكر الغير . وحين يستنشق يجب أن يحرم على نفسه رائحة الشهوات . وعندما يغسل الوجه فانه يجب عليه ان يعرض عن جميع المألوفات كلية ، ويقبل على الحق . وعندما يغسل اليدين يجب ان يقطع تصرفه عن جمع انصبة نفسه . وعندما يمسح الراس يجب ان يسلم اموره للحق . وعندما يغسل القدم يجب ايضا أن لا ينوى الاقامة على غير حق امر الله تعالى ، لتتأتى له الطهارتان ، لأن جميع امور الشرع الظاهرة مرتبطة بالباطن ، مثل الايمان ، فهو قول باللسان فى الظاهر ، وتصديق بالقلب فى الباطن . وحقيقة النية بالقلب وأحكام الطاعة على الجسد ، فطريق الطهارة هو التفكر والتدبر فى آية الدنيا والدين ، لأن الدنيا دار غدارة ومحل الفناء ، ولا يخلو القلب منها الا بالمجاهدات الكثيرة . واهم المجاهدات : حفظ آداب الظاهر ، والمحافظة عليها فى جميع الاحوال .

ويرد عن ابراهيم الخواص رحمه الله انه قال : يلزمنى من الله عمر الأبد فى الدنيا لينشغل جميع الخلق فى نعم الجنة وينسوا خدمة الحق ، واقوم انا فى بلاء الدنيا بحفظ آداب الشريعة ، واذكر الحق .

ويرد عن ابى طاهر الحرمى انه كان مجاورا فى مكة اربعين عاما ، ولم يتطهر فى مكة ، وكان فى كل مرة يخرج من مكة خارج حدود الحرم للطهارة ، ويقول : اننى اكره ان اصب على الأرض التى اضافها الله الى نفسه ماء استعملته .

ويرد عن ابراهيم الخواص انه كان مبطونا فى جامع الرى ، وكان قد اغتسل فى يوم وليلة ستين مرة ، وفى النهاية كانت وفاته فى وسط الماء(١) .

وابتلى أبو على الرودبارى رحمه الله ببلاء الوسواس فى الطهارة ، قال : ذات ليلة نزلت فى الماء فى وقت السحر وبقيت حتى طلوع الشمس ، وكنت فى ذلك الوقت مريضا بقلبى ، وقلت : اللهم اسألك العافية ! فصاح هاتف : ان العافية فى العلم .

ويرد عن سفيان الثورى رحمه الله أنه تطهر لصلاة واحدة ستين مرة ، أثناء مرضه فى حال رحيله عن الدنيا ، وقال : لكى اكون طاهرا عندما ياتى الامر .

ويقال ان الشبلى رحمه الله تطهر يوما بقصد الذهاب الى المسجد ، فسمع هاتفا يقول : غسلت الظاهر ، فأين صفاء الباطن ؟ قال : فعدت ووهبت كل ملكى وميراثى ، ولم البس طوال سنة الا ذلك القدر من الثياب الذى تجوز به الصلاة ، ثم ذهبت الى الجنيد فقال لى رضى الله عنه : يا أبا بكر ! لقد كانت طهارة مفيدة جدا تلك التى فعلتها ، فليجعلك الله دائما طاهرا . وقال انه من بعد ذلك لم يكن ابدا بدون طهارة ، الى حد انه حين هم بالذهاب من الدنيا وقع نقص فى طهارته ، فأشار الى مريد أن : طهرنى ! فطهره ، ونسى أن يخلل لحيته — ولم يكن فى ذلك الوقت يستطيع الكلام — فأمسك بيد المريد واشار الى لحيته فخللها(٢) .

ويرد عنه أنه قال : لم اترك فى اى وقت أدبا من آداب الطهارة ، فلم يظهر فى باطنى عجب .

ويرد عن أبى يزيد رحمه الله أنه قال : كلما يمر على قلبى التفكير فى الدنيا اتطهر ، وعندما تمر فكرة العقبى اغتسل ، لأن الدنيا محدثة والتفكير فيها يكون حدثا ، والعقبى محل الغيبة ، والراحة معها جنابة ، ويجب الطهارة من الحدث ، والاغتسال من الجنابة .

ويرد عن الشبلى رحمه الله أنه تطهر يوما ، فلما دخل المسجد نودى فى سره أن : يا أبا بكر ! هل تطهرت الطهارة التى تجعلك تدخل بيتى بهذه

---

(١) وردت فى ترجمته فى طبقات الصوفية اشارة الى هذا (انظر : طبقات الصوفية ص ٢٨٤) .
(٢) وردت فى اللمع اشارة الى هذا على لسان بكران الدينورى (انظر ص ٢٨١) .

الجراة ؟ ولمـا سمع ذلك رجـع ، فنودى : أتتحول عن عتبتى ! الى أين ستذهب ؟ فصرخ ، فنودى : انك تشنع علينا ، فوقف صامتا ، فنودى : انك تدعى تحمل بلائنا ، فصاح قائلا : « المستغاث بك منك ! » .

ولمشايخ هذه الطريقة رحمهم الله أقوال كثيرة فى تحقيق الطهارة ، وقد أمروا المريدين بالمداومة على طهارة الظاهر والباطن حين يقصدون أعتاب الحق ، فحين يقصد شخص الخدمة بالظاهر يجب أن يطهر الظاهر ، وحين يقصد القربى بالباطن يجب أن يطهر الباطن . وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة والرجوع الى حضرة الله تعالى .

والآن : اشرح حكم التوبة وما يتعلق بها ، لتعلم لك حقيقتها ، ان شاء الله .

باب التوبة وما يتعلق بها :

اعلم إن التوبة أول مقام لسالكى طريق الحق ، كما ان الطهارة أول درجات طالبى الخدمة ، « كما قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا(١) » ، وقال أيضا : « وتوبوا الى الله جميعا(٢) » .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شىء أحب الى الله من شاب تائب(٣) » ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له(٤) » ، ثم قال : اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب(٥) ، ثم تلا : « ان الله يحب التوابين(٦) » . وقالوا : ما علامة التوبة ؟ قال : النـدامة .

أما ما قاله من أن الذنب لا يضر الأحبة ؛ فيعنى أن العبد لا يكفر بالذنب ،

---

(١) سورة « التحريم » آية ٨ .
(٢) سورة « النور » آية ٣١ .
(٣) رواه أبو المظفر السمعانى فى أماليه عن سلمان (مختصر شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٥٥) .
(٤) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود (مختصر شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٩) .
(٥) رواه القشيرى فى الرسالة وابن النجار عن انس .
(٦) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .

ولا يتأتى فى ايمانه ضرر . وحين لا يضر الذنب الأصل ، فان ضرر المعصية التى عاقبتها النجاة ، لا يكون ضررا فى الحقيقة .

واعلم أن التوبة فى اللغة بمعنى الرجوع ، على نحو ما يقال : « تاب » اى « رجع » ، فالرجوع عما نهى الله عنه الى الطيب من امر الله تعالى هو حقيقة التوبة .

والنبى عليه السلام قال : « الندم توبة(١) » ، وهذا لفظ جامع مودعة فيه كل شروط التوبة ؛ لأن أول شرط للتوبة هو الأسف على المخالفة ، والشرط الثانى : ترك الزلة فى الحال ، والثالث : العزم على عدم الرجوع الى المعصية ، وهذه الشروط الثلاثة مرتبطة بالندم ، لأنه عندما يحدث الندم فى القلب يكون الشرطان الآخران تابعين له .

وكما أن للتوبة شروطا ثلاثة ، فان للندم أسبابا ثلاثة ، الأول : انه عندما يستولى خوف العقوبة على القلب ويتأتى الحزن على الفعال السيئة فى القلب ، يحدث الندم . والثانى : أنه عندما تستولى الرغبة فى النعمة على القلب ، ويعرف انها لا تتأتى بالفعل السىء والمعصية ، فانه يندم لذلك على امل ان يجدها . والثالث : انه يخجل من الله ، ويندم على المخالفة . فواحد من هؤلاء الثلاثة تائب ، وواحد منيب ، وواحد أواب .

وللتوبة مقامات ثلاثة ، أولها : التوبة ، والثانى : الانابة ، والثالث : الأوبة . فالتوبة : الخوف من العقاب ، والانابة : لطلب الثواب ، والأوبة : لرعاية الأمر ، لأن التوبة مقام عامة المؤمنين ، وتكون من الكبيرة ، « لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » . والانابة مقام الأولياء والمقربين ، لقوله تعالى : من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب(٢) » . والاوبة مقام الأنبياء والمرسلين ، « لقوله تعالى : نعم العبد انه أواب (٣) » .

فالتوبة : الرجـــوع عن الكبائر الى الطاعة ، والانابة : الرجـــوع عن الصغائر الى المحبة ، والأوبة : الرجوع عن النفس الى الله تعالى . والفرق

---

(١) رواه احمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٨٦) .
(٢) « سورة ق » آية ٣٣ .
(٣) سورة « ص » آية ٣٠ .

ظاهر بين من يرجع عن الفواحش الى الأوامر ، ومن يرجع عن اللمم والوهم الى المحبة ، وبين من يرجع عن نفسه الى الحق .

واصل التوبة ان تكون من زواجر الحق ، واستيقاظ القلب من نوم الغفلة، ورؤية عيب الحال . وحين يتفكر العبد فى سوء أحواله ، وقبح أفعاله ، ويتخلص من ذلك ، يسهل عليه الحق تعالى اسباب التوبة ، ويخلصه من شؤم المعصية ، ويبلغه حلاوة الطاعة .

ويجوز عند أهل السنة والجماعة وكل مشايخ المعرفة ان يتوب الشخص عن ذنب واحد ، ويذنب ذنوبا أخرى ، ويثيبه الله على ذلك الذنب الذى رجع عنه ، وربما يرده عن الذنوب الأخرى ببركة ذلك ، مثل شخص سكير وزان : يتوب عن الزنا ، ويصر على شرب الخمر ، فتكون توبته من الذنب الأول صحيحة ، مع ارتكابه للذنب الثانى .

والبهشمية(١) من المعتزلة يقولون ان اسم التوبة لا يصح الا على الشخص الذى يجتنب جميع الكبائر . وهذا القول محال ، لأن الشخص يعاقب على كل المعاصى التى يرتكبها ، وحين يترك نوعا من المعاصى فانه يأمن من العقوبة عليه ، فلا محالة من أن يكون بذلك تائبا . وايضا اذا كان شخص يؤدى بعض الفرائض ويمتنع عن البعض ، فلا محالة من ان يثاب بما يعمله ، كما انه يعاقب على ما يتركه . وحين لا تكون لأحد آلة المعصية ولا تتهيأ له اسبابها ويتوب عنها فانه يكون تائبا — لأن للتوبة ركنا هو الندامة — ولانه بتلك التوبة تحصل له الندامة على الماضى ، وهو معرض فى الحال عن ذلك الجنس من المعصية ، وعازم على أنه اذا وجدت الآلة وتهيأت الأسباب فانه لن يعود أبدا الى هذه المعصية .

---

(١) « البهشمية » : هم اتباع ابى هاشم بن الجبائى ، ويقال لهم : الذمية لقولهم : باستحقاق الذم والعقاب لا على فعل ، وانه سمى من لم يفعل ما أمر به عاصيا وان لم يفعل معصية ، ولم يوقع اسم المطيع الا على من فعل الطاعة ، وزعم أن المكلف لو تغير تغيرا قبيحا يستحق بذلك قسطين من العذاب . وسائر المعتزلة يكفرونه فى هذه المواضع الثلاثة . ومن قوله فى التوبة انها لا تصح من ذنب مع الاصرار على قبيح آخر يعلمه قبيحا أو يعتقده قبيحا وان كان حسنا . وقوله فى التوبة أيضا أنها لا تصح عن الذنب بعد العجز عن مثله .

(انظر : الفرق بين الفرق ص ١١١ — ١١٥).

والمشايخ مختلفون فى وصف التوبة وصحتها ، وسهل بن عبد الله ومعه جماعة رحمهم الله على أن « التوبة ان لا تنسى ذنبك » ، وتخجل منه دائما حتى اذا ما عملت أعمالا كثيرة لا تعجب بذلك ، لأن الحسرة على العمل السيء تكون مقدمة للأعمال الصالحة . والشخص الذى لا ينسى الذنب لا يعجب بنفسه أبدا .

والجنيد أيضا ومعه جماعة رحمهم الله على أن « التوبة أن تنسى ذنبك »، لأن التائب يكون محبا ، والمحب يكون فى المشاهدة ، وذكر الجفاء فى المشاهدة جفاء ، فيكون أوقاتا مع الجفاء ، وأوقاتا مع ذكر الجفاء ، وذكر الجفاء حجاب عن الوفاء. ومرجع هذا الخلاف مرتبط بالخلاف فى المجاهدة والمشاهدة، ويجب طلب هذا فى مذهب السهليين ، فمن يقل ان التائب قائم بنفسه ، ير نسيان ذنبه غفلة ، ومن يقل انه قائم بالحق ، يبد له ذكر الذنب شركا .

وفى الجملة : اذا كان التائب باقى الصفة ، فان عقدة أسراره لا تكون قد حلت ، واذا كان فانى الصفة ، فلا يصح له ذكر الصفة ، فموسى عليه السلام قال : « تبت اليك » فى حال بقاء الصفة ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحصى ثناء عليك » فى حال فناء الصفة .

وجملة القول : ان ذكر الوحشة فى محل القرب يكون وحشة ، ويلزم للتائب الا يذكر نفسه ، فكيف يذكر ذنبه ؟ . وفى الحقيقة ان ذكر الذنب ذنب ، لأنه محل الأعراض ، وكما أن الذنب محل الاعراض ، فان ذكره أيضا يكون محل الاعراض ، وكذلك ذكر غيره . وكما أن ذكر الجرم يكون جرما ، فان نسيانه أيضا يكون جرما ، لأن تعلق الذكر والنسيان كلاهما مرتبط بك أيضا .

قال الجنيد رحمه الله : قرأت كتبا كثيرة فلم أفد منها بقدر ما أفدت من هذا البيت :

(شعر عربى)

اذا قلت ما اذنبت قالت مجيبة   حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

ولما كان وجود المحب فى حضرة الحبيب يكون جناية ، فأية قيمة تكون لوصفه ؟

وفى الجملة : ان التوبة تأييد ربانى ، والمعاصى فعل جسمانى ، فاذا حلت الندامة فى القلب ، لا تبقى على الجسد اية آلة تدفع

ندامة القلب . ولما لم يكن فعله(١) فى البدايـــة دافعا للتوبة ، فانها حين جاءت(٢) ، لا يكون فعله فى النهاية أيضا حافظا للتوبة . وقال الله عز وجل: « فتاب عليه انه هو التواب الرحيم(٣) » . ولهذا نظائر كثيرة فى نص الكتاب الى حد أنها لشهرتها لا توجد حاجة لاثباتها .

فالتوبة على ثلاثة انواع : واحدة من الخطأ الى الصواب ، والثانية من الصواب الى الأصوب ، والثالثة من النفس الى الحق . وتكون من الخطأ الى الصواب « لقوله تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم(٤) » الآية . ومن الصواب الى الأصوب ما قاله موسى عليه السلام : « تبت اليك(٥) » . ومن النفس الى الحق ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وانه ليغان على قلبى ، وانى لاســتغفر الله فى كل يوم سبعين مرة(٦) » .

وارتكاب الخطأ قبيح ومذموم ، والرجوع من الخطأ الى الصواب طيب ومحمود ، وهذه توبة العامة ، وحكم هذا ظاهر ، وطالما كان الأصوب ، فان الاستقرار مع الصواب وقفة وحجاب . والرجوع من الصواب الى الأصوب محمود فى درجة اهل الهمة ، وهذه توبة الخواص ، ومحال أن يتوب الخواص من المعصية : ألم تر ان كل العالم كانوا يحترقون فى حسرة رؤية الله ، وتاب عنها موسى عليه السلام ، لأنه طلب الــرؤية باختياره ، والاختيار فى المحبة آفة ، وتركه آفة اختياره بدا للخلق تركا للرؤية ؟ والرجوع من النفس الى الحق يكون فى درجة المحبة ، فيتوب من الوقوف على المقام العالى ، كمـــا يتوب من آفة المقام الأعلى ، ويتوب أيضا من رؤية المقامات والأحوال ،

---

(١) اى : فعل العبد .
(٢) اى : حين جاءت التوبة .
(٣) سورة « البقرة » آية ٣٧ .
(٤) سورة « آل عمران » آية ١٣٥ .
(٥) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٦) عن أغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم فوالله انى لأتوب الى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

مثلما كانت مقامات المصطفى عليه السلام فى ترق كل لحظة ، فانه حينما كان يصل الى مقام اعلى ، كان يستغفر من المقام الأدنى ، ويتوب من رؤية ذلك المقام . والله أعلم بالصواب .

فصــــل : اعلم انه ليس للتوبة شرط التأييد من بعد أن يصح العزم على عدم الرجوع الى المعصية . واذا وقعت للتائب فترة(١) وعاد الى المعصية ، من غير ان يصح عزمه على الرجوع ، يكون قد ادرك حكم التوبة وثوابها عن الأيام التى مرت . وقد كان من المبتدئين والتائبين من هذه الطائفة من تابوا وحدثت لهم فترة وعادوا الى الفساد ، ثم رجعوا الى أعتاب الله بحكم تنبيه، حتى أن واحدا من المشايخ رحمهم الله قال : تبت سبعين مرة ثم رجعت الى المعصية ، حتى وجدت الاستقامة فى المرة الحادية والسبعين .

وقال أبو عمرو بن نجيد(٢) رضى الله عنه : تبت أول مرة فى مجلس أبى عثمان الحيرى ، وبقيت على ذلك مدة ، ثم ظهر فى قلبى داع للمعصية فتابعته ، واعرضت عن صحبة ذلك الشيخ . وكنت حيثما أراه من بعيد اهرب من الخجل حتى لا يرانى . والتقيت به يوما فجأة فقال لى : يا بنى ! لا تصاحب اعداءك الا أن تكون معصوما ، لأن العدو يرى عيبك . وعندما تكون معيوبا يفرح العدو ، وحين تكون معصوما يحزن . واذا لزمك أن تفعل معصية ، فتعال الينا لنحمل بلاءك ، حتى لا تكون كما يهوى العدو . قال : فسئم قلبى المعصية ، وصحت توبتى .

وسمعت أيضا أن واحدا تاب من المعاصى ورجع اليها ثانية ، ثم ندم وقال لنفسه يوما : اذا عدت الى الحضرة فكيف يكون حالى ؟ فصاح به هاتف أن: « أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، فان عدت الينا قبلناك » .

---

(١) اى : عودة الى ما كان عليه قبل التوبة .

(٢) هو اسماعيل بن نجيد بن احمد بن يوسف بن سالم بن خالد السلمى، جد أبى عبد الرحمن السلمى لأمه . صحب أبا عثمان الحيرى ، ولقى الجنيد، وكان من أكبر مشايخ وقته . مات سنة ست وستين وثلثمائة (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٥٤ ، الرسالة جـ ١ ص ١٧١ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٥ ، تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٢٦٢ ، نفحات الانس ص ٢٢٧).

والآن ، نعود الى اقاويل المشـايخ رضى الله عنهم .

فصـــل : يقول ذو النـــون المصرى : « توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة(١) » . لأن العوام يسألون عن ظاهر الحال ، والخواص عن تحقيق المعاملة ، لأن الغفلة للعوام نعمة ، وللخواص حجاب .

ويقول ابو حفص الحداد رحمه الله : « ليس للعبد فى التـــوبة شىء لأن التوبة اليه لا منه(٢) » . وبهذا القول يجب الا تكون التوبة من كسب العبد، لأنها موهبة من مواهب الحق سبحانه وتعالى . وهذا القول يتعلق بمذهب الجنيـــد .

ويقول ابو الحسن البوشنجى فى التوبة : « اذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فهو التوبة » . لأن ذكر المعصية اما أن يكون بحسرة أو برغبة ، فاذا ذكر احد المعصية بالحسرة والندم يكون تائبـــا ، وكل من يذكر معصيته برغبة يكون عاصيا ، فليس فى فعل المعصية من الآفة بقـــدر ما فى الرغبة فيها ، لأن فعل المعصية يكون لفترة ، أما الرغبة فيها فدائمة ، فمن يكن مع المعصية ساعة بجسده لا يكن كمن يصاحبها ليل نهار بقلبه .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « التوبة توبتان : توبة الانابة ، وتوبة الاســـتجابة ، فتـــوبة الانابة : ان يتوب العبد خوفا من عقـــوبته ، وتوبة الاستجابة : ان يتوب حياء من كرمه(٣) » . وتولد الخوف يكون من كشف الجلال ، وتولد الحياء يكون من رؤية الجمال ، فواحد فى الجلال يحترق من نار خوفه ، وواحد فى الجمال يضىء من نور حيائه : واحد فى سكره ، والآخر مدهوش . واهل الحياء اصحاب سكر ، وأهل الخوف اصحاب صـــحو ، والكلام فى هذا طويل ، وقد اختصرته خوف الاطالة ، وبالله العون والعصمة، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٦٨) ، وفى الرســـالة (انظـــر جـ١ ص ٢٦٠) .

(٢) ورد بنصه فى الرسالة (انظر جـ ١ ص ٢٦٢) .

(٣) ورد هذا القول بنصه فى الرسالة مســـندا الى ابن عطاء (انظـــر الرســـالة جـ ١ ص ٢٦١) .

كشف الحجاب الخامس
في الصلاة

« قوله تعالى : واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(١) » . « وقوله عليه السلام : الصلاة وما ملكت أيمانكم(٢) » .

والصلاة فى اللغة بمعنى الذكر والانقياد ؛ وهى فى جريان عبارات الفقهاء عبارة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة . وهى أمر من الحق تعالى أن : اقيموها خمس مرات . ولها شروط قبل الدخول فيها ، أولها : الطهارة من النجاسة فى الظاهر ، ومن الشهوة فى الباطن . والثانى : طهارة الثوب من النجاسة فى الظاهر ؛ وان يكون من وجه الحلال فى الباطن . والثالث : طهارة الروح من الحوادث والآفات فى الظاهر ، ومن الفساد والمعصية فى الباطن . والرابع : استقبال القبلة ، فقبلة الظاهر الكعبة ، وقبلة الباطن العرش ، وقبلة لسر المشاهدة . والخامس : قيام الظاهر فى حال القدرة ، وقيام الباطن فى روضة القربة ، بشروط دخول وقتها فى ظاهر الشريعة ، ودوام وقتها فى درجة الحقيقة . والسادس : خلوص النية فى استقبال الحضرة . والسابع : التكبير فى مقام الهيبة ، والقيام فى محل الوصلة ، والقراءة بترتيل وعظمة ، والركوع بخشوع ، والسجود بتذلل ، والتشهد باجتماع ، والسلام بفناء الصفة ، كما جاء فى الخبر عن النبى عليه السلام : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى وفى جوفه أزيز كأزيز المرجل » .

وعندما كان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقصد الصلاة كان شعره يخرج من ثوبه ؛ وتعروه رعدة ، ويقول : جاء وقت قضاء الأمانة التى عجزت السماوات والأرضون عن حملها .

ويقول واحد من المشايخ : سألت حاتما الأصم ، رحمة الله عليه ، كيف تصلى ؟ قال : حين يدخل الوقت اتوضأ وضوءا ظاهريا وآخر باطنيا : الظاهرى

---

(١) سورة « البقرة » آية ٤٣ .
(٢) رواه أحمد والنسائى وابن حبان عن أنس ، والطبرانى عن ابن عمر (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٨٢) .

بالمـــاء ، والباطنى بالتوبة . ثم ادخل المسجد ، واجعل المسجد الحـــرام شاهدى ، واضع مقام ابراهيم بين عينى(١) ، وارى أن الجنة عن يمينى ، والنار عن يسارى ، والصراط تحت قدمى ، وملك الموت خلفى ، وعندئذ أكبر بتعظيم ، واقوم بحرمة ، واقرأ بهيبة ، واسجد بتضرع ، واركع بتواضع ، واجلس بحلم ووقار ، واسلم بالشكر . وبالله العون .

فصل : اعلم ان الصلاة عبادة يجد فيها المريدون طريق الحق من البداية الى النهاية ، وتتكشف فيها مقاماتهم : فالطهارة للمريدين فى مكان التوبة ، والتعلق بشيخ فى مكان التوجه الى القبلة ، والقيام بمجاهدة النفس فى مكان القيام ، ودوام الذكر فى مكان القراءة ، والتواضع فى مكان الركوع ، ومعرفة النفس فى مكان السجود ، والتشهد فى مكان مقام الأنس ، والسلام فى مكان التفريد من الدنيا والخروج من قيد المقامات ، ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان ينقطع عن كل المشـــارب ، كان يطلب الشوق فى محل كمال الحيرة ، ويتعلق بالمشرب ، وعندئذ كان يقول : « أرحنا يابلال بالصلاة » .

وللمشايخ رضى الله عنهم كلام فى هذا ، ولكل درجة ، فجماعة يقولون ان الصـــلاة آلة الحضور ، وجماعة يقولون انها آلة الغيبة ، فمن كانوا غائبين حضروا فى الصلاة ، ومن كانوا حاضرين غابوا فى الصلاة ، كما هو الحال فى الآخرة فى محل الرؤية ، فمن يروا الله يكونوا غائبين فيحضروا ، ومن يكونوا حاضرين يغيبوا .

وانا على بن عثمان الجلابى اقول ان الصلاة امر ، لا آلة حضور ولا آلة غيبة ، لأن الامر لا يكون آلة لأى شىء ، فعلة الحضور تكون عين الحضور ، وعلة الغيبة تكون عين الغيبة ، وليس لأمر الله سبحانه وتعالى علاقة بأى سبب ، لأنه لو كانت الصلاة علة الحضور وآلته للزم أن تجعل الغائب حاضرا ، ولو كانت علة الغيبة وآلتها لحضر الغائب بتركها ، وبما انه ليس للغـــائب والحاضر عذر لتركها ، فهى نفسها فى ذاتها سلطان وليست مرتبطة بالغيبة والحضور .

فاهل المجاهدة واهل الاستقامة يكثرون الصلاة ، ويامرون بهذا . كذلك يأمر المشايخ المريدين بصلاة اربعمائة ركعة فى اليوم والليلة ، لتعويد الجسد على العبادة . واهل الاستقامة ايضا يصلون كثيرا لشكر القبول فى الحضرة . ويبقى هنا أرباب الأحـــوال وهم على نوعين : فجماعة اولئك الذين تكون

---

(١) فى الأصل : « بين حاجبى » .

صلاتهم فى كمال المشرب فى مكان مقام الجمع فيجتمعون بها ، وجماعه أولئك الذين تكون صلاتهم فى مكان مقام التفرقة فيتفرقون بها ، فأولئك الذين يكونون مجتمعين فى الصلاة يكونون ليل نهار فى الصلاة ، وهؤلاء الذين يكونون متفرقين يزيدون قليلا على الفرائض والسنن .

وقال الرسول عليه السلام : « جعلت قرة عينى فى الصلاة (١) » . أى أن كل راحتى فى الصلاة ، لأن مشرب اهل الاستقامة يكون فى الصـــلاة . وكان ذلك انه حين عرج بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبلغ درجة القرب، انقطعت نفسه عن الكون ، ووصلت الى تلك الدرجة التى كان فيها قلبه : فوصلت النفس الى درجة القلب ، والقلب الى درجة الروح ، والروح الى محل السر ، وفنى السر عن الدرجات ، ومحى عن المقامات ، وبقى بلا دلالة من الدلالات ، وغاب عن المشاهدة فى المشاهدة ، وشرد من المغايبة ، وتلاشى المشرب الانسانى ، واحترقت المادة النفسانية ، وانعدمت القوة الطبيعية ، وصارت الشواهد الربانية عيانا فى ولايته ، فلم يبق من نفسه بنفســـه ، ووصل المعنى الى المعنى ، وانمحى فى كشف لم يزل ، واختار بتشـــوق بلا اختياره ، وقال : يا الهى ! لا ترجعنى الى دار البلاء ثانية ، ولا تلق بى فى قيد الطبع والهوى . فجاءه الأمر : هكذ حكمنا أن تعود الى الدنيا لاقامة الشرع ، لنعطيك هنالك أيضا ما أعطيناكه هنا . فلما عاد الى الدنيا كان كلما اشتاق الى ذلك المقام المعلى (والمعالى) يقول : « ارحنا يا بلال بالصلاة » ، فكانت كل صلاة معراجا له وقربة ، فكان الخلق يرونه فى الصلاة ، وكانت روحه فى صلاة ، وقلبه فى مناجاة ، وسره فى تحليق ، ونفسه فى انصهار ، حتى صارت الصلاة قرة عينه ، فكان جسده فى الملك ، وروحه فى الملكوت : كان جسده انسيا ، وروحه فى محل الأنس .

ويقول سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « علامة الصادق ان يكون له تابع من الحق اذا دخل وقت الصلاة يحثه عليها وينبهه ان كان نائما(٢) ». وكان هذا الأثر ظاهرا فى سهل بن عبد الله رضى الله عنه لأنه كان قد صار زمنا من الشيخوخة ، وحينما كان يحين وقت الصلاة كان جسده يصح ، فاذا صلى بقى (قعيدا) مكانه(٣) .

---

(١)رواه الطبرانى عن المغيرة وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٤٦ » .

(٢) ورد فى اللمع : « علامة الصادق أن يكون له تابع من الجن اذا دخل وقت الصلاة يحثه على ذلك ، وان كان نائما ينبهه (انظر ص ٢٠٤) .

(٣) وردت فى اللمع اشارة الى هذا (انظر ص ٢٠٧) .

ويقول احد المشايخ رضى الله عنهم : « يحتاج المصلى الى أربعة أشياء: فناء النفس ، وذهاب الطبع ، وصفاء السر ، وكمال المشاهدة » . ولا مندوحة للمصلى عن فناء النفس ، ولا يكون ذلك الا بجمع الهمة ، فعندما تجتمع الهمة تصل ولاية النفس ، لأن وجودها تفرقة لا يتأتى تحت عبارة الجمع . وذهاب الطبع لا يكون الا باثبات الجلال ، لأن جلال الحق زوال الغير . ولا يكون صفاء السر الا بالمحبة . ولا يكون كمال المشاهدة الا بصفاء السر .

ويرد أن الحسين بن منصور الحلاج كان يصلى أربعمائة ركعة فى كل يوم وليلة ، وكان يفرضها على نفسه ، فقيل له : لم كل هذا العناء فى هذه الدرجة التى انت بها ؟ فقال : العناء والراحة يبدوان فى حالكم ، اما الأحبة فصفتهم فانية فلا يبدو عليهم تعب ولا راحة .

فتأمل حتى لا تسمى الكسل وصولا ، ولا الحرص طلبا !! .

قال قائل : كنت اصلى خلف ذى النون ، فلما بدأ التكبير وقال : الله أكبر، وقع مغشيا عليه كالجسد الذى لا حس فيه .

وعندما شاخ الجنيد رضى الله عنه ، لم يضيع اى ورد من أوراد الشباب ، فقيل له : أيها الشيخ ! لقد صرت ضعيفا فكف عن بعض النوافل . قال : هذه اشياء أدركت بها فى البداية ما أدركته ، فمحال أن أكف عنها فى النهاية بعد قضاء الله(١) .

والمعروف أن الملائكة يكونون دائما فى الطاعة والعبادة : مشربهم من الطاعة وغذاؤهم من العبادة ، لأنهم روحانيون ولا نفوس لهم .والزاجر والمانع للعبد عن طاعة الله هو النفس الأمارة بالسوء . وكلما زيدت قهرا يصير طريق التعبد أيسر ، وحين تفنى النفس يصير غذاؤه ومشربه العبادة مثل الملائكة ، اذا صح فناء النفس .

ويقول عبد الله بن المبارك : أذكر أنى رأيت فى الصغر امرأة من المتعبدات

---

(١) ذكر السراج انه سمع ابن علوان يقول : كان الجنيد رحمه الله لا يترك اوراده من الصلاة على كبر سنه وضعفه ، فقيل له فى ذلك فقال : حال وصلت به الى الله تعالى فى بدايتى ، كيف يتهيأ لى أن اتركه فى نهايتى. (اللمع ص ٢٠٨) .

لدغتها العقرب فى الصلاة اربعين مرة ، ولم يظهر عليها اى تغير ، فلما فرغت من الصلاة قلت لها : يا اماه ! لم لم تدفعى عن نفسك تلك العقرب ؟ قالت : يابنى ! انت صغير ، كيف يجوز أن إعمل لنفسى أثناء عملى للحق ؟ .

وكان ابو الخير الأقطع(١) قد أصيب بالجذام فى رجله ، فقال الأطباء : يجب قطع هذه الرجل ، ولم يرض بذلك . فقال المريدون : يجب ان تقطع رجله فى الصلاة فهو لا يدرى بنفسه ، ففعلوا كذلك ، وعندما فرغ من الصلاة وجد رجله مقطوعة .

ويرد عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه أنه عندما كان يتهجد كان يقرأ بصوت خفيض ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ بصوت جهير — كما ذكرنا فى ذكر الصحابة — فقال النبى صلى الله علية وسلم : يا ابا بكر ! لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « يسمع من أناجى » اذا قرأت بصوت خفيض أو جهير . وقال لعمر : لم تقرأ بصوت جهير ؟ قال : أوقظ الوسنان واطرد الشيطان » . فقال الرسول عليه السلام : عليك يا ابا بكر أن تقرأ بصوت أجهر ، وقال لعمر : اقرأ بصوت أخفض(٢) ، لترك المادة .

وبعض هذه الطائفة يظهرون الفرائض ويخفون النوافل ، وهم يريدون بذلك أن يتخلصوا من الرياء ، لأنه حين يمارس شخص الرياء فى المعاملة فان الخلق يراؤنه ، ويقولون : ولو أننا لا نرى المعاملة ، فان الخلق يرونها . وهذا رياء أيضـــا .

وجماعة آخرون يظهرون الفرائض والنوافل ويقولون : ان الرياء باطل ، والطاعة صحيحة وحق ، ومحال ان نخفى حقا من اجل باطل ، فيجب اخراج الرياء من القلب ، وعليك أن تتعبد حيثما تريد .

---

(١) ابو الخير الأقطع : اصله من المغرب ، وقدم المشرق ، فصحب ابن الجلاء وغيره ، ومات بمصر . وله كرامات وفراسات ، وكان أوحد فى طريقته فى التوكل . مات سنة ست واربعين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٧٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٠٩) .
(٢) مكرر (انظر ج ١ ص ٢٦٨) .

وقد حفظ المشايخ رضى الله عنهم حق آداب الصلاة ، وامروا المريدين بذلك . ويقول واحد منهم : سافرت اربعين عاما فلم اصل اية صلاة غير جماعة ، وكنت فى كل جمعة بقصبة .

واحكام هذا اكثر من أن يمكن حصرها .

ومما يتصل بالصلاة من المقامات : المحبة . والآن اذكر احكامها ان شاء الله تعالى .

باب المحبة وما يتعلق بها(١) :

« قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه(٢) » . وقال ايضا عز وجل : « ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله(٣) » .

وقال النبى عليه السلام : سمعت جبريل يقول ان الله عز وجل قال : « من اهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما ترددت فى شيء كترددى فى تبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه .وماتقرب الى عبدى بشيء احب الى من اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل ، حتى احبه ، فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا » . وقال أيضا عليه السلام : « من احب لقاء الله احب الله لقاءه » . وقوله عليه السلام : « اذا احب الله العبد قال لجبريل : يا جبريل ! انى احب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . ثم يقول جبريل لأهل السماء ان الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء . ثم يصنع له القبول فى الأرض فيحبه اهل الأرض . وفى البغض مثل ذلك » .

---

(١) اعتمد الهجويرى فى هذا الباب على ما ورد فى باب المحبة فى الرسالة القشيرية ، ونقل عنها نص الأحاديث والتعريفات . والعبارة فى اصلها العربى فى الرسالة اكثر سلاسة وترابطا . (راجع الرسالة جـ ٢ ص ٦١٠ — ٦١٤ وكشف المحجوب : الأصل الفارسى ص ٣٩٢ وما بعدها) .

(٢) سورة « المائدة » آية ٥٤ .

(٣) سورة « البقرة » آية ١٦٥ .

اعلم ان محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله تعالى صحيحة ، والكتاب والسنة ناطقان بهذا ، والأمة مجتمعة عليه . والله سبحانه وتعالى على صفة تجعل المحبين يحبونه ، وهو يحب أحباءه .

ويقال ان المحبة بالمعنى اللغوى مأخوذة من « الحبة » ـ بكسر الحاء ـ وهى بذور تقع على الأرض فى الصحراء ، فسموا الحب حبا لأن فيه أصل الحياة ، كما ان فى الحب اصل النبات ، فمثلما تسقط تلك البذور فى الصحراء، وتختفى فى التراب ، وتسقط عليها الأمطار ، وتسطع عليها الشمس ، ويمر عليها البرد والحر ولا تتغير تلك البذور بتغير الأزمنة ، وعندما يحين وقتها تنمو وتزهر وتثمر ، هكذا الحب حين يسكن فى قلب فانه لا يتغير بالحضور والغيبة ، والبلاء والمحنة ، والراحة واللذة ، والفراق والوصال ، كما قال الشـــاعر :

(شــعر عــربى)

يا من ســـقام جفونه لســـقام عاشـــقه طبيب
حزت المودة فاســـتوى عندى حضورك والمغيب

ويقولون ايضا انها مأخوذة من « الحب(١) » الذى فيه ماء كثير ، ويكون قد امتلأ ، وليس فيه للعيون مساغ ، وقد صـــار مالكه أيضا ، فكذلك المحبة حينما تجتمع فى قلب الطالب وتملأ قلبه لا يبقى فى ذلك القلب مكان لغير حديث الحبيب ، مثلما كرم الله سبحانه وتعالى الخليل بالخلة ، فتجرد عليه السلام الا من حديث الحق ، وصـــار العالم والعالمون حجابه ، فصـــار فى تلك المحبة عدوا للحجب ، ثم اخبرنا عن حاله ومقاله فى قوله تعالى : « فانهم عدو لى الا رب العالمين(٢) » . ويقول الشبلى رحمه الله فى هذا المعنى : « سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب(٣) » .

ويقال أيضـــا ان « الحب » هو تلك الخشـــبات الأربع المعشقة معا التى توضع عليها جرة المـــاء ، فيسمون الحب حبا بهذا المعنى ، لأن المحب

---

(١) اى الجـــرة .
(٢) سورة « الشعراء » آية ٧٧ .
(٣) ورد بنصه فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٥) .

يتحمل عــز الحبيب وذله وتعبه وراحته وبلاءه وجفاءه ولا يثقل عليه ذلك، لأن عمله يكون كعمل تلك الخشبات ، ويكون تركيبه وخلقته لتحمل مشــقة الحبيب . ويقال فى هذا المعنى :

(شـــعر عــربى)

ان شئت جودى وان شئت فامتنعى   كلاهما منك منسوب الى الكرم

ويقال ايضا : انها مأخوذة من « الحب » وهو جمع حبة القلب ، وحبة القلب محل اللطيفة وقوامها ، لأن اقامتها بها ، فسموا المحبة حبا باسم محلها ، لأن قرارها فى حبة القلب ، والعرب يسمون الشىء باسم موضعه .

ويقال ايضا انها مأخوذة من حباب المــاء وغليانه عند المطر الشديد ، وذلك الغليان يكون ماء فى حال المطر العظيم ، فاسموا المحبة حبا « لأنه غليان القلب عند الاشتياق الى لقاء المحبوب » ، وقلب المحب يكون دائما مضطربا وقلقا فى اشتياقه لرؤية المحبوب ، وكما أن الأجسام تشتاق الى الأرواح ، فان قلوب المحبين تشتاق الى لقاء الأحباب . وكما ان قيام الجسد يكون بالروح ، فان قيام القلب يكون بالمحبة ، وقيام المحبة يكون برؤية المحبوب ووصله . ويقال فى معناه :

(شـــعر عــربى)

اذا ما تمنى الناس روحا وراحة   تمنيت أن القــاك يا عز خاليــا

ويقال ايضا ان الحب اسم موضوع لصفاء المودة ، لأن العرب يسمون صفاء بياض انسان العين حبة الإنسان(١) ، كما يقال لصفاء سويداء القلب حبة القلب ، فصار هذا محل المحبة وذاك محل الرؤية ، وكان من هــذا المعنى أن اقترن القلب والعين فى المحبة . ويقال فى هذا المعنى :

(شـــعر عــربى)

القلب يحســـد عينى لذة النظــر   والعين تحســـد قلبى لذة الفكر

---

(١) ورد فى الرسالة : بعضهم قال : الحب اسم لصـــفاء المودة ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : « حبب الأسنان » .(انظــر جـ ٢ ص ٦١٣) .

فصـل : اعلم ان المحبة فى استعمال العلماء على وجوه ، احـدها : بمعنى ارادة المحبوب بغير سكون النفس ، والميل ، والهوى ، وتمنى القلب ، والاستئناس ، ولا يجوز تعلق هذا كله بالقديم ، ويكون للمخلوقات مع بعضها البعض ، وللاجناس ، والله تعالى متعال عن هذا كله علوا كبيرا . والثانى : بمعنى الاحسان وتخصيص العبد الذى يصطفيـه ، ويوصـله الى درجة كمال الولاية ، ويخصه بأنواع الكرامات . والثالث : بمعنى الثناء الجميل على العبـد .

وتقول طائفة من المتكلمين ان محبة الحق التى اخبرنا بهـا ، من جملة الصفات السمعية ، مثل الوجه واليد والاستواء ، التى لو لم يكن الكتاب والسنة ناطقين بهـا لكان وجودها مستحيلا للحق تعالى ، من وجهة العقل ، فنحن نثبتها ونؤمن بها ، ولكننا نتوقف فى تصرفها . ومراد هـذه الطائفة هو انهم لا يجيزون هذا اللفظ على اطلاقه للحق تعالى .

وهذا الذى ذكرناه كله اقاويل ، وسابين لك حقيقة هذا ان شاء الله .

كيفية المحبة من الله تعالى الى أوليائه ومن أوليائه الى حضرته :

اعلم ان محبة الحق تعالى للعبد هى ارادة الخير له ورحمتـه به . والمحبة اسم من اسماء الارادة مثل الرضا ، والسخط والرافة وما شابه ذلك ، وكل هذه الأسماء لا تليق الا لارادة الحق تعالى ، وهذه الارادة صفة قديمة له يريد بها افعاله ، نفى حكم المبالغة واظهار الفعل ، بعض هذه الصفات أخص من البعض .

وفى الجملة ، فان محبة الله للعبد هى انه ينعم عليه كثيرا ، ويثيبه فى الدنيا والآخرة ، ويؤمنه من محل العقوبة ، ويعصـمه من المعصية ، ويكرمه بالأحوال الرفيعة والمقامات السنية ، ويقطع سره عن الالتفـات الى الغير ، ويوصل اليه العناية الأزلية حتى يتجرد من الكل ، ويتفرد لطلب رضائه . وحين يخص الحق تعالى العبد بهذه المعانى فانهم يسمون تخصيص ارادته : المحبة ، وهذا مذهب الحارث المحاسبى والجنيد وجماعة من المشايخ . وفقهاء الفريقين والمتكلمون من اهل السنة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، اكثرهم على هذا ايضا .

(وهناك) من يقولون ان محبة الحق تعالى بمعنى الثناء الجميل على العبد ، وثناؤه كلامه ، وكلامه غير مخلوق . ومن يقولون انهـا بمعنى

الاحسان ، واحسانه يكون فعله . وهذه الأقاويل متقاربة فى المعنى ، وحكمها جميعا موجود .

اما محبة العبد لله ، فهى صفة تظهر فى قلب المؤمن المطيع بمعنى التعظيم والاكبار ، ليطلب رضاء المحبوب ، ويصير بلا صبر فى طلب رؤيته ، وقلقا فى الرغبة فى قربه ، ولا يسكن الى أحد دونه ، ويعتاد ذكره ، ويتبرأ مما سوى ذكره ، وتحرم عليه السكينة ، وينفر منه السكون ، وينقطع عن جميع المألوفات والمستأنسات ، ويعرض عن الأهواء ، ويقبل على سلطان المحبة ويطيع حكمه ، ويعرف الحق تعالى وتقدس بنعوت الكمال .

ولا يجوز أن تكون محبة « العبد للحق(١) » من جنس محبة الخلق لبعضهم البعض ، لأن تلك ميل الى الاحاطة بالمحبوب وادراكه ، وهذا حكم صفة الأجسام . ومحبو الحق تعالى مستهلكون فى قربه ، لا طالبلون لكيفيته ، لأن الطالب قائم بنفسه فى المحبة ، والمستهلك قائم بالمحبوب ، وأصدق الناس فى معترك المحبة مستهلكون ومقهورون ، لأنه لا توسل للمحدث الى القديم الا بقهر القديم . وكل من يعلم حقيقـــة المحبة على وجه التحقيق يرتفع عنه الابهام ، ولا تبقى له شبهة .

والمحبة على نوعين ، الأول : محبة الجنس للجنس ، وتلك ميل وتوطين للنفس ، وطلب ذات المحبوب عن طريق المماسة والملاصقة . والثانى : محبة الجنس لغير الجنس ، وهذه تتطلب القرار مع صفة من أوصاف المحبوب يطمئن اليها ويأنس بها ، مثل سماع كلامه أو رؤيته .

والمعتقدون فى المحبة على قسمين ، الأول : من يرى انعام الحق عليه ، ورؤية الانعام والاحسان تقتضى محبة المنعم والمحسن . والثانى : من يضع كل الانعام فى محل الحجاب ، بسبب غلبة المحبة ، ويكون طريقهم الى المنعم من رؤيتهم للمنعم ، وهذه أعلى ، والله أعلم .

فصـــل : وفى الجملة : المحبة معروفة بين جميع أصـــناف الخلق ، ومشهورة بجميع الألسنة ، ومتداولة فى جميع اللغات ، ولا يستطيع اى صنف من العقلاء أن يخفيها عن نفســـه .

---

(١) فى النص (محبة الحق للعبد) وواضح من السياق ان المقصـــود هو : « محبة العبد للحق » كما أثبتناه .

ومن مشايخ هذه الطائفة سمنون المحب رضى الله عنه ، وله فى المحبة مذهب ومشرب خاص ، ويقول ان المحبة أصل طريق الحق تعالى وقاعدته ، والأحوال والمقامات منازل ، وكل محل يكون فيه الطالب يجوز عليه الزوال ، الا محل المحبة فلا يجوز عليه الزوال بأى حال من الأحوال ، ما دام الطريق موجودا . وقد اتفق جميع المشايخ الآخرين معه فى هذا المعنى ، ولكن بحكم ان هذا الاسم عام وظاهر ، فقد ارادوا أن يخفوا حكمه بين الخلق ، وأن يبدلوا الاسم فى تحقيق وجود المعنى ، فسموا صفاء المحبة : صفوة ، وسموا المحب : صوفيا ، وفريق آخر سموها : فقرا ، وسموا المحب : فقيرا ، لترك اختيار المحب فى اثبات اختيار الحبيب ، لأن أقل درجة فى المحبة هى الموافقة ، وموافقة الحبيب مخالفة للغير . وقد بينت فى بداية هذا الكتاب حكم الفقر والصفوة .

ويقول ذلك الشيخ العظيم فى هذا المعنى : « الحب عند الزهاد أظهر من الاجتهاد ، وعند التائبين أوجد من الحنين والأنين ، وعند الأتراك اشهر من الفتراك(١) ، وسبى الحب عند الهنود اشهر من سبى محمود(٢) ، وقصة الحب والحبيب عند الروم اشهر من الصليب » ، وقصة الحب فى العرب : « فى كل حى من طرب أو ويل أو حزن(٣) » . والمراد من هذا كله انه لا يوجد جنس من الناس لم يقع له أمر فى الغيبة ، فلا يفرح قلبه بالمحبة ، أو يثمل بشرابها ، أو يبقى مخمورا من قهرها ، لأن القلب مركب من الانزعاج والاضطراب ، وبحر عقد المحبة فيه كالسراب . والمحبة للقلب مثل الطعام والشراب ، وكل قلب خال منها يكون خربا ، ولا سبيل للتكلف الى دفعها أو جلبها . والنفس تجهل لطائف ما يمر على القلب .

ويقول عمرو بن عثمان المكى ، رحمه الله ، فى كتاب المحبة : ان الله تعالى

---

(١) كلمة فارسية معناها السير الذى يتدلى من سرج الفارس يعلق به الصيد ونحوه ، اى « المعلاق » .

(٢) اشارة الى غزو السلطان محمود الغزنوى لبلاد الهند وتحطيمه لمعابد الأصنام واستيلائه على ما فيها من كنوز (انظر ج ١ القسم الأول ص ١٦) .

(٣) هذا هو نص العبارة كما وردت باللغة العربية فى النص الفارسى، وليست ترجمة ، وهى عبارة ركيكة ، ولعله يريد أن يقول ان قصة الحب فى كل حى من احياء العرب أشهر من الطرب او الويل والحزن .

وقد أردفت هذه العبارة العربية بشرح فارسى ترجمته كما يلى : وفى كل قبيلة فى العرب طرب او حزن او نيل او ويل من المحبة .

خلق القلوب قبل الأجساد بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى مكان القرب . وخلق الأرواح قبل القلوب بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى روضة الأنس ؛ وخلق الاسرار قبل الأرواح بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى درجة الوصل . وتجلى على السر كل يوم ثلثمائة وستين مرة بكشف الجمال ، وكرمه ثلثمائة وستين مرة بنظره ، وأسمع الروح كلمة المحبة ، وأظهر على القلب ثلثمائة وستين لطيفة من لطائف الأنس ، فنظرت بكل هذا الى الكون ، فلم تر أحدا أكرم منها ، فظهر فيها زهور وفخر ، فامتحنها الحق تعالى بذلك ، فسجن السر فى الروح ، وحبس الروح فى القلب ، وحبس القلب فى الجسد ثم ركب العقل فيها ، وأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأصدر أوامره فبحث كل واحد منهم عن مقامه ، وأمرهم الحق تعالى بالصلاة حتى صار الجسد فى الصلاة ، واتصل القلب بالمحبة ، ووصلت الروح الى القربة ، واستقر السر بالوصلة .

ومجمل القول ان العبارة عن المحبة ليست هى المحبة ، لأن المحبة حال ، ولا يكون الحال قالا ابدا . واذا أراد أهل عالم أن يجلبوا المحبة لما استطاعوا ، واذا تكلفوا لدفعها لما استطاعوا ، لأنها من المواهب لا من المكاسب . واذا اجتمع كل العالم ليجلبوا المحبة لشخص يطلبها لما استطاعوا واذا ارادوا ان يدفعوها عن شخص هو أهل لها لما استطاعوا ، ولعجزوا ، لأنها الهية والآدمى لاه ، ولا يستطيع اللاهى ادراك الالهى . والسلام .

فصـــل : أما العشق فللمشايخ فيه كلام كثير . وفريق من هذه الطائفة راوا انه يجوز على الحق تعالى ولا يجوز منه تعالى ، وقالوا ان العشق صفة المنع عن المحبوب ، والعبد ممنوع عن الحق ، والحق تعالى ليس ممنوعا ، فعشق العبد له جائز ، ولا يجوز منه (للعبـــد) .

وقال فريق أيضا ان العشق لا يجوز للعبد على الحق تعالى ، لأن العشق تجاوز للحد ، والله تعالى ليس محدودا .

وقال المتأخرون أيضا ان العشق لا يصح فى الدارين الا على طلب ادراك الذات ، وذات الحق تعالى ليست مدركة ، والمحبة تصح مع الصـــفة ، فينبغى أن لا يصح العشق عليه . وقالوا أيضا ان العشق لا يتأتى الا بالمعاينة والمحبة تجوز بالسمع ، ولمـــا كان العشق نظريا فانه لا يجوز على الحق ، لأن أحدا لا يراه فى الدنيا . ولمـــا كانت هذه (اى المحبـــة) خبرية فقـــد ادعاها كل واحد ، لأن الكل سواء فى الخطاب ، فالحق تعالى ليس مدركا ولا محسوسا بذاته حتى يصح للخلق العشق معه ؛ ولمـــا كان بالصفات

والأفعال محسنا ومكرما فان المحبة تصح للأولياء : الم تر كيف انه حين استغرقت محبة يوسف، يعقوب عليهما السلام ، فانه حين وصل تريح قميصه الى انفه فى حال الفراق أبصرت عيناه الكفيفتان ، ولما استهلك العشق زليخا لم تتفتح عيناها طالما لم تدرك الوصول ؟ وهذا شىء عجيب جدا ، فواحد يربى الهوى ، وآخر يترك الهوى .

وقالوا أيضا ان العشق ليس له ضد ، وليس للحق تعالى ضد ليجوز عليه ذلك .

وتوجد فصول لطيفة فى هذا ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر خوف التطويل ، وهو اعلم .

فصل : ولمشايخ الصوفية فى تحقيق المحبة رموز اكثر من ان يمكن حصرها . واذكر قدرا منها على سبيل التبرك .

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله : « المحبة : محو المحب لصفاته ، واثبات المحبوب بذاته(١) » ، بمعنى انه عندما يبقى المحبوب ينبغى أن يفنى المحب ، لأن غيرة المحبة تنفى بقاء المحب لتصير لها الولاية المطلقة . ولا يكون فناء صفة المحب الا باثبات ذات المحبوب . ولا يجوز أن يكون المحب قائما بصفته ، لأنه لو كان قائما بصفته لكان غير محتاج الى جمال المحبوب ، فعندما يعرف أن حياته بجمال المحبوب ، فانه بالضرورة يطلب نفى أوصافه ، لأنه يعلم انه مع بقاء صفته يكون محجوبا عن المحبوب ، فصار بمحبته للحبيب عدوا لنفسه .

ومعروف أن الحسين بن منصور رحمه الله صلب ، وكان آخر اقواله هو : « حسب الواجد افراد الواجد له(٢) » . ويكفى للمحب أن يتطهر وجوده عن طريق المحبة وتنتهى ولاية النفس فى وجوده وتتلاشى .

ويقول أبو يزيد رحمه الله : « المحبة : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك(٣) » . وهذه المقالة حق على العبد ، لأن نعمة الدنيا وما أعطاه (الله) للعبد فى الدنيا أسماه قليلا ، وقال : « قل متاع الدنيا قليل(٤) » ، واسمى ذكره كثيرا فى قوله تعالى : « والذاكرين الله كثيرا

---

(١) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٤) .
(٢) هكذا فى الأصل : وورد فى الفرق بين الفرق ان الحلاج قال عند قطع يديه ورجليه : « حسب الواحد افراد الواحد » (انظر ص ١٥٩) .
(٣) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٤) .
(٤) سورة « النساء » آية

والذاكرات(١) » ، ليعلم الخلق أن الحبيب على التحقيق هو الله جل جلاله ، وهذه الصفة لا تصح للخلق ، وما يكون من الحق للعبد فليس أى شىء منه قليـــلا .

ويقول سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « المحبة : معانقة الطاعات ، ومباينة المخالفات(٢) » . لانه كلما كانت المحبة فى القلب أقوى ، كان أمر الحبيب على الحبيب أيسر ، وهذا رد على تلك الطائفة من الملاحدة الذين يقولون ان العبد يصل فى المحبة الى درجة ترتفع فيها عنه الطاعة ، وهــذا محال ، لان حكم التكاليف لا يسقط عن العبد في حال صحة العقل،لان الاجماع على ان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ، واذا جاز أن يرتفع التكليف عن شخص فى حال الصحة فانه يجوز أن يرتفع عن الجميع ، وهذه زندقة محضة . ثم ان للمغلوب والمعتوه حكما آخر وعذرا آخر . ولكن يجوز أن يوصل الله تعالى العبد فى محبته الى درجة ترتفع فيها عنه مشقـــة أداء الطاعة ، لأن مشقة الأمر تكون على مقدار المحبة ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت مشقة الطاعة اسهل . وهذا ظاهر فى حال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه عندما جاءه القسم من الحق : « لعمرك » ، أكثر من العبادة فى الليل والنهار الى حد أن عجز عن جميع الاعمال ، وتورمت قدماه المباركتان ، حتى أن الله تعالى قال : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(٣) » . ويجوز أيضـــا أنه فى حال أداء الأمر ترتفع رؤية الطـــاعة عن العبد ، « كما كان للنبى عليه السلام (حيث كان يقول) : انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى كل يوم سبعين مرة(٤) » ، لأنه لم يكن ينظر الى نفسه والى عمله حتى يعجب بطاعته ، بل كان ينظر الى أمر الحق بالتعظيم ، ويقـــول ان طاعتى لا تليق به .

ويقول سمنون المحب رضى الله عنه : « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : المرء مع من أحب(٥) » .

---

(١)سورة « الاحزاب » آية ٣٥ .
(٢) ورد فى الرسالة : « الحب : معانقة الطاعة ومباينة المخـــالفة (انظر جـ ٢ ص ٦١٥) .
(٣) سورة « طه » آية ١ ، ٢ .
(٤) رواه مسلم وابو داود والنسائى عن اغر مزينة قال : قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة مائة مـــرة » .
(٥) رواه البخارى، ومسلم (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٨٤) .

فهم فى الدنيا والعقبى مع الحق ، ولا يجوز الخطأ على من يكون معه ، فالمراد بشرف الدنيا هو أن يكون الحق معهم ، وبشرف العقبى أنهم يكونون مع الحق .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر والعطاء » . لأن كلا هذين فى المحبة سبب ، والأسباب تتلاشى فى حال وجود الأعيان ، ويطيب للحبيب بلاء الحبيب . والوفاء والجفاء يتساويان فى تحقيق المحبة ، وحين تحصل المحبة يكون الوفاء كالجفاء ، والجفاء كالوفاء .

ومعروف فى الحكايات انهم احتجزوا الشبلى فى المارستان — بتهمة الجنون — وجاءت جماعة لزيارته ، فسألهم : من انتم ؟ قالوا : احباؤك ، فرماهم بالحجارة ، ففروا ، فقال : « لو كنتم أحبائى لما فررتم من بلائى(١) » لأن الحبيب لا يفر من بلاء الحبيب .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، وقداكتفيت بهذا القدر ، وبالله التوفيق .

(١) وردت فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٤٢٠) .

كشف الحجاب السادس
في الــــــزكاة

قوله تعالى : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(١) » . ومثل هذه الآيات والأخبار كثير .

والزكاة من أحكام فرائض الايمان على الشخص الذى تجب عليه ، ولا وجه للاعراض عنهـــا .

اما الزكاة : فتجب على اتمام النعمة ، فعندما تكون مائتا درهم — وهى نعمة تامة — تحت تصرف شخص بحكم الملك ، فانه يجب عليه خمسة دراهم . وعشرون دينارا نعمة تامة ، وبعد مرور سنة يجب عليها نصف دينار . وخمسة من الابل نعمة تامة ، ويجب عليها كبش ، وما شابه ذلك من الأموال . ولكن للجاه ايضا زكاة كما للمـــال ، لأنه ايضا نعمـــة تامة كماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة مالكم » . وايضا قوله عليه السلام : « ان لكل شىء زكاة ، وزكاة الدار بيت الضيافة(٢) » .

وحقيقة الزكاة اداء شكر النعمة من جنس النعمة . والصحة نعمة عظيمة ، ولكل عضو زكاة ، وذلك أن يجعل الانسان كل اعضائه مستغرقة فى الخدمة ، ومشغولة بالعبادة ، ولا يميل الى اى لهو او لعب حتى يكون قد ادى حق زكاة النعمة .

وللنعم الباطنة أيضا زكاة ، ولا يمكن احصاء حقيقتها لكثرتها ، فينبغى لهـــا زكاة ايضا تناسبها ، وذلك عرفان النعمة الظاهرة والباطنة . واذا عرف العبد ان نعمة الحق تعالى عليه لا حدود لهـــا ، فانه يجب عليه لزكاة النعمة التى لا حد لهـــا شكر لا حد له .

وفى الجملة فان زكاة النعمة والدنيا عند هذه الطائفة (اى المتصوفة) غير محمودة ، لأن البخل غير محمود ، ويجب البخل التام ليحوز شخص مائتى درهم ويحبسها تحت تصرفه سنة وعندئذ يخرج منها خمسة دراهم . ولمـــا كان طريق الكرماء بذل المال ، وسيرتهم الســـخاء ، فعلى اى مال تجب الزكاة ؟ .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٤٣ .
(٢) ورد فى الرسالة عن انس بن مالك (انظر ج ٢ ص ٥١٠) .

ووجدت فى الحكايات أن واحدا من علماء الظاهر سأل الشبلى على سبيل التجربة عن الزكاة قائلا : ما الذى يجب أن يعطى من الزكاة ؟ قال : حين يكون البخل موجودا ويحصل المـــال فيجب أن يعطى خمسة دراهم عن كل مائتى درهم ، ونصف دينار عن كل عشرين دينارا ، هذا فى مذهبك ، أما فى مذهبى فيجب أن لا تملك شيئا حتى تتخلص من مشغلة الزكاة . فسأله : من امامك فى هذه المسألة ؟ قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، لأنه أعطى كل ما كان يملك ، فقال له الرسول عليه السلام : « ما خلفت لعيالك » ؟ قال : « الله ورسوله(١) » .

ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال فى قصيدة ما يلى :

(شــعر عــربى)

فما وجبت على زكاة مـــال   وهل تجب الزكاة على جواد(٢)

فأموال الكرماء ، مبذولة ، ودماؤهم مهدرة ، فلاهم يبخلون بالمـــال ، ولا هم يختصمون على الدماء ، لأنهم ليس لهم ملك .

ولكن اذا ارتكب أحد جهالة ويقول : ما دام ليس لى مال فاننى فى غنى عن علم الزكاة ، فهذا محال ، لأن تعلم العلم فرض عين ، والاستغناء عن العلم كفر محض .

ومن فتن الزمان أن أدعياء الصلاح والفقر يتركون العلم بالجهل ، فذات مرة كنت أعلم جماعة من المتصوفة المبتدئين العبادة ، وتدخل جاهل — وكنت اتحدث فى باب صـــدقة الابل ، وحكم بنت اللبـــون وبنت المخاض ، وأبين الاستحقاق — فانقبض قلب ذلك المرتكب الجاهل بسبب هذه المسألة ، ونهض وقال : لا ابل لى حتى يفيدنى علم بنت اللبون . فقلت : يا هـــذا !

---

(١) أورد السراج هذه الحكاية عن ابراهيم بن شيبان أنه كان ينهى عن الذهاب الى الشبلى ، والوقوف عليه واستماع كلامه ، فلمـــا لقيه وأراد أن يمتحنه قال له : كم فى خمس من الابل ؟ قال : شاة فى واجب الأمر ، وفيمـــا يلزمنا نحن : كلها ، فقال له ابراهيم : الك فى هذا امام ؟ قال : نعم ، أبوبكر الصديق رضى الله عنه ، حيث خرج من ماله كله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ فقال : الله ورسوله . فقام ، ولم ينه الناس بعد ذلك عنه . (اللمع ص ٢١٠) .

(٢) ورد فى اللمع منسوبا الى واحد من اهل الدنيا :

وما وجبت على زكاة مـــال   وهل تجب الزكاة على كريم

(اللمع ص ٢١٠) .

كما يلزم العلم باعطاء الزكاة فانه يلزم العلم ايضا باخذها ، فاذا أعطاك شخص بنت لبون واخذتها ، عندئذ لا يجوز القول بترك علم بنت اللبون ، واذا لم يكن لأحد مال ولا يلزمه مال فان فرض العلم لا يسقط عنه أيضا . فنعوذ بالله من الجهل .

فصـــل : وقد كان من مشايخ المتصوفة من اخذ الزكاة ، ومنهم من لم يأخذها ، فمن لم يكن فقرهم باختيار لم يأخذوها ، قائلين : ما دمنا لا نجمع المال حتى يجب اعطاء الزكاة ، فاننا لا نأخذ كذلك من ارباب الدنيا حتى لا تكون يدهم العليا ويدنا السفلى . ومن كانوا مضطرين فى الفقر أخذوها لا لأنها كانت لازمة ، بل لأنهم أرادوا أن يرفعوا الفريضة عن رقبة اخ مسلم ، فلو كانت هذه نيتهم لكانت هذه هى اليد العليا لا تلك . واذا كانت يد المعطى هى العليـــا ويد الآخذ الســـفلى لكان باطلا ، لقوله تعـــالى : « ويأخذ الصدقات(١) » ، وكان يجب أن يكون معطى الزكاة افضل من آخذها ، وهذا الاعتقاد عين الضلالة ، فاليد العليا هى التى تأخذ شيئا من الاخ المسلم ، بحكم وجوب ذلك ، لترفع عبئه عن رقبة ذلك الشخص . والدراويش ليسوا دنيويين لانهم عقبويون ، واذا لم يرفع العقبوى عبء الدنيـــا عن رقبة الدنيوى ، لوجب عليه حكم الفريضة ، ولأخذ بذلك يوم القيامة ، فالحق تعالى يمتحن العقبوى بواجب سهل ، حتى يستطيع الدنيويون بذلك أداء عبء الفريضة . فاليد العليا لا محالة هم الفقراء الآخذون وفقا للشرع ، لأن حق الله واجب عليهم . ولو كانت يد الآخذ هى السفلى — كما تقول طائفة من الحشوية — لوجب أن تكون يد الأنبياء هى السفلى لأنهم يأخذون حق الله ، وهؤلاء على خطأ ، ولا يدرون أنهم اخذوا بالأمر . وقد كان ائمة الدين من بعد الأنبياء على هذا ، لأنهم كانوا يأخذون حق بيت المال . ومن يقول ان يد الآخذ هى السفلى ، ويد المعطى هى العليا ، يكون على خطأ . وكلا هذين اصل قوى فىالتصـــوف ، ومضمون هذا محله باب الجـــود والسخاء ، وسألحق بهذا طرفا منه ، ان شاء الله ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

باب الجـــود والسخاء :

قوله عليه السلام : « السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، بعيـــد من النـــار ، والبخيل بعيد من الله ، قريب من النـــار ، بعيد من الجنة(٢) » .

---

(١) سورة « التوبة » آية ١٠٤ .

(٢) ورد فى الرسالة : « السخى : قريب من الله تعالى ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخيل : بعيد من الله تعالى، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . والجاهل السخى أحب الى الله تعالى من العابد البخيل (الرسالة ج ٢ ص ٥٠٢) .

والجود والسخاء كلاهما عند العلماء بمعنى واحد فى صفات البشر ، ولكنهم يسمون الحق تعالى : « الجواد » لا « السخى » لعدم التوافق ، لأنه لم يسم نفسه بهذا الاسم ، ولم يرد خبر عن الرسول بهذا أيضا . وباجماع أهل السنة لا يجوز لشخص أن يضع اسما لله تعالى على مقتضى العقل واللغة ما لم يكن الكتاب والسنة ناطقين بهذا ، مثلما أن الله تعالى : عالم ، فيمكن باجماع الأمة ، أن يسمى عالما ، ولكن لا يجوز أن يسمى عاقلا أو فقيها ، فلما كانت هذه الأسماء الثلاثة بمعنى واحد أطلقوا عليه اسم العالم ، لصحة التوافق ، واحترزوا من هذين الاسمين لعدم التوافق . وكذلك أطلقوا عليه اسم الجواد ، لصحة التوافق ، واحترزوا من اسم السخى ، لعدم التوافق .

وقد فرق الناس بين الجود والسخاء ، وقالوا ان السخى هو الذى يميز فى الجود ، وذلك يكون موصل غرض وسبب ، وهذا مقام البداية من الجود . والجواد هو الذى لا يميز ، ويكون عمله بلا غرض ، وفعله بلا سبب . وقد كان هذا حال نبيين صلوات الله عليهما ، أحدهما : الخليـــل ، والآخر : الحبيب .

وفى الأخبار الصحاح أن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه لم يكن يأكل شيئا ما لم يأت ضيف . وفى وقت من الأوقات مرت ثلاثة أيام ولم يأت أحد، وجاء الى باب بيته مجوسى ، فقال له : اى رجل أنت ؟ قال : مجوسى ، قال : اذهب فانك لا تليق لضيافتى وكرامتى ، فعاتبه الله تعالى قائلا : الشخص الذى ربيته سبعين عاما يثقل عليك أن تقدم له رغيفا(١) ! .

وعندما جاء ابن حاتم الطائى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، خلع رداءه وفرشه له ، وقال : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه(٢) » . فمن ميز : ضن برغيفين ، ومن لم يميز : جعل طيلسان النبوة بساطا لكافر ، لأن السخاء كان مقام ابراهيم ، والجود مقام النبى عليهما السلام .

---

(١) ورد فى الرسالة على لسان القشيرى قال : سمعت بعض العلماء يقول : استضاف مجوسى ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقال : بشرط أن تسلم ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى اليه : منذ خمسين سنة نطعمه على كفره ، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه . فمضى ابراهيم عليه السلام على اثره حتى ادركه ، واعتذر اليه ، فسأله عن السبب ،فذكر له ذلك ، فأسلم المجوسى (الرسالة جـ ٢ ص ٤٧٤) .

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عمر البزاز وابن خزيمة ، والطبرانى وابن عدى والبيهقى عن جرير البزاز عن أبى هريرة ، والحاكم عن جابر والطبرانى عن ابن عباس (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٣) .

وخير المذاهب فى هذا : ما قيل من ان الجود متابعة للخاطر الأول ، واذا تغلب الخاطر الثانى على الأول فانه يكون علامة البخل . وقد اكبره اهل التحصيل ، لأن الخاطر الأول يكون من الحق لا محالة .

وقد وجدت انه كان فى نيسابور رجل تاجر ، وكان يحضر مجلس الشيخ ابى سعيد (بن ابى الخير) دائما ، وذات يوم طلب الشيخ شيئا من اجل درويش . قال ذلك الرجل : كان معى دينار وقراضة ؛ فقال لى الخاطر الأول : اعط الدينار ؛ وقال الخاطر الثانى : اعط القراضة ، فأعطيت القراضة . فلما استأنف الشيخ الحديث سألته : ايجوز ان ينازع شخص الحق ؟ قال : لقد نازعته انت ، لأنه قال لك : أعط الدينار ، فأعطيت القراضة .

ووجدت أيضا ان الشيخ ابا عبد الله الرودبارى رضى الله عنه دخل بيت مريد ولم يكن موجودا ، فأمر فحمل متاع بيته الى السوق ، ولما دخل الرجل البيت فرح بذلك الانبساط بحكم انبساط الشيخ ، ولم يقل شيئا . ولما جاءت امرأته ورأت ذلك دخلت البيت وخلعت كساءها والقته وقالت : هذا ايضا من جملة متاع البيت ، وله نفس الحكم . فصاح فيها الرجل قائلا : لقد فعلت هذا تكلفا واختيارا . فقالت المرأة : يا رجل ! ان ما فعله الشيخ كان جوده ، ويجب ان نتكلف ليظهر جودنا ايضا . فقال : نعم ، عندما سلمنا للشيخ كان ذلك منا عين الجود(١) . والجود فى وصف الآدمى تكلف ومجاز .

ويجب على المريد ان يبذل دائما ملكه ونفسه وفقا لأمر الله . ولذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « الصوفى دمه هدر ، وملكه مباح(٢) » .

وسمعت من الشيخ ابى مسلم الفارسى قوله : ذات مرة قصدت الحجاز

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الرسالة ، وهنا بعض الاختلاف (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٥٠٥) .
(٢) ورد فى الرسالة : الصوفى : من يرى دمه هدرا ، وملكه مباحا (الرسالة جـ ٢ ص ٥٥٣) .

مع جماعة وفى نواحى حلوان(١) قطع الأكراد علينا الطريق ، وجردونا من خرقنا ، ولم نقاومهم نحن ايضا واسترضيناهم . وكان من بيننا شخص ثار ، فسل الكردى سيفه وقصد قتله ، فشفعنا له جميعا عند الكردى ، فقال : لا يجوز ان ادع هذا الكاذب ، وانى قاتله لا محالة . فسألناه عن علة قتله ، فقال : لأنه ليس صوفيا ، ويرتكب الخيانة فى صحبة الأولياء ، فالأولى أن لا يكون مثل هذا الشخص . قلنا : لماذا ؟ قال : لأن اقل درجات التصوف الجود ، وهو كثير التعلق بهذه الخرقة ، فكيف يكون صوفيا وهو يكثر الخصومة مع أصحابه ؟ فمنذ سنوات طويلة ونحن نعمل لكم ، ونسلك طريقكم ، ونقطع العلائق عنكم .

ويقال ان عبد الله بن جعفر مر بمنهل جماعة . فراى غلاما حبشيا يرعى الغنم ، وكان كلب قد جاء واقعى أمامه . فأخرج الغلام قرصا واعطاه للكلب، وقرصا ثانيا وثالثا . فتقدم اليه عبد الله وقال : ايها الغلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رايت . قال : فلم اعطيته كله للكلب ؟ قال : لأنه جاء من طريق بعيد مؤملا ، وليس هذا مكان كلاب ، فلم أرض من نفسى أن اضيع تعبه . فسر عبد الله واشترى الغلام مع الخراف والمنهل ، واعتقه ، وقال له : وهبتك هذه الاغنام والحائط . فدعا له ، وتصدق بالأغنام ، ووهب المال ، وغادر المكان(٢) .

وجاء رجل الى باب بيت الحسن بن على رضى الله عنهما ، وقال : يا ابن النبى ! على دين قدره اربعمائة درهم . فأمر الحسن فأعطوه اربعمائة درهم ودخل البيت باكيا . فقيل له : لم تبكى يا ابن النبى ؟ قال : لأنى قصرت فى تفحص حال هذا الرجل حتى الجأته الى ذل السؤال(٣) .

ولم يكن ابو سهل الصعلوكى يضع صدقة قط فى يد فقير ، والشىء الذى كان يهبه لم يكن يضعه فى يد احد ، بل يطرحه أرضا ليؤخذ . فسئل فى

---

(١) « حلوان » : فى عدة مواضع : منها حلوان العراق هذه ، وهى فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد ، وهى مدينة عامرة ، واما فتحها ، فان المسلمين لما فرغوا من جلولاء ، نهض جرير بن عبد الله الى حلوان ففر يزدجرد الى اصفهان وفتح جرير حلوان صلحا فى سنة ١٩ هـ (معجم البلدان ج ٢) .

(٢) وردت فى الرسالة ، وهنا اختلاف يسير فى العبارة (انظر ج ٢ ص ٥٠٦) .

(٣) وردت فى الرسالة ، ولم ينص على انها منسوبة الى الحسن (انظر ج ٢ ص ٥٠٧) .

ذلك فقال : ليس للدنيا من الخطر ما يوجب أن توضع فى يد مسلم فتكون يدى العليا ويده السفلى(١) .

ويرد عن النبى عليه السلام ان ملك الحبشة أرسل اليه منين(٢) من المسك ، فجعلها فى الماء دفعة واحدة ، ومسح على نفسه .

ويرد عن انس أن رجلا اتى النبى عليه السلام فمنحه واديا بين جبلين مملوءا بالخراف ، فلما عاد الى قومه قال : يا قوماه ! أسلموا لأن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

ويروى عن انس ايضا انهم احضروا للنبى صلى الله عليه وسلم ثمانين الف درهم فأفرغها على كليم ، ولم ينهض من مكانه دون أن يوزعها كلها . ويقول على رضى الله عنه : ونظرت اليه فى تلك الحال فكان قد ربط على بطنه حجرا من الجوع .

وارسل سلطان الى درويش من المتأخرين وزن ثلثمائة درهم من الذهب من الخراج وقال له : تصدق بها فى الحمام ، فذهب الى الحمام ، واعطاها جميعها للحمامى .

وقد تكلمنا فى هذا المعنى قبل ذلك فى باب الايثار ، فى مذهب النوريين ، واختصرنا على هذا ، والله اعلم .

---

(١) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٠٨) .
(٢) « المن » : وزن يساوى ٣ كيلو جرام .

كشف الحجاب السابع

فى الصوم

« قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام(١) » وقال النبى عليه السلام (خبرا عن الله عز وجل) : « الصوم لى وأنا أجزى به(٢) » ، لأنه عبادة سرية لا تتعلق قط بالظاهر ، وليس للغير فيها نصيب ، وجزاؤها بلا نهاية .

وقيل ان دخول الجنة للخلق بالرحمة ، والدرجة بالعبادة ، والخلود بجزاء الصوم لأن الله قال : « انا أجزى به » .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « الصوم نصف الطريقة » .

ورأيت من المشايخ من كانوا يصومون دائما ، ومن لم يصوموا غير رمضان ، فأولئك طلبا للأجر ، وهؤلاء تركا للاختيار والرياء .

ورأيت من كانوا يصومون دون أن يعلم أحد ، وحين كان يقدم لهم الطعام كانوا يأكلون ، وهذا اكثر موافقة للسنة . وقد ورد عن عائشة وحفصة رضى الله عنهما انه حين دخل عليهما النبى صلى الله عليه وسلم قالتا : « انا قد خبأنا لك حيسا ، قال عليه السلام : اما انى كنت أريد الصوم ، ولكن قربيه ؛ سأصوم صوما مكانه(٣) » .

ورأيت من كانوا يصومون الأيام البيض ، والعشرة المباركة ، ورجب وشعبان وشهر رمضان .

ورأيت من كانوا يصومون صوم داود صلوات الله عليه الذى قال عنه الرسول عليه السلام انه « خير الصيام » ، وهو صوم يوم ، وفطر يوم .

وذات مرة دخلت عند الشيخ احمد البخارى ، وكان قد وضع امامه طبقا من الحلوى وكان يأكل ، فأشار الى ، فقلت جريا على عادة الصبيان : انى

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٣ .

(٢) مكرر .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الصيام باب فضل الصيام فى سبيل الله لمن يطيقه (ج ٢ ص ٨٠٩) بلفظ مقارن ، وانظر جمع الجوامع ج ١ قسم ١١ ص ١٣٠٨ .

صائم . قال : لم ؟ قلت : موافقة لفلان ، فقال : لا يصح للخلق موافقة الخلق ، فتقدمت لأفطر ، فقال : أيها الشاب ! تبرأ أولا من موافقته ، ثم لا توافقنى أنا أيضا ؛ لأنى أيضا من الخلق ، وكلا هذين واحد .

•

وحقيقة الصوم هى الإمساك ، والطريقة كلها مضمرة فى هذا . وأقل درجة فى الصوم هى الجوع ، « والجوع طعام الله فى الأرض » . والجوع محمود بجميع الألسنة بين الخلق شرعا وعقلا . ويجب صوم شهر على العاقل ، البالغ ، المسلم ، الصحيح ، المقيم . وبدايته من رؤية هلال رمضان او كمال شهر شعبان . ويلزم لكل يوم النية الصحيحة والشرط الصادق .

وللامساك شروط ، فكما انك تحفظ الجوف من الطعام والشراب ، فانه يجب ان تحفظ العين من النظر الى الحرام والشهوة ، والأذن من الاستماع الى اللهو والغيبة . واللسان من قول اللغو والآفة ، والجسد من متابعة الدنيا ومخالفة الشرع ، وعندئذ يكون هذا هو الصوم الحقيقى ، « كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك وكل عضو فيك[1] » وقوله عليه السلام : رب صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش[2] » .

وانا على بن عثمان الجلابى رايت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت « يا رسول الله ! أوصنى » . قال : « احبس حواسك » . اى أن حبس حواسك الخمسة هو تمام المجاهدة ، لأن حصول كل العلوم يكون من هذه الأبواب الخمسة : الأول : البصر ، والثانى : السمع ، والثالث : الذوق ، والرابع : الشم ، والخامس : اللمس .

وهذه الحواس الخمس هى قواد العلم والعقل ، ولأربعة منها محل خاص ، وواحد منها شائع فى كل البدن ، فالعين محل البصر ، وذلك رؤية الكون واللون . والأذن محل السمع ، وذلك هو سماع الخبر والصوت . والحلق محل الذوق ، وذلك هو التذوق . والأنف محل الشم ، وذلك شميم

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه الا السهر . ورواه الطبرانى عن ابن عمر : « رب قائم حظه من قيامه السهر ، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٥) .

الرائحة . وليس للمس محل خاص لانه شائع فى جميع الأعضاء ، وهو معرفة النعومة ، والخشونة ، والحرارة ، والبرودة . ولا يوجد شيء قط من العلوم التى يعلمها الانسان لا يكون حدوثه عن هذه الأبواب الخمسة ، الا البديهى والهام الحق تعالى ، ولا يجوز فيه الآفة .

وفى كل باب من الحواس الخمس صفو وكدر ، وكما أنه للعقل والعلم والروح فيها مساغ ومجال ، فان للنفس والهوى ايضا فيها مجال ، لانها آلة مشتركة بين الطاعة والمعصية ، والسعادة والشقاء ، فولاية الحق في السمع والبصر هى الرؤية والاستماع ، وولاية النفس فيهما استماع الكذب ونظر الشهوة . وولاية الحق فى اللمس والذوق والشم هى موافقة أمره واتباعه ، وولاية النفس هى مخالفة أمر الحق والشريعة ، فيجب على الصائم أن يحبس كل هذه الحواس عن المخالفة بالموافقة ليكون صائما .

والصوم عن الطعام والشراب عمل الصبيان والعجائز . وينبغى الصوم عن الملجأ والمشرب والمهرب « كما قال الله تعالى : وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام(١) » وقال ايضا « جل جلاله : أفحسبتم انما خلقناكم عبثا(٢) » . فيجب الامساك عن اللهو والحرام لا عن الأكل الحلال . وانى لأعجب ممن يقول : أنا صائم صوم التطوع ويكف عن الفريضة ، لأن عدم ارتكاب المعصية فريضة ، والصيام الدائم سنة ، « فنعوذ بالله من قسوة القلب » ، وحين يعصم شخص من المعصية تكون كل احواله صوما .

ويقال ان سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه يوم ولد كان صائما ، ويوم خرج من الدنيا كان صائما . قيل : كيف كان ذلك ؟ قيل انه يوم ولد كان ذلك فى الصباح،والى صلاة العشاء لم يطعم اى لبن ، ولما خرج من الدنيا كان صائما . ويورد هذه الزواية ابو طلحة المالكى رضى الله عنه .

اما فى صوم الوصال(٣) فقد ورد نهى عن النبى عليه السلام ، لأنه حين كان يواصل الصيام كان الصحابة ايضا يوافقونه ، فقال : لا تواصلوا الصوم ، « انى لست كأحدكم ، انى ابيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى(٤) .. الخ » .

---

(١) سورة « الأنبياء » آية ٨ .
(٢) سورة « المؤمنون » آية ١١٥ .
(٣) صوم الوصال : أن يصوم الصائم يومين أو ثلاثة أو اكثر بافطار واحد .
(٤) قوله صلى الله عليه وسلم : « لست كأحدكم » انى لست كهيئتكم ، انى أظل عند ربى فيطعمنى ويسقينى « رواه مالك والترمذى عن أنس » .

وقد قال ارباب المجاهدة ان هذا النهى شفقة لا تحــريم ، وقالت طائفــة ان صوم الوصال مخالف للسنة . اما الحقيقة فهى ان صوم الوصال محال ، لانه اذا مضى النهار لا يكون فى الليل صيام ، وما دام الصوم لا ينعقــد ليلا فانه لا يكون وصالا .

ويروى عن سهل بن عبد الله انه كان ياكل مرة كل خمسة عشر يوما ، وعندما ياتى شهر رمضان لم يكن ياكل شيئا الى يوم العيد(١) ، وكان يصلى كل ليلة اربعمائة ركعة . وهذا خارج عن امكان الطاقة الآدمية ، ولا يمكن عمله الا بالمشرب الالهى ، وذلك تاييد يكون عينه غذاؤه ، فواحد يكون غذاؤه طعام الدنيا ، وآخر تأييد المولى .

ومعروف عن الشيخ ابى نصر السراج (الملقب) بطاووس الفقــراء ، وصاحب كتاب اللمع ، انه ورد بغداد فى شهر رمضان ، فأعطوه خلوة فى مسجد الشونيزيه(٢) ، واسلموا اليه امامة الدراويش ، فأمهم حتى العيد ، وكان يختم القرآن خمس مرات فى التراويح . وكان الخادم كل ليــلة يضـــع قرصا فى الخلوة ، فلما كان يوم العيد رحل رضى الله عنه ، ونظر الخـــادم فكانت الثلاثون قرصا فى مكانها(٣) .

ويروى عن على بن بكار(٤) انه قال : رايت حفصا المصيصى لم يأكل فى شهر رمضان شيئا قط الا فى اليوم الخامس عشر .

ويروى عن ابراهيم بن ادهم انه لم يكن يأكل شيئا فى شهر رمضـــان من بدايته الى نهايته ، وكان ذلك فى شهر تموز ، وكان يحصد القمح بالأجر كل يوم ويعطى ما يأخذه للفقراء ، ويصلى طوال الليل حتى الصـــباح . وراقبوه فلم يكن يأكل او ينام .

---

(١) اشار السراج الى هذا ، وذكر أنه سأل بعض المشايخ عن ذلك فقال : كان يفطر على المـــاء القراح وحده كل ليلة (اللمع ص ٢١٧) .
(٢) الشونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربى دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين : منهم الجنيد وجعفر الخلدى ورويم وسمنون المحب ، وهناك خانقاه للصوفية . (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٨) .
(٣) اورد ابو نصر السراج فى اللمع حكاية مماثلة ، قال : حكى عن أبى عبيد البسرى أنه كان اذا دخل رمضان دخل البيت وسد عليه البـــاب ، ويقول لامرأته : اطرحى كل ليلة رغيفا من كوة فى البيت ، ولا يخرج منه حتى يخرج رمضان ، فتدخل امراته البيت فاذا الثلاثون رغيفا موضوعة فى ناحية بالبيت (اللمع ص ٢١٧) .
(٤) أشار اليه القشيرى ، واورد له قولا . (انظر الرســـالة ج ١ ص ٣٠٢) .

ويرد عن الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله انه عندما رحل عن الدنيا كان قد صام أربعين اربعينية متواصلة .

ورأيت شيخا كان يصوم كل سنة اربعينيتين .

وحين توفى العالم ابو محمد الباثغرى[1] كنت حاضرا هناك ، وكان قد مضى عليه ثمانون يوما لم يطعم فيها شيئا ، ولم تفته أية صلاة جماعة .

ورايت درويشا من المتأخرين لم يأكل قط مدة ثمانين يوما ، ولم تفته أية صلاة جماعة .

وكان فى مرو شيخان اسم أحدهما مسعود ، واسم الآخر الشيخ ابو على « سياه » (اى الاسود) . قيل ان مسعودا ارسل اليه شخصا يقول له : حتام هذه الدعاوى ؟ تعال نقم معا اربعين يوما لا نأكل شيئا . فقال (ابو على) : لا ينبغى ، بل تعال نأكل كل يوم ثلاث وجبات ونبقى على طهارة واحدة أربعين يوما[2] . واشكال هذه المسألة ما يزال قائما .

والجهال يتمسكون بأن صوم الوصال غير جائز ، والأطباء ينكرون اصل هذا . وابين هذا بالتفصيل ليحل الكلام الاشكال ، ان شاء الله .

اعلم ان صوم الوصال من غير ان يتأتى خلل فى امر الله عز وجل : كرامة ، والكرامة محل الخصوص لا محل العموم ، ولما كان حكمها ليس عاما ، فانه لا يصح الأمر بها .

---

(١) ذكر الهجويرى انه كان من معاصريه من الصوفية من اهل ما وراء النهر . (انظر ج ١ ص ٣٩١) .

(٢) وردت فى اسرار التوحيد حكاية فى هذا المعنى عن ابى سعيد بن ابى الخير ملخصها ان واحدا من الأدعياء تحداه أن يمتكفا معا اربعين يوما ينالان فيها من الطعام شيئا يسيرا كشأن المعتكفين ، فقبل ابو سعيد ، وبينما كان ذلك الدعى يزداد ضعفا كل يوم كان ابو سعيد يزداد نشاطا وحيوية ، فلما تمت المدة طلب منه ابو سعيد ان يظلا معا اربعين يوما اخرى يأكلان فيها كل شيء ، دون ان يذهبا للطهارة ، وعجز الدعى منذ اليوم الأول ، وظل أبو سعيد على طهارة واحدة لمدة اربعين يوما . (أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٤٩ ــ ١٥٠) .

ولو كان اظهار الكرامة عاما لصار الايمان جبرا ، ولما كان للعارفين ثواب المعرفة ، فلما كان الرسول عليه السلام صاحب معجزة ، فقد صام صوم وصال علانية ، ونهى أهل الكرامات عن اظهار ذلك ، لأن شرط الكرامة الستر ، وشرط المعجزة الكشف ، وهذا فرق واضح بين المعجزة والكرامة ، وهذا المقدار كاف لمن يهتدى .

واصل اربعينيتهم يتعلق بحال موسى عليه السلام ، ويصح فى مقام المكالمة . وحين يريدون ان يسمعوا كلام الله عز وجل بالسر ، فانهم يجوعون اربعين يوما . وحين تمر ثلاثون يوما يستاكون ، ويظلون بعد ذلك عشرة ايام اخر ، فلا محالة ان يتحدث الله الى اسرارهم ، لأن كل ما يجوز للأنبياء على الاظهار يجوز للأولياء على الأسرار ، فلا يجوز سماع كلامه مع بقاء الطبع ، وينبغى للطبائع الاربع نفى المشرب والغذاء أربعين يوما لتقهر ، وتكون كل الولاية لصفاء المحبة ولطائف الروح .

وموافق لهذا باب الجوع ، ونكشف حقيقته ليصير معروفا ، وبالله العون .

باب الجوع وما يتعلق به :

« قوله تعالى : ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين(١) » .

« وقوله عليه السلام : بطن جائع أحب الى الله من سبعين عابدا غافلا » .

اعلم ان للجوع شرف كبير ، وهو محمود عند الأمم والملل ، لأن خاطر الجائع يكون احد من وجهة الظاهر ، وتكون قريحته أكثر تهذيبا ، وجسده أصح . ومن هيأوا أنفسهم بالرياضة لا يكون لهم شره كبير ، « لأن الجوع للنفس خضوع ، وللقلب خشوع » ، فجسد الجائع خاضع وقلبه جائع لأن القوة النفسانية تتلاشى به .

« وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجيعوا بطونكم ، واظمئوا اكبادكم ، واعروا اجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عيانا فى الدنيا(٢) » .

واذا كان للجسد من الجوع بلاء ، فان للقلب به ضياء ، وللروح به صفاء ، وللسر لقاء . وحين يدرك السر اللقاء ، وتجد الروح الصفاء ،

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٥٥ .

(٢) يروى عن عيسى عليه السلام : قال العراقى فى تخريج احاديث الاحياء جـ ٣ ص ٧٠ وهو حديث مرسل (ولم أجده) .

ويجد القلب الضياء ، فأى ضير اذا لقى الجسد البـلاء ، لأنه ليس للشبع خطر كبير ، فلو كان له خطر لمـا أشبعوا الدواب ، لأن الشبع شـأن الدواب ، والجوع علاج الرجال .

والجوع يعمر الباطن ، والشبع يعمر البطون ، فمن يقضى العمـر فى عمارة الباطن ليتفرد للحق ، ويتجرد من العلائق ، كيف يستوى مع من يقضى عمره فى عمارة بطنه ، وخدمة أهواء الجسد ؟ فواحد يلزمه العـالم من أجل الأكل ، وآخر يلزمه الأكل من أجل العبادة ، « كان المتقدمون يأكلون ليعيشوا ، وأنتم تعيشون لتأكلوا » ، فالفرق كبير بين هذا وذاك « الجوع طعام الصديقين ، ومسلك المريدين ، وقيد الشياطين بعـد قضـاء الله وقدره » ، وخُروج آدم عليه السلام من الجنة وابتعاده عن جوار ربه كان من أجل لقمـة .

وفى الحقيقة : من يكن فى الجوع مضطرا لا يكن جائعا ، لأن طالب الأكل يكون بالأكل ، فمن له درجة الجوع يكون تاركا للأكل ، لا ممنوعا من الأكل ، ومن يقل بترك الأكل فى حال وجوده ويتحمل عبئه ومشقته يكن جائمـا ، ولا يكون قيد شيطانه وحبس هوى نفسه الا بالجوع .

ويقول الكتانى(١) رحمه الله : « من حكم المريد ان يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة ، وكلامه ضرورة ، وأكله فاقة » .

والفاقة عند البعض أن يأكل المرء مرة كل يومين وليلتين ، وعنـد بعض كل ثلاثة أيام وليال ، وعند بعض كل أسبوع ، وعند بعض أن تأكل شيئا مرة كل أربعين يوما بلياليها ، وعند بعض كل أربعين يوما ، لأن المحققين على أن الجوع الصادق أن يؤكل مرة كل أربعين يوما ، وذلك حفظا للحياة ، وما يظهر خلال ذلك يكون الشره وغرور النفس والطبع ، « عافاك الله والحمد لله رب العالمين » ، لأن عروق أهل المعرفة برهان جميع أسرار

---

(١) الكتانى : محمد بن على بن جعفر الكتانى ، وكنيته أبو بكر . بغدادى الأصل ، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النورى . كان أحد الأئمة ، اقام بمكة مجاورا بها الى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة . وكان أبو محمد المرتعش يقول عنه : الكتانى سراج الحرم (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٧٣ ، الرسالة جـ ١ ص ١٥٥ ؛ طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٨٧ ، تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ١١٩ ، نفحات الأنس ص ١٧٧) .

الله ، وقلوبهم موضع نظره المتعال ، وقد فتحت أبواب من قلوبهم فى صدورهم، وجلس العقل والهوى على أعتابها ، فالروح تمد العقل ، والنفس تمد الهوى ، وكلما نالت الطبائع من الأغذية اكثر صارت النفس اقوى ، ووجد الهـوى تربية اكثر ، فتكون صولته فى الأعضـاء اكثر انشارا ويظهر فى كل عرق من انتشاره حجاب مختلف . وحين يمنع عنها الطالب الأغذية يصير الهوى اضعف ، والعقل اقوى ، وتصير قوة النفس اكثر انقطاعا من العـروق ، وتصبح الأسرار والبراهين اظهر ، فاذا عجزت النفس عن حركتها وفنى الهوى عن وجوده انمحت ارادة الباطل فى اظهار الحق ، وعندئذ يحصـل كل مراد المريد .

ويرد عن أبى العباس القصاب رحمه الله أنه قال : طاعتى ومعصيتى منوطتان بفعلين ، فحينما آكل اجد فى نفسى جذور المعـاصى ، وعندما أكف عن الطعام أجد فى نفسى أصل كل الطاعات .

وأما ثمرة الجوع فالمشاهدة ، لأن المجاهدة قائدته ، فالشبع مع المشاهدة خير من الجوع مع المجاهدة ، لأن المشاهدة معترك الرجال ، والمجـاهدة ملاعب الصبيان ، « فالشبع بشاهد الحق خـير من الجـوع بشـاهد الخـلق » .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، ولكنى اختصرت للتخفيف ، والله أعلم .

كشف الحجاب الثامن
في الحج

« قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا(١) » .

والحج من الفرائض المفروضة فرض عين على العبد ، فى حال صحة العقل ، والبلوغ والاسلام ، وحصول الاستطاعة ، ويكون ذلك بالاحرام بالميقات ، والوقوف فى عرفات ، وطواف الزيارة بالاجماع . ولا يجوز السعى بين الصفا والمروى بلا احرام فى الحرم ، على اختلاف .

ويسمون الحرم حرما لأن فيه مقام ابراهيم ، ولأنه محل الأمن . وقد كان لابراهيم عليه السلام مقامان : احدهما مقام الجسد ، والآخر مقام القلب ، فمقام الجسد هو مكة ، ومقام القلب هو الخلة . وكل من يقصد مقام جسده يجب أن يعرض عن جميع الشهوات واللذات ليكون محرما ، ويلبس الكفن ، ويكف اليد عن الصيد الحلال ، ويقيد جميع الحواس ، ويحضر فى عرفات ، ويذهب من هنالك الى المزدلفة والمشعر الحرام ، ويأخذ الجمرات ، ويطوف بالكعبة فى مكة ، ويذهب الى منى ويبقى هناك ثلاثة أيام ، ويرمى الجمرات بشروطها ، وهناك يطلق شعره ويضحى ويرتدى ملابسه ليكون حاجا .

وأيضا عندما يقصد شخص مقام قلبه يجب عليه أن يعرض عن المألوفات، ويقول بترك اللذات والراحات ، ويحرم عن ذكر الغير — ومن هنالك يكون الالتفات الى الكون محظورا — وعندئذ يقوم بعرفات المعرفة ، ويقصد من هناك الى مزدلفة الألفة ، ويبعث سره من هناك لطواف حرم تنزيه الحق، ويرمى جمرات الهوى والخواطر الفاسدة بمنى الأمان ، ويقدم النفس قربانا فى مذبح المجاهدة ، حتى يصل الى مقام الخلة ، فيكون دخول ذلك المقام(٢) أمانا من الأعداء وسيوفهم ، ودخول هذا المقام(٣) أمانا من القطيعة واخواتها .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحاج وفد الله يعطيهم ما سالوا ، ويستجيب لهم مادعوا(٤) » . وهذه الطائفة الأخرى لا هم يطلبون ،

(١) سورة « آل عمران » آية ٩٧ .
(٢) مقام الجسد أى الكعبة .
(٣) مقام القلب أى الخلة .
(٤) رواه البيهقى عن أنس : « الحجاج والعمار وفد الله يعطيهم ما سألوا ويستجيب لهم ما دعوا ويخلف عليهم ما أنفقوا (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٥٨) .

ولا هم يدعون ، ولكن يسلمون ، مثل ابراهيم عليه السلام ، « اذ قال له ربه أسلم ، قال اسلمت لرب العلمين(١) » .

وحين وصل ابراهيم الى مقام الخلة انفرد عن العلائق ، وقطع القلب عن الغير . وأراد الحق تعالى أن يجلوه على الخلق ، فوكل النمروذ ففصل بينه وبين والديه ، واشعل نارا ، وجاء ابليس وعمل المنجانيق ، وادخلوه جلد بقرة غير مدبوغ وخاطوه عليه ، ووضعوه على سلم المنجنيق ، فجاءه جبريل وامسك بسلم المنجنيق وقال له : هل لك من حاجة ؟ فقال ابراهيم عليه السلام : « اما اليك فلا » ، فقال : اليس لك ايضا حاجة الى الله عز وجل ؟ قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

ويقول محمد بن الفضل رحمه الله : انى لأعجب ممن يطلب بيته فى الدنيا ، لم لا يطلب مشاهدته فى قلبه ، لأنه قد يجده فى الكعبة وقد لا يجده ، ولكنه يجده فى قلبه لا محالة فى المشاهدة ، فاذا كانت زيارته لحجر ينظر اليه مرة فى السنة فريضة ، فان القلب الذى ينظر اليه فى اليوم ثلثمائة وستين مرة أولى بزيارته . ولكن لأهل التحقيق فى كل قدم من طريق مكة علامة ، وعندما يصلون الى الحرم يجدون من كل واحدة خلعة .

ويقول ابو يزيد رضى الله عنه : كل من يثاب على العبادة فى الغد لا يكون قد أدى العبادة اليوم ، لأن ثواب كل نفس من المجاهدة يحصل فى الحال .

ويقول ايضا رحمه الله : اول حج لى لم أر غير البيت ، وفى المرة الثانية رايت البيت ورب البيت ، وفى المرة الثالثة رايت الكل رب البيت ، ولم أر أى بيت .

وجملة القول : ان الحرم يكون حيثما تكون المشاهدة تعظيما ، ومن لا يكن كل العالم ميعاد قرب وخلوة انس له ، لم يعرف المحبة بعد. وحين يكون العبد مكاشفا يكون العالم كله حرما له ، وعندما يكون محجوبا يكون الحرم له اظلم عالم ، « فاظلم الأشياء دار الحبيب بلا حبيب » ، فقيمة المشاهدة هى الرضا فى محل الخلة ، التى جعل الله رؤية الكعبة سببا لها ، فليست القيمة للكعبة ، ولكن يجب التعلق بكل سبب للمسبب لنرى من اى مكمن تبدو عناية الحق تعالى ، ومن اين تظهر ، ومن اين يلوح مراد الطالب ، فلم يكن الحرم مراد الرجال من قطع المفازات والبوادى ، لأن رؤية الحرم حرام على الحبيب ، وانما كان المراد المجاهدة فى الشوق المقلق ، او قضاء فترة فى مشقة دائمة .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٣١ .

جاء رجل الى الجنيد رضى الله عنه فقال له الجنيد : من اين جئت ؟ فقال : كنت فى الحج . قال هل حججت ؟ قال : نعم . قال : هل رحلت عن جميع المعاصى منذ خرجت فى البداية من بيتك ورحلت عن وطنك ؟ فقال : كلا . قال : لم ترحل ، (ثم) قال : حين خرجت من البيت واقمت كل ليلة بمنزل ، هل قطعت فى هذا المقام مقاما من مقامات طريق الحق ؟ فقال : كلا . قال : لم تقطع منزلا ، (ثم)قال : حينما أحرمت فى الميقات ، هل تجردت من صفات البشرية كما تجردت من ثيابك ؟ فقال : كلا . قال : اذن لم تحرم ، (ثم) قال : حين وقفت بعرفات ، هل لاح الوقت فى كشف المشاهدة ؟ فقال : كلا . قال : اذن لم تقف بعرفات ، وقال : حين ذهبت الى المزدلفة وحصل مرادك ، هل تركت جميع الرغبات (النفسانية) ؟ فقال : كلا . قال : لم تذهب الى المزدلفة ، وقال : حين طفت (بالكعبة) ، هل رايت سرك فى محل تنزيه لطائف حضرة جمال الحق ؟ فقال : كلا . قال لم تطف ، (ثم) قال : حين سعيت بين الصفا والمروة ، هل ادركت مقام الصفاء ودرجة المروءة ؟ فقال : كلا . قال : انك لم تسع بعد ، وقال : حينما جئت الى منى ، هل سقط عنك مناك ؟ فقال : كلا . قال : لم تذهب الى منى بعد ، (ثم) قال: عندما ضحيت فى المنحر ، هل ضحيت برغبات نفسك ؟ فقال : كلا . قال : فلم تضح ، وقال : عندما رميت الجمرات ، هل رميت كل ما صحبت من المعانى النفسية ؟ فقال : كلا . قال : فلم تلق الجمرات بعد ، ولم تحج ، فعد وحج على هذا النحو حتى تصل الى مقام ابراهيم .

سمعت أن رجلا من العظماء كان قد جلس امام الكعبة واخذ يبكى ويقول :

(شعر عربى)

واصبحت يوم النفر والعيس ترحل ... وكان حدى الحادى بنا وهو معجل
اسايل عن سلمى فهل من مخبر ... بأن له علما بها أين تنزل
لقد افسدت حجى ونسكى وعمرتى ... وفى البين لى شغل عن الحج مشغل
سارجع من عامى لحجة قابل ... فان الذى قد كان لا يتقبل

ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله : رايت شابا وقف صامتا فى الموقف ، وقد اطرق براسه ، وكان الخلق جميعا يدعون وهو صامت ، فقلت له : ايها الشاب! لم لا تدعو انت أيضا ؟ فقال : لقد عرتنى وحشة فضاع منى وقتى ، ولا وجه لدعائى . فقلت له : ادع ، ليبلغك الله تعالى مرادك ببركة هذا الجمع . فأراد أن يرفع يديه ويدعو ، فندت عنه صرخة ، وفاضت معها روحه ،

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : جلس شاب ساكنا فى منى والخلق مشغولون بالأضحيات ، فنظرت اليه لأرى ماذا يصنع ، ومن هو . فقال : يا الهى ! ان جميع الخلق مشغولون بالأضاحى ؛ وانا اريد ان اضحى بنفسى فى حضرتك ، فتقبل منى ، قال هذا ، واشار بسبابته على حلقه ، وسقط ، فلما امعنت النظر كان قد مات .

والحج على نوعين : حج فى الغيبة ، وحج فى الحضور ، فمن يكن فى مكة فى الغيبة يكن كمن هو فى منزله ، لأنه لا غيبة أولى من غيبة . ومن يكن فى بيته فى الحضور يكن كمن هو حاضر فى الكعبة ، اذ ليس حضور أولى من حضور ، فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، وليست المجاهدة علة للمشاهدة ، بل سببا ، وليس للسبب تاثير كبير فى المعانى ، فالمقصود من الحج ليس رؤية البيت ، وانما كشف المشاهدة .

والآن فلآت بباب فى المشاهدة يتضمن هذا المعنى ، ليكون اقرب الى حصول مقصودك ، وبالله التوفيق .

باب المشاهدة :

« قال النبى عليه السلام : اجيعوا بطونكم ، ودعوا الحرص ، وأعروا اجسادكم ، وقصروا الامل ، واظمئوا اكبادكم ، ودعوا الدنيا ، لعلكم ترون الله بقلوبكم(١) » . وقال ايضا عليه السلام فى جواب سؤال جبريل عن الاحسان ، ان : « اعبد الله كأنك تراه ، فأن لم تكن تراه فانه يراك(٢) » .

واوحى (الله) الى داود عليه السلام أن : « يا داود ! اتدرى ما معرفتى ؟ قال : لا ، قال حياة القلب فى مشاهدتى » .

ومراد هذه الطائفة من المشاهدة : الرؤية بالقلب ، لأن (المشاهد) يرى الحق تعالى بالقلب فى الخلا والملا .

ويقول ابو العباس بن عطاء رحمه الله عن قول الله عز وجل : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا(٣) » اى : « ان الذين قالوا ربنا الله بالمجاهدة ، ثم استقاموا على بساط المشاهدة » .

---

(١) مكرر .
(٢) لأبى نعيم فى الحلية عن زيد بن أرقم (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧٤) .
(٣) سورة « فصلت » آية ٣٠ .

وحقيقة المشاهدة على نوعين : نوع (يتأتى) من صحة اليقين ؛ والآخر من غلبة المحبة ، لانه حين يصل المحب فى حال المحبة الى درجة ان تصير كليته كلها حديث الحبيب فانه لا يرى ســـواه ، كما يقول محمد بن واســـع رحمه الله : « ما رايت شيئا قط الا ورايت الله فيه » ، « اى بصحة اليقين » ، ويقول الشبلى رحمه الله : « ما رايت شيئا قط الا الله » ، يعنى بغلبة المحبة وغليان المشاهدة ؛ فواحد يرى الفعل وهو فى رؤيته للفعل يرى الفاعل بعين السر ، ويرى الفعل بعين الراس ؛ وواحد تسلبه المحبة من الكل ، فيرى الكل فاعلا ، فيكون طريق هذا(١) استدلاليا ، وطريق ذلك جذبيا(٢) . ومعنى ذلك ان واحدا يكون مستدلا ، حتى يجعل اثبات الدلايل الحقائق عيانا له ، وآخر يكون مجذوبا ومسلوبا ، اى ان الحق يجعل الدلائل والحقائق حجابا له ؛ « لأن من عرف شيئا لا يهاب غيره ، ومن أحب شيئا لا يطالع غيره ، (فالأحبة) تركوا المنازعة مع الله ، والاعتراض عليه فى أحكامه وافعاله » .

وقد اخبرنا الله تعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومعراجه ، وقال : « ما زاغ البصر وما طغى(٣) » ، (اى أنه) « من شدة الشوق الى الله » ، لميفتح عينيه على اى شىء حتى يرى ما يجب (ان يرى) بقلبه . وحينما يغمض المحب عينه عن الموجودات فانه يرى الموجد بقلبه لا محالة ، « لقوله تعالى : لقد راى من آيات ربه الكبرى(٤) » . « وقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم(٥) » . « اى ابصـــار العيون عن الشــــهوات ، وابصار القلوب عن المخلوقات » ، فكل من ينيم بالمجاهدة عين الراس عن الشهوة ، فانه لا محالة يرى الحق بعين السر ، « فمن كان أخلص مجاهدة ، كان اصدق مشاهدة » ، فمشاهدة الباطن مقرونة بمجاهدة الظاهر .

ويقول سهل بن عبد الله رحمه الله : « من غض بصره عن الله طرفة عين لا يهتدى طول عمره » ، لان ثمرة الالتفات الى الغير الترك للغير ؛ وكل من ترك للغير هلك ، فعمر اهل المشاهدة ما يكونون فيه فى المشاهدة ، وما يكون فى المغايبة لا يعدونه عمرا ، لأن هذا لهم موت على الحقيقـــة ، كما سئل أبو يزيد رحمه الله : كم عمرك ؟ قال : اربعة اعوام ، قالوا : كيف يكون

---

(١) اى الاول .
(٢) اى الثـــانى .
(٣) ســـورة « النجم » آية ١٧ .
(٤) ســـورة « النجم » آية ١٨ .
(٥) ســـورة « النـــور » آية ٣٠ .

هذا ؟ قال : سبعون عاما وانا فى حجاب الدنيا ، ولكنى اراه منذ اربعة اعوام ، ولا اعد زمن الحجاب من عمرى .

وقال الشبلى رحمه الله : « اللهم اخبأ الجنة والنار فى خبايا غيبك حتى تعبد بغير واسطة » . ولما كان للطبع نصيب فى الجنة ، فان الغافل اليوم بحكم اليقين يعبد من اجلها ، وحينما لا يكون للقلب نصيب من المحبة فان الغافل يكون لا محالة محجوبا عن المشاهدة .

وقد اخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم عائشة عن ليلة المعراج فقال : لم ار الحق . ويروى ابن عباس رضى الله عنهما أن الرسول عليه السلام قال له : رايت الحق . وقد بقى الخلق فى هذا الخلاف ، والأفضل أن يرفع المحب هذا الخلاف ، فأما قوله : رايته ، فقد عبر به عن عين السر ، وأما قوله ، لم اره، فقد إراد به عين الراس ، وكان واحد من هذين من أهل الباطن ، والثانى من أهل الظاهر ، فتكلم مع كل منهما على قدر حاله . وما دام السر قد راى ، فأى ضير اذا لم تكن (الرؤية) بواسطة العين ؟ .

ويقول الجنيد رحمه الله : لو قال لى الله : انظر الى ، أقول : لا ارى ، لأن العين فى المحبة : غير ، وغريب ، وغيرة الغيرية تمنعنى من الرؤية ، لأنى كنت اراه فى الدنيا بغير واسطة العين ، فكيف أتخذ واسطة فى العقبى .

(شعر عربى)

انى لأحسد ناظرى عليكا فاغض طرفى اذا نظرت اليكا

فهم يضنون برؤية الحبيب على العين ، لأن العين غريب .

قيل لشيخ : اتريد أن ترى الله ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال : عندما اراد موسى : لم يره ، ومحمد لم يرد ، فرأى . فارادتنا هى حجابنا الأعظم عن رؤية الحق تعالى ، لأن وجود الارادة فى المحبة مخالفة ، والمخالفة حجاب . واذا انقطعت الارادة فى الدنيا ، حصلت المشاهدة ، واذا ثبتت المشاهدة ، صارت الدنيا مثل العقبى والعقبى مثل الدنيا .

ويقول ابو يزيد رحمه الله : « ان لله عبادا لو حجبوا عن الله فى الدنيا والآخرة لارتدوا » . اى انه يرعاهم دائما بدوام المشاهدة ، ويحييهم بحياة محبتهم . وحين يحجب المكاشف يصير مطرودا لا محالة .

ويقول ذو النون رحمه الله : كنت أسير يوما فى مصر ، فرأيت صبية كانوا

يرجمون شابا ، فقلت : ماذا تريدون منه ؟ قالوا : انه مجنون ، قلت : اى علامة للجنون تبدو عليه ؟ قالوا : انه يقول انى ارى الله ، فقلت:ايها الشاب! اتقول هذا ام يتقولونه عليك ؟ قال : لا ، بل انا الذى اقول ، لانى اذا لم ار الحق لحظة وحجبت ، لما اطعته .

وقد اخطأ هنا قوم من اهل هذه الطريقة ، فهم يظنون ان رؤية القلوب والمشاهدة تكون عن طريق الصورة التى يثبتها الوهم فى القلب ، فى حال الذكر او الفكر ، وهذا تشبيه محض ، وضلال واضح ، لانه ليس لله تعالى حيز حتى يأخذ بالوهم حيزا فى القلب ، أو يطلع العقل على كيفيته ، وكل ما هو موهوم يكون من جنس الوهم ، وكل ما هو معقول من جنس العقل ، والحق تعالى وتقدس غير مجانس للأجناس ، واللطائف والكثائف جملة جنس لبعضها فى محل مضادتها لأحدها الآخر ، لأنه فى تحقيق التوحيد يكون الضد جنسا فى جانب القديم ، لأن الأضداد محدثات ، والمحدثات من جنس واحد ، « تعالى الله عن ذلك وعما يقول الظالمون » .

فالمشاهدة فى الدنيا تكون كالرؤية فى العقبى . ولما كانت الرؤية ، باجماع جميع الصحابة ، تجوز فى العقبى ، فان المشاهدة تجوز ايضا فى الدنيا . ويوجد فرق بين مخبر يخبر عن مشاهدة العقبى ، ومخبر يخبر عن مشاهدة الدنيا،وكل من يخبر عن هذين المعنيين يخبر بالاجازة لا بالدعوى. أى لا يقول أن الرؤية والمشاهدة جائزة ، أو لا يقول : ان لى مشاهدة ، لأن المشاهدة صفة السر ، والاخبار عبارة اللسان ، وحين يكون للسان خبر عن السر حتى انه يعبر عنه ، فان هذه لا تكون مشاهدة ، بل تكون ادعاء ، لأن الشيء الذى لا تثبت حقيقته فى العقول ، كيف يعبر عنه اللسان الا بمعنى المجاز ؟ » ، لأن المشاهدة قصور اللسان بحضور الجنان » . فالسكوت درجة اعلى من النطق ، لأن السكوت علامة المشاهدة ، والنطق علامة الشهادة ، وفرق كبير بين الشهادة على شيء ومشاهدة شيء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى درجة القرب والمحل الأعلى الذى خصه الحق تعالى به : « لا احصى ثناء عليك » لأنه كان فى المشاهدة ، والمشاهدة فى درجة المحبة : وحدة ، والتعبير فى الوحدة : غربة . ثم قال : « أنت كما اثنيت على نفسك(١) » : اى ان كلامك كلامى ، وثناءك ثنائى ، ولا ارى اللسان اهلا لأن يعبر عن حالى ، ولا أرى البيان يستحق أن يظهر حالى .

---

(١) مكرر .

ويقول قائل فى هذا المعنى :

(شـــعر عــربى)

تمنيت ان اهــوى فلمــا رايتـــه
بهت فلم املك لســـانا ولا طــرفا

هذه هى احكام المشـاهدة كاملة على سـبيل الاختصـار ، وبالله العــون والتوفيـــق .

كشف الحجاب التاسع
فى الصحبة مع
آدابها وأحكامها

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم نارا(١) » اى : ادبوهم .

« وقال النبى عليه السلام : حسن الأدب من الايمان(٢) » ، وقال أيضا : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى(٣) » .

فاعلم أن زينة وحلية جميع الأمور الدينية والدنيوية متعلقة بالآداب ، ولكل مقام من مقامات اصناف الخلق ادب ، والكافر والمسلم ، والموحد والملحد ، والسنى والمبتدع متفقون على ان حسن الأدب فى المعاملات طيب ، ولا يثبت اى رسم فى العالم بدون استعمال الأدب .

والآداب فى الناس : حفظ المروءة ، وفى الدين : حفظ السنة ، وفى المحبة ، حفظ الحرمة . وهذه الثلاثةمرتبطة ببعضها البعض ، لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعا للسنة ، وكل من لا يحفظ السنة لا يرعى الحرمة .

وحفظ الادب فى المعاملة يحصل من تعظيم المطلوب فى القلب ، وتعظيم الحق وشمائره من التقوى ، ومن يدس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة لا يكن له اى نصيب فى طريق التصوف . ولا يمنع السكر والغلبة الطالب من حفظ الآداب بأى حال ، لأن الادب يكونلهم عادة ، والعادة تكون قرين الطبيعة ، وسقوط الطبائع عن الحيوان فى اى حال محال ، ما دامت الحياة قائمة ، فطالما كانت اشخاصهم قائمة ، فانهم فى كل الاحوال تجرى عليهم آداب المتابعة ، أحيانا بالتكلف ، وأحيانا بدون تكلف ، فحين يكون حالهم الصحو ، فانهم يحفظون الآداب بالتكلف ، وعندما يكون حالهم السكر ، فان الحق تعالى يحفظ الأدب عليهم . وتارك الأدب لا يكون بأية صفة

---

(١) سورة « التحريم » آية ٦ .
(٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس : « حسن العهد من الايمان » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٢٢) .
(٣) رواه ابن السمعانى فى أدب الاملاء عن ابن مسعود (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢١) .

ولیـا ، « لأن المودة عند الآداب ؛ وحسن الآداب صفة الأحباب » ، وكل من يكرمه الحق تعالى ، فدليل ذلك أنه يحفظ عليه حكم آداب الدين ، وذلك على خلاف ما تقول طائفة من الملاحدة ــ لعنهم الله ــ من أن العبد عنـدما يصير مغلوبا فى المحبة ، يسقط عنه حكم المتابعة ، وسأبين هذا فى مكان آخر ان شـاء الله .

اما الآداب فعلى ثلاثة اقسام :

الأول : فى التوحيد ــ مع الحق عز وجل ، وذلك بأن يحفظ نفسـه من عدم الحرمة فى الخلا والملا ، فتكون معاملته فى الخلاء كما يفعل فى مشاهدة الملوك ، وفى الأخبار الصحاح ان النبى صلى الله عليه وسلم كان قد جلس يوما متربعا فجاء جبريل وقال : « يا محمد ! اجلس جلسة العبيد » . أى : اجلس عبدا كالعبيد فى حضرة الله تعالى .

ويقال ان الحارث المحاسبى لم يسند ظهره الى حائط اربعين سنة ليـلا ونهارا ، ولم يجلس الا جاثيا على ركبتيه ، فسالوه : لماذا تتعب نفسك ؟ قال : انى لأخجل أن اجلس فى مشاهدة الحق غير جلسة العبيد .

وانا على بن عثمان الجلابى ، رضى الله عنه ، رايت رجلا فى نهاية ديار خراسان ، بقرية يسمونها « كمند(١) » ــ وذلك الرجل كان معروفا ويسمونه أديب الكمندى(٢) ــ وكان رجلا فاضلا تماما ، وقد وقف عشرين عاما على قدميه ، ولم يكن يجلس الا لتشهد الصلاة ، فسئل عن علة ذلك ، فقال : ليس لى درجة الجلوس فى مشاهدة الحق بعد .

وسئل أبو يزيد رحمه الله : « بم وجدت ما وجدت ؟ قال : بحسـن الصحبة مع الله عز وجل » .

ويجب على العالمين حفظ الآداب فى مشاهدة معبـودهم ، ويتعلمون من زليخا انها حين خلت بيوسف وطلبت منه اجابة حاجتها ، كانت قد غطت أولا وجه صنمها بشىء ، فسألها يوسف عليه السلام : ما تفعلين ؟ قالت : سترت وجه المعبود حتى لا يرانى بلاحرمة ؛ لأن ذلك ليس من شرط الأدب . وحين

---

(١) كمند : كمنده ، ذكرها ياقوت فقال انها من قرى الصغد من نواحى كرمينية : ينسب اليها خالد بن ابراهيم البخارى الكرمسينى الكمنـدى (معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٠٥) .
(٢) اشار اليه الهجويرى على انه من معاصريه (انظر جـ ١ ص ٣٨٩) واورد له الجامى ترجمة لا تزيد عما أورده الهجويرى عنه فى كشف المحجوب (انظر نفحات الأنس ص ٣١٨) .

وصل يوسف الى يعقوب واكرمه الله تعالى بوصاله ، صير زليخا شابة وهداها الى الاسلام وزوجها من يوسف ، وقصدها يوسف فنفرت زليخا منه ، فقال : يا زليخا ! انا محبوبك ، فلم تفرين منى ؟ هل انمحت محبتى من قلبك ؟ قالت : لا والله ، بل زادت ، ولكنى قد حفظت دائما حرمة معبودى. ويوم ان خلوت بك كان معبودى صنما ولم يكن يرى قط ، ولكن بحكم انه كان له عينان لا تبصران ، فقد غطيتهما بشىء حتى ترتفع عنى تهمة عدم الادب ، والآن لى معبود بصير بلا مقلة وآلة ، وهو يرانى على اية صفة اكون ، ولا اريد ان اكون تاركة للآداب .

ولما حمل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المعراج ، لم ينظر الى الكونين ، حفظا للأدب ، كما قال الله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » اى : ما زاغ البصر برؤية الدنيا ، وما طغى برؤية العقبى » .

والقسم الثانى : الادب مع النفس فى المعاملة ، وذلك بأن يراعى المروءة فى كل الاحوال مع نفسه ، فما يكون فى صحبة الخلق والحق سوء أدب لا يعمله مع نفسه . ومثال ذلك ان لا يقول غير الصدق ، ولا يجيز ان يجرى على لسانه خلاف ما يعرف ، لأن فى هذا عدم مروءة . وثانيا : ان يأكل قليلا حتى يلزمه التقليل من الذهاب الى المطهرة ، وثالثا : أن لا ينظر الى شىء من نفسه لا يجوز لغيره النظر اليه ، لانه يرد عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه انه لم ينظر الى عورته قط ، وسئل عن ذلك ، فقال : انى لأخجل من نفسى أن انظر الى شىء يحرم النظر الى جنسه .

والقسم الثالث : الادب مع الخلق فى الصحبة ، واهم آداب صحبة الخلق يكون فى السفر والحضر بحسن المعاملة وحفظ السنة . ولا يمكن فصل هذه الانواع الثلاثة من الآداب عن بعضها البعض .

والآن : فلأرتب هذا على قدر الامكان ، ليكون طريقه اسهل عليك وعلى القراء ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله .

باب الصحبة وما يتعلق بها :

« قال الله تبارك وتعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا(١) » اى بحسن رعايتهم الاخوان » .

« وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث يصفين لك ود اخيك :

---

(١) سورة « مريم » آية ٩٦ .

تسلم عليه ان لقيته ، وتوسع له فى المجالس ، وتدعوه بأحب اسمائه اليه(١) » . هذا ما امر به الرسول من حسن الرعاية وحفظ الحرمة .

« وقوله تعالى : انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم(٢) » .

« وقوله عليه السلام : اكثروا من الاخوان فان ربكم حيى كريم يستحى ان يعذب عبده بين اخوانه يوم القيامة » .

ولكن يجب ان تكون الصحبة من أجل الله عز وجل ، لا من أجل هوى النفس وحصول المراد والأغراض ، ليكون العبد مشكورا بحفظ آدابها .

قال مالك بن دينار لصهره المغيرة بن شعبة(٣) رضى الله عنهما : « كل أخ وصاحب لم تستفد منه فى دينك خيرا فانبذ عنك صحبته حتى تسلم » . ومعنى هذا انه يجب على المرء أن يصحب من هو أكبر او أصغر منه ، لأنك اذا صحبت من هو اكبر منك فانك تستفيد ، واذا صحبت من هو أصغر منك فانه يستفيد منك فى الدين ، لأنه اذا تعلم منك شيئا دينيا تحصل فائدة دينية ، واذا تعلمت أنت شيئا ، فكذلك . ولذلك قال النبى عليه السلام : « ان من تمام التقوى تعليم من لم يعلم » .

ويرد عن يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله انه قال : بئس الصديق صديق تحتاج ان تقول له اذكرنى فى دعائك ، وبئس الصديق صديق تحتاج أن تعيش معه بالمداراة ، وبئس الصديق صديق يلجئك الى الاعتذار فى زلة كانت منك » . لأن العذر شرط الغربة ، والغربة جفاء فى الصحبة .

« وقال النبى صلى الله عليه وسلم : المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل (٤)» ، فاذا صحب الاخيار فهو خير وان يكن شريرا ، لان تلك الصحبة تجعله خيرا ، واذا صحب الأشرار فهو شرير وان يكن خيرا ، لأنه

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم فى المستدرك عن عثمان بن طلحة الحجبى ، والبيهقى عن عمر موقوفا وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٣٨) .
(٢) سورة « الحجرات » آية ١٠ .
(٣) المغيرة بن شعبة : كان والى الكوفة من قبل معاوية ، وفى سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منها المغيرة ثم عاد اليها فطعن ، فمات . (مروج الذهب جـ ٢ ص ٦٧ — ٦٨) .
(٤) رواه أبو داود (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٥٤) .

يرضى بما فيهم ، فاذا رضى بالشر فانه يصير شريرا وان يكن خيرا ، فقد جاء فى الحكايات ان رجلا كان يطوف بالكعبة ويقول : « اللهم أصلح اخوانى! فقيل له : لم لم تدع لك فى هذا المقام ؟ فقال رحمه الله : « ان لى اخوانا ارجع اليهم،فان صلحوا صلحت معهم ، وان فسدوا فسدت معهم » ، فلما كان اساس صلاحى هو صحبة الصالحين فانى أدعو لاخوانى ليتحقق مقصودى ومقصودهم ان شاء الله .

واساس هذا كله ان النفس تسكن الى العادة ، والمرء بين اية جماعة تكون ، يعتاد افعالهم ، لأن كل المعاملات والرغبات الحق والباطلة مركبة فيه ، فكل ما يراه من معاملاتهم وميولهم ، يتربى فيه ويغلب على ميوله الاخرى .

وللصحبة اثر عظيم فى الطبع ، وللعادة صولة صعبة ، الى حد ان البازى يصير عالما بصحبة الآدمى ، والببغاء يصير ناطقا بالتعلم ، والحصان يتحول بالرياضة من العادة البهيمية الى العادة الآدمية ، وامثال هذا . وهذا كله دليل على تأثير الصحبة ، لأن عاداتهم العزيزة قد غلبت .

ومشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم يطلبون اولا حق الصحبة من احدهم الآخر ، ويأمرون المريدين بذلك ، الى حد ان صارت الصحبة بينهم كالفريضة . وقد كتب المشايخ رضى الله عنهم قبل هذا كتبا فى آداب صحبة هذه الطائفة مشروحة ، مثل الجنيد رضى الله عنه ، فقد الف كتابا اسمه : « تصحيح الارادة » . والف أحمد بن خضرويه البلخى كتابا اسمه : « الرعاية بحقوق الله » ؛ ومحمد بن على الترمذى رحمه الله الف ايضا كتابا أسماه : « بيان آداب المريدين » ، وابو القاسم الحكيم رضى الله عنه ، وابو بكر الوراق ، وسهل بن عبد الله ، وابو عبد الرحمن السلمى ، والأستاذ ابو القاسم القشيرى رحمة الله عليهم اجمعين الفوا ايضا كتبا مستوفاة فى هذا المعنى ، وقد كان هؤلاء جميعا ائمة هذا الفن . ومقصودى من هذا الكتاب هو أن كل من يملكه لايحتاج الى كتب اخرى . وقد قلت قبل هذا فى مقدمة الكتاب ، فى حال سؤالك ، ان هذا الكتاب غنية لك ولطلاب هذه الطريقة .

والآن ارتب هذه الأبواب فى أنواع آداب معاملاتهم ، ان شاء الله تعالى وحده ، وكفى .

باب آدابهم فى الصحبة :

بما انك عرفت أن أهم الأشياء للمريد هو حق الصحبة ، فلا محالة أن تكون رعاية الصحبة فريضة ، لأن الوحدة هلاك للمريد ، « لقوله عليه

السلام : الشيطان مع الواحد(١) » ، « وقوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم(٢) » . فلا آفة للمريد مثل الوحدة .

وقد وجدت فى الحكايات أن مريدا من مريدى الجنيد رضى الله عنه ، خيل اليه انه وصل الى درجة الكمال ، وقال لنفسه : ان الوحدة افضل لى من الصحبة ، واعتكف فى زاوية ، واعرض عن صحبة الجماعة ، فلما اقبل الليل جىء بجمل ، وقيل له : ينبغى لك أن تذهب الى الجنة ، فركبه واخذ يسير حتى بدا له مكان بهيج ، وكان فيه جماعة حسان الصور ، واطعمة طيبة ، ومياه جارية ، واستبقوه حتى وقت السحر ، ثم نام ، فلما استيقظ راى نفسه على باب صومعته ، حتى استشرت فيه رعونة الآدمية ، واظهرت نخوة الشباب اثرها فى قلبه ، فأطلق لسان الدعوى ، وكان يقول : ان لى كذا وكذا ، حتى ابلغ الخبر الجنيد ، فنهض وجاء الى صومعته ، فوجده وقد ملىء راسه زهوا ، وتمكن فى دماغه الكبر ، فسأله الجنيد عن حاله ، فذكر للجنيد كل شىء ، فقال له رضى الله عنه : عندما تذهب الليلة الى ذلك المكان ، قل : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ثلاث مرات . فلما جن الليل ، حملوه ، وكان فى قلبه ينكر علم الجنيد ، فلما انقضى زمن قال : (لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم) ثلاث مرات على سبيل التجربة ، فضج أولئك جميعا وانصرفوا ، ووجد نفسه جالسا فى وسط مزبلة ، وقد احاطت به بعض عظام الرمم . ووقف على خطئه ، وتعلق (بأهداب) التوبة ، ورجع الى صحبة أصحابه .

وليس للمريد آفة كالوحدة . وشرط صحبتهم هو أن يجعلوا كل انسان فى درجته : مثل الاحترام مع الشيوخ ، والانبساط مع الأقران ، والشفقة مع الصغار ، فيجعلوا الشيوخ فى درجة الآباء ، والأقران فى درجة الاخوان ، والصغار فى درجة الأبناء ، ويتبرأوا من الحقد ، ويحترزوا من الحسد ، ويعرضوا عن البغضاء ، ولا يضنوا بالنصيحة على احد .

ولا يجوز فى الصحبة أن يغتاب احدهم الآخر او يخونه او ينكر عليه فى القول والفعل ، لأنه ما دامت الصحبة فى البداية من أجل الله عز وجل فيجب الا تقطع بفعل او قول يصدر من العبد .

---

(١) رواه البزاز عن ابى هريرة : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .
(٢) سورة « المجادلة » آية ٧ .

وقد سألت شيخ المشايخ ابا القاسم الجرجانى رضى الله عنه : ما شرط الصحبة ؟ قال : الا تطلب حظك فى الصحبة ، لأن جميع آفات الصحبة ناجمة من ان يطلب كل شخص فيها حظه . والوحدة خير لصاحب الحظ من الصحبة ، وحين يتخلى عن حظه ويرعى حظوظ اصحابه يكون مصيبا فى الصحبة .

يقول واحد من الدراويش : خرجت مرة من الكوفة قاصدا مكة ، فوجدت ابراهيم الخواص رضى الله عنه فى الطريق ، فطلبت منه الصحبة ، فقال : يلزم للصحبة امير وتابع ، فهل تريد ان تكون انت الامير ام انا ؟ فقلت : كن انت الأمير ، فقال : لا تخرج الآن عن أمر الأمير ، فقلت : قبلت . قال : فلما وصلنا منزلا قال : اجلس ، ففعلت ، فنزح الماء من البئر ، وكان الجو باردا ، فجمع الحطب واشعل النار ، واكرمنى . وكنت كلما قصدت القيام بعمل كان يقول لى : احفظ شرط الأمر . فلما اقبل الليل هطل مطر عظيم ، فخلع مرقعته ووقف على راسى حتى الصباح وقد بسط المرقعة على يديه ، وكنت فى شدة الخجل ، وبحكم الشرط لم استطع ان اقول شيئا ، وعندما طلع الفجر قلت : ايها الشيخ ! انا اليوم الأمير ، فقال : حسن . وعندما بلغنا منزلا قام بنفس الخدمات ، فقلت : لا تخرج عن امر الأمير ، فقال : ان الشخص الذى يخرج عن امر الأمير هو الذى يأمر الأمير بخدمته . وصحبنى على هذه الصفة حتى مكة ، ولما جئنا مكة فررت خجلا منه ، حتى رآنى فى منى ، وقال لى : يا بنى ! عليك ان تصحب الدراويش كما صحبتك(١) .

« روى عن انس بن مالك انه قال : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وخدمته ، فوالله ما قال لى اف قط ، وما قال بشىء فعلت : لم فعلت كذا ، ولا بشىء لم افعله : الا فعلت كذا » .

والدراويش جميعا على قسمين : قسم مقيم ، وقسم مسافر . وسنة المشايخ رضى الله عنهم انه يجب على المسافرين ان يفضلوا المقيمين على انفسهم لأنهم يسعون على نصيبهم ، والمقيمون اقاموا لحق الخدمة . وفى المسافرين علامة الطلب ، وفى المقيمين امارة الادراك ، فالفضل يكون لمن ادرك واقام واستراح من الطلب ، على من (لا يزال) يطلب . ويجب على المقيمين ان يفضلوا المسافرين على انفسهم لأنهم اصحاب علائق ، والمسافرون قد تجردوا من العلائق . والمسافرون فى الطلب ، والمقيمون فى الوقفة .

---

(١) روى السراج هذه القصة عن ابى على الرباطى انه قال : صحبت عبد الله المروزى .. الخ (انظر اللمع ص ٢٣٦ — ٢٣٧) .

ويجب على الشيوخ أن يفضلوا الشبان على أنفسهم ، لأنهم أقرب عهدا فى الدنيا ، وذنوبهم أقل . ويجب على الشبان أن يفضلوا الشيوخ على أنفسهم لأنهم أسبق فى العبادة ، وأكثر تقدما فى الخدمة . وما دام الأمر هكذا فان كلا الفريقين يدرك النجاة بأحدهما الآخر ، والا هلكوا .

فصل : واعلم أن حقيقة الآداب هى اجتماع خصال الخير ، وقد سميت المادبة مادبة لأن كل ما يأتى عليها يكون خيرا كله ، « فالذى اجتمع فيه خصال الخير فهو آديب » . وقد جرت العادة على أن يسمى الشخص الذى يعرف علم اللغة والنحو والصرف أديبا ، وعند هذه الطائفة : « الأدب هو الوقوف مع المستحسنات ، ومعناه أن يعامل الله فى الأدب سرا وعلانية ، واذا كنت كذلك كنت أديبا وان كنت أعجميا ، وان لم تكن كذلك تكون على ضده » .

وسئل واحد من المشايخ رضى الله عنهم : ما شرط الأدب ؟ قال : أجيبك ببيت سمعته(١) ، معناه أن الأدب هو انك اذا تكلمت يكون قولك صدقا ، واذا مارست المعاملة تكون معاملتك حقا . وقول الصدق مليح ولو كان غليظا ، والمعاملة الطيبة حسنة ولو كانت صعبة ، فاذا تحدث المرء يكون مصيبا فى قوله ، وحين يصمت يكون محقا فى صمته .

وحسنا فرق الشيخ أبو نصر السراج ، رحمه الله ، صاحب كتاب اللمع فى كتابه بين الآداب ، حيث قال :

الناس فى الأدب على ثلاث طبقات : اما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب .

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات الى الخواطر ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب(٢) » .

---

(١) الشيخ المشار اليه هو أبو العباس بن عطاء ، والبيت هو :
اذا نطقت جاءت بكل ملاحة
وان سكتت جاءت بكل مليح
(اللمع ص ١٩٦)

(٢) هنا اختصار لبعض العبارات الواردة فى نص السراج : انظر النص الكامل فى اللمع ص ١٩٥ .

وهذا كلام جامع ، وسيأتي تفصيله مفرقا فى الكتاب ان شاء الله عز وجــل .

باب آداب الاقامة فى الصحبة :

حين يختار درويش الاقامة بدون سفر ، فشرط أدبه انه حين يأتيه مسافر ان يتقدم اليه بحكم الحرمة مسرورا ، ويستقبله باحترام ، ويعتبره واحدا من ضيوف ابراهيم الخليل — عليه السلام — المكرمين ، ويفعل معــه ما فعله ابراهيم عليه السلام ، اذ قدم ما كان لديه بلا تكلف ، كما قال الله عز وجل : « فجاء بعجل سمين(١) » ، ولا يسأله من اين جئت ؟ أو : الى اين تذهب ؟ أو : ما اسمك ؟ . ووفقا لحكم الأدب يرى أن مجيئه من عند الحق ، وذهابه الى الحق ، واسمه عبد الحق ، ثم ينظر : هل راحتــه تكون فى الخلوة أو الصحبة ؟ فاذا اختار الخلوة يخلى له مكانا ، واذا اختار الصحبة يتكلف بحكم الأنس والانبساط للصحبة . وحين ينام فى الليل يجب ان يضع المقيم غطاء على اقدامه ، واذا لم يدعه وقال : لست معتادا ذلك ، فلا يتشبث به حتى لا يثقل عليه . وفى اليوم التالى يعرض عليه (الذهاب الى) الحمام ، ويقوده الى انظف الحمامات ، ويحفظ ملابسه عن مآزر الحمام ، ولا يدع خادما اجنبيا يقوم بخدمته ، اذ يجب أن يخدمه واحد من جنسه فى الاعتقاد حتى يتطهر ذلك الشخص من جميع الآفات بتطهيره . ويجب أن يحك له ظهره وركبتيه وأكفاف قدميه ويديه ، ولا يشترط أكثر من هذا . واذا كان فى استطاعة المقيم أن يصنع له ثوبا جديدا فلا يقصر ، واذا لم يستطع فلا يتكلف ، ويغسل له خرقته ليلبسها عندما يخرج من الحمــام .

وعندما يعود من الحمام ويأتى يوم آخر ، ويكون فى تلك المدينة شيخ أو جماعة من أئمة المسلمين يقول له : اذا استصوبت فاننا نذهب لزيارتهم ، فاذا قبل كان صوابا ، واذا قال انه لا يرغب ، فلا ينكر عليه ذلك ، لأنه يأتى على طلاب الحق وقت لا يملكون فيه حتى قلوبهم : الم تر انه عندما قالوا لابراهيم الخواص رحمه الله : حدثنا عن عجائب اسفارك ، قال : اعجبها أن الخضر النبى طلب صحبتى فلم اجبه ، ولم اشأ فى تلك الساعة ان يكون لأحد سوى الحق لدى قلبى خطر ومقدار يجب مراعاتهما .

ولا يليق البته ان يأخذ المقيم المسافر للسلام على ذوى الجاه ، أو الى ولائمهم ، أو الى مآتمهم ، أو عيادة مرضاهم . وكل مقيم يطمع فى أن يجعل من المسافر آلة لتكدية ويحمله من هذا المنزل الى ذلك ، فعدم خدمته له أولى

---

(١) سورة « الذاريات » آية ٢٦ .

من أن يذل جسده ويؤذى قلبه . وأنا على بن عثمان الجلابى لم يكن أشق وأصعب على فى أسفارى من الخدم الجهلة والمقيمين الأدناس الذين كانوا يصحبوننى من وقت لآخر ، ويأخذوننى من منزل هذا السيد الى منزل هذا الدهقان ، وكنت أذهب معهم كارها فى الباطن ، ومتسامحا فى الظاهر . وكل ما كان المقيمون يفعلونه معى كان مخالفا للطريقة ، وقد نذرت أننى اذا جاء وقت وأصبحت مقيما الا افعل هذا مع المسافرين . وليس فى صحبة غير المؤدبين فائدة أكثر من أن لا تفعل ما لا يروقك من معاملاتهم .

وأيضا اذا انبسط درويش مسافر وصحبه لعدة أيام ، وأظهر الرغبة فى حاجة دنيوية ، فلا حيلة للمقيم الا أن يقضى له حاجته . واذا كان هذا المسافر مدعيا وعديم الهمة ، فينبغى على المقيم الا يقلل من همته ويتبعه فى مطالبه غير الجائزة ، لأن هذه طريقة المنقطعين ، فاذا لزمه الذهاب الى السوق للبيع والشراء ، أو الى باب سلطان للمونة ، فما شأنه بصحبة المنقطعين ؟ .

ويقال ان الجنيد رضى الله عنه كان قد جلس مع أصحابه بحكم الرياضة، فدخل مسافر ، فتكلفوا من أجله وأحضروا له طعاما ، فقال : يلزمنى غير هذا ، الشىء الفلانى ، فقال له الجنيد : ينبغى لك أن تذهب الى السوق ، لأنك رجل أسواق لا رجل مساجد وصوامع .

ذات مرة خرجت من دمشق مع اثنين من الدراويش بقصد زيارة ابن العلاء(١) ، وكان فى روستاق الرملة(٢) ، فقلنا لأحدنا الآخر فى الطريق : ينبغى لكل منا أن يفكر مع نفسه فى واقعة ليخبرنا ذلك الشيخ عما نبطن وتنحل واقعتنا . وقلت لنفسى : يلزمنى منه أشعار ومناجاة الحسين بن منصور ، وقال الآخر : يلزمنى أن يدعو لى ليشفى طحالى ، وقال الثالث : تلزم لى حلوى صابونية . فلما وصلنا اليه — وكان قد أمر فكتبوا كراسة

---

(١) ابن العلاء : الشيخ زكى بن علاء : من مشايخ الشام المعاصرين للهجويرى ، أشار اليه الهجويرى وذكر أنه كان شعلة من شعلات المحبة ، ذا آيات وبراهين ظاهرة (انظر جـ ١ ص ٣٨٧) .

(٢) « الرملة » : مدينة عظيمة بفلسطين ، وكانت رباطا للمسلمين ، وبينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . وهى كورة من فلسطين . وكانت دار ملك داود وسليمان . ولما ولى الوليد بن عبد الملك وولى أخاه سليمان جند فلسطين نزل « لد » ثم نزل « الرملة » ومصرها وكان أول ما بنى فيها قصره (معجم البلدان جـ ٢ ص ٨١٧) .

آشعار ومناجاة الحسين بن منصور — فوضعوها امامى ، ومسح بيده على طحال ذلك الدرويش فشفى طحاله ، وقال للآخر : ان الحلوى الصابونية غذاء العونة وانت تلبس لباس أولياء الله ، ولا يستقيم لباس الأولياء مع مطالب المعونة ، فاختر واحدا منهما .

وجملة القول انه لا يجب على المقيم الا رعاية من يكون مشغولا برعاية الحق وتاركا لحظ نفسه ، واذا اقام احد فى حظوظ نفسه فيجب على الآخر ان يخالفه ، فاذا أخذ ايضا بترك حظه واقام فى حفظه ، فجائز ، ليكون فى كلا الحالين قد سلك الطريق لا قطع الطريق .

ومعروف فى اخبار النبى عليه السلام انه كان قد آخى بين سلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى ، وكانا كلاهما من كبار أهل الصفة ومن رؤساء وارباب الباطن . وذات يوم دخل سلمان بيت ابى ذر للزيارة ، فشكت زوجة ابى ذر الى سلمان من ابى ذر قائلة : ان اخاك لا يأكل شيئا نهارا ، ولا ينام ليلا . فقال سلمان : احضرى ماكولا ، وعندما أحضرته قال لأبى ذر : يا اخى ! ينبغى ان تأكل معى ، لأن هذا الصيام ليس فريضة عليك ، فوافقه ابو ذر ، فلما اقبل الليل قال له : يا اخى ! يجب ان ترافقنى فى النوم ، « وفى الأثر : ان لجسدك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لربك عليك حقا(١) » . ولما كان اليوم التالى جاء ابو ذر الى النبى عليه السلام فقال له : ياابا ذر! انى اقول ما قاله سلمان بالأمس : « ان لجسدك عليك حقا » . ولما كان ابو ذر قد ترك حظوظه ، فقد أقام سلمان فى حظوظه ، وترك ورده . وكل ما تفعله على هذا الأصل يكون صحيحا ومحكما .

وفى وقت ما كنت اعيش فى ديار العراق ، فى طلب (اسباب) الدنيا واتلافها ، وقد تجمع على دين كبير ، وكان على أن اتحمل فضول كل شخص ، وكان القوم قد اقبلوا على ، وعجزت فى مشقة حصول اهوائهم ، فكتب الى سيد من سادات الوقت رسالة يقول فيهــا : حذار يا بنى ! لا تشغل قلبك عن الله عز وجل باراحة من هو مشغول بهواه ، فاذا وجدت قلبا اعز من قلبك فانه يجوز أن تشغل قلبك باراحته ، والا فكف عن ذلك الفعل ، لأن الله عز وجل كاف عباده . فاسترحت فى الحال بهذا الكلام .

هذه هى احكام المقيمين فى صحبة المسافرين ، على سبيل الاختصار وبالله التوفيق .

---

(١) « ان لجسدك عليك حقا .. الخ (راجع الطبرى ج ١٠ ص ٥١٧ وما بعدها ، سنن الدارمى ج ٢ ص ١٣٣ ، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٨) .

باب الصحبة فى السفر وآدابه :

حين يختار درويش السفر بلا اقامة ، فشرط أدبه اولا هو ان يسافر من اجل الله تعالي لا لمتابعة الهوى . وكما يسافر بالظاهر ، فانه يسافر أيضا عن اهوائه بالباطن ، ويكون دائما على طهارة ، ولا يضيع اوراده . ويجب أن يكون مراده من هذا السفر : اما حج ، أو غزو ، أو زيارة موضع ، أو تحصيل فائدة ، أو طلب علم ، أو رؤية شيخ من المشايخ ، والا يكون مخطئا فى ذلك السفر .

ولا مناص له فى هذا السفر من مرقعة وسجادة وعصا وركوة وحبل وحذاء أو نعل ، ليستر عورته بالمرقعة ، ويصلى على السجادة ، ويتطهـر بالركوة ، ويدفع الآفات عن نفسه بالعصا ويكون له فيها مآرب أخرى ، ويضع الحذاء فى قدميه فى حال الطهارة حتي يصل الي السجادة . واذا أخذ شخص ادوات أكثر من هذه لحفظ السنة مثل : المشط والابرة ومقلمة الأظافر والمكحلة فجائز . وأيضا اذا أخذ شخص ادوات أكثر من هـذه ليتزين ويتجمل ، فلننظر لنرى فى اى مقام هو ، فاذا كان فى مقام الارادة ، فكل من هذه يكون قيدا وصنما وسدا وحجابا ، وذلك هو أساس اظهار رعونة نفسه . واذا كان فى مقام التمكين والاستقامة فمسلم له هـذا وأكثر من هذا .

وقد سمعت من الشيخ ابى مسلم الفارسى ، رضى الله عنه ، قال : ذهبت يوما عند الشيخ ابى سعيد بن ابى الخير رضى الله عنه بقصد الزيارة ، فوجدته نائما على أربع حشايا فوق تخت وقد وضع ساقا على الأخرى ، وارتدى عباءة مصرية ، وكنت ارتدى ثوبا قد تجلد من الوسخ ، وذاب جسدى من المشقة ، واصفرت وجنتاى من المجاهدة ، فدخل الانكار قلبى من رؤيته على هذه الحال ، وقلت لنفسى : هذا درويش ، وانا درويش : انا فى هذه المجاهـدات الكثيرة ، وهو فى هذه الراحات الوفـيرة ! فأشرف فى الحال على باطنى وتفكيرى ، ورأى نخوتى وقال : يا أبا مسلم ! فى اى ديوان وجدت أن المعجب بنفسه يكون درويشا ؟ أيها الدرويش ! لما رأينا الكل الحق ، قال (الحق) : لا نجلسك الا على التخت ، ولما رأيت أنت الكل نفسك ، قال : لا نجعلك الا فى التحت ، فصار نصيبنا المشاهدة ، ونصيبك المجاهدة ، وكلاهما مقامان من مقامات الطريق ، والحق تعـالى منزه عن هذا ، والدرويش فان عن المقامات ، ومتحرر من الأحوال . قال الشيخ أبو مسلم : فضاع منى صوابى ، واظلم على العالم ، فلما أفقت ، تبت ، وقبل توبتى ، وعندئذ قلت له : ائذن لى أيهـا الشيخ لأذهب ، لأن حالى لا يستطيع تحمل رؤيتك ! قال : صدقت يا أبا مسلم(١) ، ثم تمثـل بهذا البيت .

---

(١) أشار الهجويرى الى قصة اللقاء بين أبى مسلم الفارسى وأبى سعيد ابن أبى الخير فى ترجمة أبى سعيد ، وفى هذا الموضع يوجد بعض الاختلاف (انظر ج ١ ص ٣٨٠) .

انج كوشم نتوانست شـــنيدن بخبز
همـــه.جشمم بعيان يكسره ديد آن ببصر

ومعنـــاه :

ــ ان ما لم تستطع اذنى سماعه بالخبر ، قد رأته عيناى عيانا بالبصر .

فيجب على المسافر أن يحفظ السنة دائما ، وعندما ينزل عند مقيم يدخل عليه فى احترام ويسلم عليه ، فيخرج رجله اليسرى أولا من الحذاء ، لأن النبى عليه السلام كان يفعل هكذا ، وحين يلبس الحذاء يضع رجله اليمنى أولا فى الحذاء ، وحين يخلع الحذاء يغسل رجليه ، ويصلى ركعتين بحكم التحية ، ثم ينشغل برعاية حقوق الدراويش . وينبغى ألا يعترض على المقيمين بأى حال ، أو يزيد على شخص فى معاملة ، أو أن يتحدث عن أســـفاره ، أو أن يروى علما أو حكايات أو روايات بين الجماعة ، لأن هذا كله اظهار رعونة . ويجب أن يحتمل كل المشقة ويحمل أعباءهم من أجل الله لأن فى ذلك بركات كثيرة . واذا حكم عليه هؤلاء المقيمون أو خدمهم ودعوه للســـلام أو لزيارة فلا يخالفهم اذا استطاع ، ولكنه ينكر بقلبه مراعاة أهل الدنيا ، ويلتمس العذر لأفعال هؤلاء الاخوان ويؤولها . ويجب الا يحملهم بأى حال مشقة مطالبه المستحيلة ، ولا يستدرجهم الى بلاط السلطان طلبا لراحة هــواه .

وفى كل الأحوال يجب على المسافر والمقيم فى الصحبة طلب رضـــاء الله تعالى ، وان يحسن كل منهم الاعتقاد فى الآخر ، ويجب الا يسب احدهما الآخر امامه ، أو يغتابه من خلفه ، لأنه من الشؤم على طالب الحق أن يتحدث عن الخلق وخاصة بالسوء ، لأن المحققين يرون الفاعل فى الفعل ، ولمـــا كان الخلق بالصفة التى هم عليها ملك لله ومن خلقه ، سواء منهم المعيوب وغير المعيوب ، والمحجوب والمكاشف ، فان الخصومة على الفعل تكون خصومة على الفاعل ، وحين ينظر الى الخلق بعين الآدمية يتحرر من الجميع ، لأن جملة الخلق محجوبون ومهجورون ومقهورون وعاجزون ، ولا يستطيع أحـــد أن يفعل أو أن يكون على غير ما عليه خلقته ، ولا تصرف للخلق فى ملكه ، والقدرة على تبديل العين لا تكون الا للحـــق تعالى وتقدس ، والله اعلم بالصـــواب .

باب آدابهم فى الأكل :

اعم انه لا مناص للادمى من الأكل ، لأن اقامة التالف بين الطبائع لا يكون الا بالطعام والشراب ، ولكن شرط المروءة الا يبالغ فى ذلك ، ولا يشـــغل نفسه ليل نهار بالتفكير فى اللقمة . ويقول الشافعى رحمه الله : « من كان همته ما يدخل فى جوفه ، فان قيمته ما يخرج منه » ، ولا شىء اضر لمريد

الحق من الاكل الكثير ، وقد ذكرت طرفا من هذا المعنى فى هذا الكتاب فى باب الجوع ، ولكن هذا المقدار ملائم هنا . ٣٠

وقد وجدت فى الحكايات أن أبا يزيد سئل : لمـــاذا تكثر من مدح الجوع ؟ قال : نعم ، لو كان فرعون جائعا لمـــا قال أبدا : « أنا ربكم الأعلى » ، ولو كان قارون جائعا لمـــا بغى . وطالما كان ثعلبه جائعا،كان محمودا بكل لسان ، فلما شبع اظهر النفاق .

وقال الله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعـــام والنار مثوى لهم(١) » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : المعدة مملوءة بالخمر أحب الى من المعدة الممتلئة بالطعام ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه عندما تكون المعدة مملوءة بالخمر : يستريح العقل ، وتخمد نار الشهوة ، ويأمن الخلق من يده ولسانه، ولكن عندما تكون مملوءة بالطعام الحلال : ترغب فى الفضول ، وتقـــوى الشهوة ، وترفع النفس راسها لطلب نصيبها .

وقيل فى صفة المشايخ ان « اكلهم كأكل المرضى ، ونومهم كنوم الغرقى(٢) » .

فشرط آداب الأكل الا يأكلوا بمفردهم ، ويؤثروا بعضهم البعض ، « لقوله عليه السلام : شر الناس من اكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده(٣) » وحين يجلسون على السفرة لا يصمتون ، ويبداون باسم الله تعـــالى ، ولا يتحدثون عن الوضع والرفع(٤) لأن ذلك مكروه للأصحاب ، ويغمسون اللقمة فى الملح اولا ، وينصفون رفقاءهم .

وسئل سهل بن عبـــد الله عن معنى الآية : « ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان(٥) » فقال : العدل : ان تنصف رفيقك فى اللقمة ، والاحسان : ان تراه أولى منك بتلك اللقمة .

---

(١) سورة « محمد » آية ١٢ .
(٢) من قول السرى السقطى ، فقد قال فى وصف الصوفية : اكلهم اكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرقى (التعرف ص ٢٢) .
(٣) ذكره ابن المبرد فى قوله : يروى عن النبى صلى الله عليه وسـلم انه قال : الا أخبركم بشراركم ، قالوا : بلى ، قال : من أكل وحده ومنـــع رفده وضرب عبده . الا اخبركم بشر من ذلكم : من لا يقيل عثرة ولا يقبـــل معذرة ولا يغفر ذنبا . الا أخبركم بشر من ذلـــكم : من يبغض النـــاس ويبغضونه « الكامل » (لابن المبرد جـ ١ ص ٣٢) .
(٤) اى وضع أوانى الطعام ورفعهـــا .
(٥) سورة « النحل » آية ٩٠ .

وكان شيخى رضى الله عنه يقول : انى لأعجب من ذلك المدعى الذى يقول اننى تركت الدنيا ، وهو يفكر فى اللقمة .

ثم انه يجب أن يأكل باليد اليمنى ، ولا ينظر الا فى لقمته ، ويتناول على الطعام قليلا من الماء ، الا فى حالة الظمأ الصادق . وحين يشرب : يشرب قليلا بقدر ما تترطب الكبد ؛ ولا يجعل اللقمة كبيرة ، ويمضغ جيدا ولا يسرع لأنه يخشى من هذه الأشياء التخمة ومخالفة السنة . وعندما يفرغ من الطعام يحمد الله ، ويغسل يديه .

واذا ذهب من الجماعة اثنان او ثلاثة او اكثر الى دعوة فى خفية منهم واكلوا شيئا ، فقد قال بعض المشايخ ان ذلك يكون حراما وخيانة فى الصحبة « اولئك ما ياكلون فى بطونهم الا النار(١) » . وقالت جماعة ان ذلك يجوز اذا كانوا جماعة ومتفقين مع بعضهم البعض . وقالت طائفة انه يجوز ايضا للشخص الواحد ، لأنه ليس من الانصاف أن لا يعطى فى حال الوحدة ما يجب ان يعطى فى حال الصحبة ، فحين يكون وحيدا ؛ فان حكم الصحبة يرتفع عنه ساعة ، ولا يؤخذ بذلك .

واهم اصل فى هذا المذهب هو الا يرد دعوة فقير ، والا يذهب الى دعوة غنى ، ولا يجيب الى طعام الأغنياء ولا يطلب منهم شيئا ، اذ ان فى ذلك وهن للطريقة ، لأن الاغنياء ليسوا محرما للفقراء . وجملة القول لا يكون الرجل غنيا بكثرة المتاع ؛ ولا فقيرا بقلته ، لأن كل من يقر بتفضيل الفقر على الغنى لا يكون غنيا وان كان ملكا ، وكل من ينكر الفقر يكون صاحب دنيا وان يكن مضطرا . واذا حضر الى دعوة فلا يتكلف فى اكل شىء ، او عدم اكل شىء ، ويسير على حكم الوقت .

وعندما يكون صاحب الدعوة محرما فانه يجوز ان يأخذ المتأهل زلة(٢) ، واذا لم يكن محرما فلا يجوز الذهاب الى منزله ، ولكن الأولى فى جميع الأوقات عدم أخذ الزلة ، لأن سهل بن عبد الله رضى الله عنه قال : « الزلة ذلة » ، والله اعلم بالصواب .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٧٤ .

(٢) « الزلة هنا : هى ما تحمله من مائدة صديقك او قريبك او محارمك او خاصتك من طعام . وتأتى ايضا بمعنى ما يحمله فقراء الناس من الطعام عند انصرافهم من وليمة (برهان قاطع) .

باب آدابهم فى المشى :

« قوله تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما(١) » . ويجب على طالب الحق أن يسير دائما على مسلكه ، وأن يعرف كل خطوة يخطوها ، علام يضعها : أهى عليه ، أم له ؟ فاذا كانت عليه : يستغفر ، واذا كانت له : يجد حتى تزداد .

ويرد عن داود الطائى رضى الله عنه أنه كان قد شرب يوما دواء ، فقيل له : ادخل برهة صحن هذه الدار حتى تظهر فائدة الدواء ، فقال : انى لأخجل ان يسألنى الله عز وجل يوم القيامة : لم سرت بضع خطوات على نصيب هواك ، لقوله تعالى : « وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون(٢) » .

فيجب ان يسير الدرويش بمراقبة ويقظة ، مطاطىء الراس ، ولا ينظر الى اى اتجاه سوى امامه وطريقه . واذا قابله احد فلا ينحى نفسه حفاظا على ملابسه أن تقع عليه ، لأن المؤمنين وثيابهم أطهار ، وهذه الخصلة ليست الا رعونة وتظاهرا . وايضا اذا كان هذا الشخص كافرا او ظهرت عليه قذارة فيجب أن يحفظ نفسه منه . وحين يسير مع جماعة فلا يقصد التقدم عليهم او المزيد عليهم كبرا ، وايضا لا يتأخر ، وأن يحترز من اظهار التواضع للناس فى معاملة ، لأنه اذا راى التواضع يكون ذلك عين الكبر . ويحفظ حذاءه ونعله ما استطاع من النجاسة فى النهار ، ليحفظ الله تعالى ثيابه فى الليل ببركة ذلك . ويجب حين تكون جماعة او درويش أو شخص الا يقفوا فى الطريق مع احد للتكلم معه ، ولا يامروه بانتظارهم ، ويسيروا على مهل ولا يسرعوا فيتشبهوا بالحريصين ، ولا يسيروا ببطء فيتشبهوا بالمتكبرين ، ويخطوا خطوا تاما .

وفى الجملة : يجب ان يسير الطالب على صفة تجعله يستطيع — اذا سأله سائل : اين تذهب — ان يقول : انى ذاهب الى ربى ، وان يكن غير ذلك فسيره وبال عليه ، لأن صحة الخطوات من صحة الخطرات ، فكل من يكون تفكيره مجتمعا للحق ، فان أقدامه تكون متابعة لتفكيره .

ويروى عن أبى يزيد رضى الله عنه أنه قال : السير بلا مراقبة علامة غفلة

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .
(٢) سورة « يس » آية ٦٥ .

الدرويش ، لأن كل ما له يحصل فى قدمين ، يضع احداهما على انصبته ، والأخرى على اوامر الحق ، فتلك يرفعها ، وهذه يحتفظ بهـــا فى مكانها .

وسير الطالب علامة على قطع المسافة ، وقرب الحق لا يكون بالمسافة ، ولمـــا كان قربه ليس مسافة ، فأى وجه للطالب غير قطع قدميه فى محل السكون ! ؟ والله اعلم بالصواب .

باب نومهم فى الســـفر والحضر :

اعلم ان المشايخ رضى الله عنهم يختلفون كثيرا فى هذا المعنى ، فعنـــد طائفة انه ليس مسلما للمريد ان ينام الا فى حال غلبة النوم ، عندما لا يستطيع ان يدفع النوم عن نفسه ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « النوم اخو الموت(١) » ، فالحياة من الله تعالى نعمة ، والموت بلاء ومحنة ، والنعمة لا محالة اشرف من البلاء .

ويرد عن الشبلى رحمه الله انه قال : « اطلع الحق على فقال : من نام غفل ، ومن غفل حجب » .

ويجوز عند طائفة أن ينام المريد باختياره ، وأن يتكلف فى النوم بعـــد أن يكون قد أدى امور الحق ، لقوله عليه السلام : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى ينتبه وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق(٢) » . ولمـــا كان القلم قد رفع عن النائم حتى يستيقظ ، وأمن الخلق شره ، وقصر عنه اختياره ، وانعزلت نفسه عن مراده ، واستراح الكرام الكاتبين من الكتابة ، وانعقد لسانه عن الدعاوى وعجز عن الكذب والغيبة ، وانقطـــع عن كل المعاصى فانه « لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حيـــاة ولا نشورا » ، كما قال ابن عباس رضى الله عنه : « لا شىء أشد على ابليس من نوم العاصى ، فاذا نام العاصى يقول : متى ينتبه ويقوم حتى يعصى الله » .

---

(١) رواه البيهقى : « النوم اخو الموت ولا يموت اهل الجنة » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٨٧) .

(٢) رواه احمد فى مسنده وابو داود والحاكم عن على وعمر : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النـــائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٩) .

وللجنيد مع على بن سهل الاصفهانى رحمهما الله خلاف ، وكتب على بن سهل فى هذا المعنى رسالة لطيفة جدا الى الجنيد ، وقد سمعت بها .

ويقول على بن سهل : ان مقصودى فى هذه الرسالة هو أن النوم غفلة ، والقرار اعراض ، ويجب أن لا يكون للمحب نوم وقرار ليل نهار ، لأنه اذا نام عجز فى هذه الحال عن المقصود ، والمفقود يغفل عن نفسه وعن حاله ، ويتخلف عن الحق تعالى ، كما أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ، وقال : « كذب من ادعى محبتى فاذا جنه الليل نام عنى » .

ويقول الجنيد رحمه الله فى جواب تلك الرسالة : ان يقظتنا هى معاملتنا فى طريق الحق ، ونومنا فعل للحق علينا ، فما يكون من الحق الينا بغير اختيارنا ، أتم مما يكون منا باختيارنا الى الحق ، « والنوم موهبة من الله تعالى على المحبين » ، وهو منة من الحق تعالى على الأحبة . وهذه المسألة تتعلق بالصحو والسكر ، وقد أوفيت الحديث فيها ، ولكن العجيب أن الجنيد رضى الله عنه كان صاحب صحو ، وهنا جعل القوة للسكر ، وذلك لأنه كان مغلوبا فى ذلك الوقت ، وكان الوقت هو الناطق على لسانه . ويجوز ايضا أن يكون (الأمر) ضد هذا ، لأن نومه عين الصحو ، ويقظته عين السكر ، لأن النوم صفة الآدمية ، وطالما كان الآدمى فى مظلة أوصافه يكون منسوبا الى الصحو . وعدم النوم صفة الحق ، وعندما يبتعد الآدمى عن صفته يصير مغلوبا .

وقد رأيت طائفة من المشايخ كانوا يفضلون النوم على اليقظة موافقة للجنيد ، لأن رؤى الأولياء والكبار وكثير من الرسل ، صلوات الله عليهم ورضى عنهم ، متصلة بالنوم ، لقوله عليه السلام : « ان الله يباهى بالعبد الذى نام فى سجوده ، ويقول : انظروا ملائكتى الى عبدى : روحه فى النجوى ، وبدنه على بساط العبادة » . « وقوله عليه السلام : من نام على طهارة يؤذن لروحه أن يطوف بالعرش ويسجد لله تعالى(١) » .

ووجدت فى الحكايات أن شاه بن شجاع الكرمانى ظل مستيقظا أربعين عاما ، وعندما نام ليلة رأى الله تعالى فى النوم ، فكان ينام كل ليلة بعد ذلك على أمل أن يراه .

ويقول قيس العامرى رحمه الله فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

وانى لأستغشى وما بى نعسة
لعل خيالا منك يلقى خياليا

---

(١) يروى بنحو هذا موقوفا من حديث عبد الله بن عمر وأبى الدرداء (نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص ٢٨١) .

ورأيت جماعة كانوا يفضلون اليقظة على النوم ، موافقة لعلى بن سهل، لأن وحى الرسل وكرامات الأولياء تتعلق باليقظة.. ويقول واحد من المشايخ رحمهم الله : « لو كان فى النوم خير لكان فى الجنة نوم » . ولما لم يكن فى الجنة نوم ولا حجاب فقد عرفنا أن النوم حجاب . ويقول أرباب اللطائف انه حين نام آدم عليه السلام فى الجنة ظهرت حواء من جنبه الأيسر ، وكان بلاؤه كله من حواء .

ويقال أيضا انه حين قال ابراهيم لاسماعيل : « يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك(١) » قال اسماعيل : يا ابت ! « هذا جزاء من نام عن حبيبه ، لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد » .

ويرد عن الشبلى رحمه الله أنه كان يضع كل ليلة أمامه سكرجة(٢) فيها ماء وملح ومرود ، وحين كان يريد أن ينام كان يكحل عينيه بالمرود .

وقد رأيت أنا على بن عثمان الجلابى شيخا كان ينام حينما كان يفرغ من أداء الفريضة ، ورأيت الشيخ أحمد السمرقندى فى بخارى ، ولم يكن قد نام فى الليل اربعين سنة ، وكان ينام قليلا فى النهار . وترجع هذه المسألة الى أنه حين يكون الموت أحب الى شخص من الحياة ، فانه لابد أن يفضل النوم على اليقظة ، وعندما يحب الحياة أكثر من الموت يلزم أن تكون اليقظة أحب اليه من النوم .

وليست القيمة لمن يتكلف اليقظة ، وانما هى لمن يوقظ بلا تكلف ، مثلما اختار الله عز وجل الرسول للدرجة العليا ، فانه لم يتكلف فى النوم ولا فى اليقظة حتى جاءه الأمر : « قم الليل الا قليلا(٣) » . وليست القيمة لمن يتكلف النوم ، وانما القيمة لمن ينوم ، مثلما اختار الله عز وجل اهل الكهف ، وأوصلهم الى المحل الأعلى ، ونزع لباس الكفر عن رقابهم ، فانهم لم يتكلفوا فى النوم ولا فى اليقظة حتى ألقى الله تعالى النوم عليهم ، وكان يرعاهم بلا اختيارهم ، « لقوله تعالى : وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال(٤) » ، وكلا هذين كانا فى حال عدم الاختيار . وحين يصل العبد الى الدرجة التى ينتهى فيها اختياره ، تنقطع يده عن الكل ، وتعرض همته عن الغير ، فاذا نام أو استيقظ فانه يكون عزيزا وعظيما على أى صفة يكون .

---

(١) سورة « الصافات » آية ١٠٢ .
(٢) « السكرجة » الصفحة فارسية معربة .
(٣) سورة « المزمل » آية ٢ .
(٤) سورة « الكهف » آية ١٨ .

فشرط النوم للمريد هو ان يعتبر اولا ان نومه كآخر عهده ، فيتوب عن المعاصى ، ويرضى خصومه ، ويتطهر طهارة زكية ، وينام على جنبه الأيمن ووجهه الى القبلة ، وقد أصلح أمور دنياه ، ويشكر (الله) على نعمة الاسلام . ويشترط أنه اذا استيقظ الا يعود الى المعاصى ، فكل يقظان يكون قد سوى أموره لا يخشى النوم أو الموت .

ومشهور فى الحكايات أن ذلك الشيخ كان يجىء الى ذلك الامام — الذى كان قد عجز فى رعاية الجاه والرئاسة ورعونة النفس — ويقول له : يا أبا فلان ! لابد من الموت ، فكان يتالم من ذلك الكلام ، ويقول : هذا الرجل الشحاذ لا يفتأ يقول لى هذا الكلام كل وقت . وذات يوم قال : غدا ابدا انا . وفى اليوم التالى جاء الشيخ ، فقال له الامام : يا أبا فلان ! لابد من الموت . ففرش السجادة ، ووضع رأسه ، وقال : مت ! وخرجت روحه فى الحال . فكان للامام من ذلك زاجر ، وأدرك انه كان يأمره أن : تهيأ لرحلة الموت كما فعلت أنا .

وكان شيخى رضى الله عنه يقول للمريدين : لا تناموا الا فى حال الغلبة ، واذا استيقظتم فلا تناموا ثانيا ، لأن النوم ثانيا حرام على مريد الحق وبطالة .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، والله اعلم بالصواب .

باب آدابهم فى الكلام والسكوت :

« قوله تعالى : ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله(١) » ، وقال أيضا : « قول معروف(٢) » ، وقال أيضا : « قولوا آمنا (٣) » .

اعلم أن الكلام من الحق الى العبد أمر ، مثل الاقرار بوحدانية الله ، والثناء عليه ، ودعوة الخلق الى حضرته . والنطق نعمة كبرى من الحق تعالى على العبد . والآدمى مميز عن الحيوانات الأخرى بذلك ، لقوله تعالى: « ولقد كرمنا بنى آدم(٤) » ، فمن أقوال المفسرين فى هذا : انه النطق .

---

(١) سورة « فصلت » آية ٣٣ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٦٣ .
(٣) سورة « البقرة » آية ١٣٦ .
(٤) سورة « الاسراء » آية ٧٠ .

ومهما يكن القول نعمة ظاهرة من الحق على العبد ، فان آفتـــه ايضا كبيرة ، « لقوله عليه السلام : أخوف ما أخاف على أمتى اللسان(١) » .

وفى الجملة : القول كالخمر التى تسكر العقل ، واذا وقع الرجـــل فى شربها فانه لا يستطيع الخروج أبداً ، ولا يمكنه أن يمنع نفسه عنهـــا . ولمـــا صار معلوما لأهل الطريقة ان القول آفة ، لم يتكلموا الا لضرورة : اى أنهم نظروا فى ابتداء وانتهاء كلامهم ، فان كان كله للحق تكلمـــوا ، والا سكتوا ، لأنهم يعتقدون أن الله عالم الأسرار ، والخلائق مذمومون اذا عرفوا أن الله تعالت كبرياؤه غير هذا ، لقـــوله تعـــالى : « أم يحســـبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٢)» . « وقوله عليه السلام : من صمت نجا(٣) » ، ففى الصمت فوائد وفتوح كثيرة ، وفى الكلام آفات كبيرة .

وقد فضلت جماعة من المشايخ السكوت على الكلام ، وفضلت جماعة الكلام على السكوت ، ومن هؤلاء الجنيد رضى الله عنه اذ قال : العبـــارة كلها دعاوى ، وحيثما يكون اثبات المعانى تكون الدعاوى هدرا ، وثم وقت يعذر فيه المرء لسقوط القول فى حال الاختيار — أى فى حال التقيـــة ، فى حال الخوف مع وجود الاختيار والقدرة على القول ، ولا يضر انكار قـــوله حقيقة المعرفة — ولا يكون العبد معذورا فى أى وقت بلا معنى بمجرد الدعوى، ويجعلون حكم هذا حكم المنافقين ، فصارت الدعوى بلا معنى نفـــاقا ، والمعنى بلا دعوى اخلاصا ، « لأن من اسس بنيانه على بيان ، استغنى فيما بينه وبين ربه عن اللسان » . أى انه اذا انفتح الطريق على العبـــد استغنى عن الكلام ، لأن العبارة لاعلام الغير ، والحق تعالى مستغن عن تفسير الأحوال ، ولا يميل غيره الى أن يشغل به . ويتأكد هذا الكلام بقول الجنيد حيث قال : « من عرف الله كل لسانه » . فمن عرف الحق بقلبه يعجز لسانه عن البيان ، لأن البيان يبدو حجابا فى العيان .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه أنه وقف فى مجلس الجنيد ، وقال بصوت عال : يا مرادى ! وأشار الى الحق ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ! اذا كان

---

(١) لابن عدى عن عمر : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١ .
(٢) سورة « الزخرف » آية ٨٠ .
(٣) لأحمد فى مسنده والترمذى عن ابن عمر (شرح الجـــامع الصـــغير ج ٢ ص ٣٠٤) .

مرادك الحق ، فلم هذه الاشارات ، وهو مستغن عنها ؟ واذا لم يكن مرادك الحق ، فلم قلت خلافا ، والحق عليم بقولك ؟ فاستغفر الشبلى من قوله .

والجماعة الذين يفضلون الكلام على السكوت قالوا ان بيان الأحوال أمر الينا من الحق ؛ لأن الدعوى تقوم بالمعنى ؛ واذا كان شخص عارفا السر بقلبه الف سنة ولا تمنعه ضرورة من أن يربط الاقرار بالمعرفة ، فان حكمه يكون كحكم الكفرة . وقد أمر الله تعالى المؤمنين جميعا بالشكر والحمد والثناء ، لقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث(١) » ، ولا بد أن يكون الثناء والتحدث بالنعمة كلامه ، فكلامنا تعظيم للربوبية ، « لقوله تعالى : ادعونى استجب لكم(٢) » ، وقال ايضا جل جلاله : « اجيب دعوة الداع اذا دعان(٣) » ، وامثال هذا .

ويقول واحد من المشايخ رضى الله عنهم : كل من ليس له بيان عن حاله لا حال له ، لأن ناطق وقتك هو وقتك .

(شعر عربى)

لسان الحال افصح من لسانى وصمتى عن سؤالك ترجمانى

ووجدت فى الحكايات ان ابا بكر الشبلى رضى الله عنه كان يسير يوما فى كرخ بغداد(٤) ، فرأى أحد الأدعياء كان يقول: « السكوت خير من الكلام ، فقال (له) : سكوتك خير من كلامك ، لأن كلامك لغو ، وسكوتك هزل . وكلامى خير من سكوتى ، لأن سكوتى حلم ، وكلامى علم » .

وانا على بن عثمان الجلابى اقول : الكلام على نوعين ، والسكوت على نوعين ، فالكلام منه الحق ومنه الباطل ، والسكوت منه حصول المقصود ومنه الغفلة ؛ فيجب على كل انسان أن يمسك بخناق نفسه فى حال النطق والسكوت ، فاذا كان كلامه حقا ، فكلامه افضل من سكوته ، واذا كان

---

(١) سورة « الضحى » آية ١١ .
(٢) سورة « غافر » آية ٦٠ .
(٣) سورة « البقرة » آية ١٨٦ .
(٤) « كرخ بغداد » : كانت الكرخ اولا فى وسط بغداد ، ثم صارت محلة وحدها مفرده وحولها المحال الا انها غير مختلطة بها (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٤) .

باطلا ، فسكوته افضل من كلامه . واذا كان الصمت لحصول المقصود او المشاهدة فهو افضل من الكلام ؛ واذا كان سببه الحجاب والغفلة ، فالكلام افضل من الصمت . والعالمون حائرون فى هذين المعنين ، فجماعة من الأدعياء تناولوا قدرا من عبارات الهذر والهوس ، الخالية من المعانى ، ويقولون : الكلام افضل من السكوت وجماعة من الجهلة الذين لا يعرفون المنارة من البئر ربطوا السكوت بجهلهم ويقولون : الصمت افضل من الكلام ، وهذان كلاهما مثل بعضهما البعض ، فمن اذن يجعلونه يتحدث ، ومن يجعلونه يصمت ؟ لأن اصل هذه المعانى هو هذا . والله اعلم بالصواب .

مثل: « من نطق أصاب أو غلط ، ومن انطق عصم من الشطط » ، كابليس حين نطق فقال : « انا خير منه(١) » ، فراى ما راى . ولما انطق آدم قال : « ربنا ظلمنا انفسنا(٢) » ، فاصطفوه . فدعاة هذه الطريقة ماذونون ومضطرون فى كلامهم ، وخجلون ومغلوبون فى صمتهم ؛ « فمن كان سكوته حياء كان كلامه حياة » ، لأن كلامهم يكون عن مشاهدة ، والكلام بلا مشاهدة عندهم هوان ؛ ويحبون الصمت أكثر من الكلام ما داموا مع أنفسهم ، وحين يغيبون ينقش الخلق اقوالهم على ارواحهم ، ولذلك قال احد الشيوخ : « من كان سكوته له ذهبا ، كان كلامه لغيره مذهبا » . فينبغى للطالب الربانى الذى خوضه فى العبودية أن يكون صامتا حتى يتكلم لسانه الذى يكون نطقه بالربونية وتصطاد عباراته قلوب المريدين .

والأدب فى القول هو الا يتحدث بدون أمر ، واذا صمت لا يكون جاهلا وغافلا . وينبغى للمريد الا يتدخل او يتصرف فى كلام الشيوخ ، ولا يتكلم اليهم بعبارات غريبة ، ولا يقول الكذب والغيبة باللسان الذى نطق بالشهادة ، ولا يؤذى المسلمين ، ولا يدعو الدراويش بالاسم المجرد ، ولا يتحدث حتى يسأل ، ولا يبدأ بالكلام .

وشرط سكوت الدرويش هو الا يسكت على باطل ، وشرط كلامه الا يقول غير الحق ، ولهذا افرع كثيرة ، ولطائف لا تحصى ، ولكنى اكتفيت بهذا المقدار خوف التطويل ، والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

---

(١) سورة « الاعراف » آية ١٢ .
(٢) سورة « الاعراف » آية ٢٣ .

باب آدابهم في السؤال وتركه :

« قوله عز وجل : لا يسألون الناس الحافا(١) » ، وحين يسالهم احد لا يمنعونه ، « لقوله تعالى : واما السائل فلا تنهر (٢) » . ولا يسالون غير الحق ما استطاعوا ، ولا يجعلون غيره محل السؤال ، لأن السؤال اعراض عن الحق الى غير الحق ، واذا أعرض العبد فانه يخشى ان يترك في محل الاعراض .

وجدت أن واحدا من اهل الدنيا قال لرابعة(٣) رضى الله عنها : يا رابعة ! اطلبى منى شيئا لأحقق مرادك . فقالت : يا هذا ! اننى اخجل ان اطلب الدنيا من خالق الدنيا ، أفلا أخجل أن اطلبها من مثلى ؟ .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .

(٢) سورة « الضحى » آية ١٠ .

(٣) « رابعة العدوية » أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك . من زهاد القرن الثانى الهجرى . كانت كثيرة الحزن والبكاء ، اذا سمعت ذكر النار غشي عليها زمانا . وكانت رابعة اسبق زهاد عصرها حديثا عن المحبة الالهية ، فهى أول من تغنى بالحب الالهى نظما ونثرا ، ولذا يقال ان بذور التصوف الحقيقى زرعت فى زمن رابعة وآتت أكلها فى القرون التالية .

وقد احبت رابعة ربها لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته وانما ابتغاء لوجهه وشوقا اليه . قيل لها : ما حقيقة ايمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا اليه .

وقالت فى معنى المحبة نظما :

احبك حبين حب الهوى ... وحبا لانك اهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
واما الذى انت اهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وذكر الشقيري أنها قالت فى مناجاتها يوما : الهى ! اتحرق بالنار قلبا احبك ؟ فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ، فلا تظنى بنا ظن السوء .

وكانت وفاة رابعة فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور .

(انظر ما ورد عنها في : الرسالة القشيرية،احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٦٦، وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٥٢ ، تذكرة الاولياء جـ ١ ص ٥٩ ، نفحات الأنس ص ٦١٥) .

ويقال انه فى عهد ابى مسلم المروزى(١) قبضوا على درويش برىء بتهمة السرقة ، وحبسوه فى سجن مرو ، فلما جن الليل راى ابو مسلم النبى عليه السلام فى النوم ، وقال له : يا ابا مسلم ! ان الله بعثنى اليك لاقول لك ان حبيبا من احبائى فى سجنك بلا جرم ، فانهض واخرجه . فهب ابو مسلم من نومه ، وجرى الى السجن حاسر الراس حافى القدمين ، وامر ففتحوا الباب ، واخرج ذلك الدرويش واعتذر له ، وقال : سل حاجة . فقال الدرويش : ايها الامير ! الشخص الذى له رب ينهض ويرسل ابا مسلم فى منتصف الليل من الفراش الدافىء حاسرا حافيا ليخرجه من البلايا ، ايجوز ان يسأل غيره ويطلب منه حاجة ؟ فبكى ابو مسلم ، وانصرف الدرويش .

وتقول طائفة ايضا انه يجوز للدرويش أن يسأل الخلق ، « لقوله تعالى : لا يسألون الناس الحافا » ، فهو يرد عن السؤال بالالحاف . « وقوله عليه السلام : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » .

والمشايخ رضى الله عنهم اجازوا السؤال لعلل ثلاث :

الاولى : لفراغ البال ، وقالوا اننا لا نجعل لرغيفين قيمة أن نقضى النهار والليل ، فى انتظارهما ، لأنه لا انشغال أبدا مثل الانشغال بالطعام . ومن ذلك انه حين سأل بايزد مريد الشقيق عن حال شقيق رضى الله عنه ، فى الحال الذى كان قد زاره فيه ، قال المريد : لقد فرغ من الخلق ، وجلس على حكم التوكل . فقال أبو يزيد : عندما ترجع اليه قل له : اياك ان تمتحن

---

(١) « ابو مسلم الخراسانى » : صاحب الدعوة العباسية . أصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى اصول التشيع . قاد حركة المقاومة ضد الاموين ، وعندما ثار أهل مرر فى سنة ١٢٩ هـ ، على الحاكم الاموى نصر بن سيار استغل ابو مسلم هذه الفرصة واستولى على مرو وصفت له خراسان ، دخل الكوفة وبها بنو العباس فبايع أبا العباس السفاح بالخلافة ، ونظرا لجهوده فى قيام الدولة العباسية عهد اليه السفاح بحكومة خراسان ، غير أنه لم يلبث أن تغير عليه بسبب ميله للعلويين . وبعد وفاة السفاح سنة ١٣٦ هـ ، تولى ابو جعفر المنصور وبدا حكمه بقتل ابى مسلم سنة ١٣٧ هـ . ولما بلغ خبر قتل ابى مسلم خراسان ، اضطربت الجرمية ، وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلون بأبى مسلم وامامته وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته ، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فينا عدلا ، وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة (مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ ، تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٠٠ ــ ١٠٣) .

الله برغيفين ، فاذا جمت فاطلب رغيفين من مجانسـك ، ودع برنامج التوكل جانبا حتى لا تنهدم المدينة والولاية بشؤم معاملتك .

والثانية : انهم سألوا لرياضة النفس ؛ ليحتملوا ذل السؤال ، ويشقوا على أنفسهم[1] ، ويعرفوا قيمة أنفسهم : ماذا يساوون بالنسبة لأى شخص ولا يتكبروا : الم تر انه حين جاء الشبلى الى الجنيد رضى الله عنه ، قال له : يا ابا بكر ! ان فى راسك نخوة تجعلك تقول : أنا ابن حاجب حجاب الخليفة ، وامير سامرا ، ولن يتأتى منك أمر ما لم تذهب الى السوق وتسأل كل من ترى حتى تعرف قيمة نفسك ؛ ففعل كذلك . وكانت سوقه تزداد كسادا كل يوم حتى وصل فى نهاية العام الى درجة ان طاف بالسوق كله فلم يعطه اى احد شيئا ، فرجع واخبر الجنيد بذلك ، فقال له : يا ابا بكر ! اعرف الآن قيمة نفسك أنك لا تساوى لدى الخلق شيئا ، فلا تعلق قلبك بهم ، ولا تعتبرهم شيئا . وكان هذا للرياضة لا للكسب[2] .

ويروى عن ذى النون المصرى رحمه الله انه قال : كان لى رفيق موافق دعاه الله عز وجل اليه ، وانتقل من محنة الدنيا الى نعمة العقبى ، ورايته فى النوم فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى . قلت : باى خصلة ؟ قال : أوقفنى وقال : يا عبدى لقد تحملت كثيرا من الذل والمشقة من السفلة والبخلاء ومددت اليهم يدك ، وصبرت فى ذلك ، وقد غفرت لك بذلك .

والثالثة : انهم سألوا الخلق لحرمة الحق ، فقد أدركوا أن جميع املاك الدنيا واموالها له ، وأن الناس جميعا وكلاؤه فى الشىء الذى هو نصيبهم ، فرجعوا الى وكيله وسألوه ، وتحدثوا اليه ، ولأن يعرض العبد حاجاته على الوكيل يكون ذلك أقرب الى الاحترام والعزة من أن يعرضها على الله ، فسؤالهم للغير علامة الحضور والاقبال على الحق ، لا الغيبة والاعراض عن الحق .

---

(١) ذكر السراج ان بعض الصوفية ببغداد كان لا يأكل شيئا الا بذل السؤال ، فسئل عن ذلك فقال : اخترت ذلك لشدة كراهية نفسى ذلك . (اللمع ص ٢٣٥) وورد فى أسرار التوحيد عن أبى سعيد بن أبى الخير أنه مارس رياضة السؤال لتأديب نفسه ، ووصف تجربته فى هذه الرياضة وكيف أن الناس كانوا فى البداية يعطونه دينارا ثم تناقص العطاء حتى اقتصر على حبة من الزبيب (اسرار التوحيد الترجمة ص ٤٩) .

(٢) وردت اشارة الى هذا فى تاريخ بغداد (انظر ج ١٤ ص ٣٨٩) .

وقد وجدت انه كان ليحيى بن معاذ الرازى بنت قالت يوما لامها : يلزمنى الشىء الفلانى ؛ فقالت لها أمها : اطلبيه من الله ، فقالت : يا أمى ! اننى أخجل أن أطلب حاجاتى النفسية من حضرته ؛ وما تعطينه لى هو ملك له أيضا ، وهو رزقى المقدر .

فآداب السؤال هى انه اذا تحقق مقصد لا تكون أكثر سرورا مما لو لم يتحقق ، ولا ترى الخلق فى الوسط ؛ ولا تسال النساء واصحاب الأسواق ؛ ولا تتحدث بسرك الا لمن يكون ماله موقوفا على حلال ؛ ولا تسال ما استطعت عن نصيبك ، ولا تجعل منه اسباب تجمل وسيادة ؛ ولا تصيره ملكك ؛ وتكون على حكم الوقت ؛ ولا تخطر على قلبك حديث الغد حتى لا تؤخذ بالهلاك الأبدى ، ولا تربط الله عز وجل على شرك استجدائك ، ولا تجعل من نفسك عابدا ليعطوك شيئا عن طريق ذلك .

وجدت شيخا من محتشمى المتصوفين جاء من البادية ؛ وقد اصابته الفاقة ، واحتمل آلام الانقطاع ، فدخل سوق الكوفة وقد وضع على يده عصفورا ، وكان يقول : اعطونى شيئا من أجل هذا العصفور ؛ فقالوا له : اى هذا ! ما هذا الذى تقول ؟ قال : محال أن اقول اعطونى شيئا من أجل الله ، لأنه لا يمكن ان يتشفع فى الدنيا بغير حقير .

وهذا قليل من كثير مما يشترط فى هذا الباب . والسلام .

باب آدابهم فى التزويج والتجريد :

قوله تعالى : « هن لباس لكم وانتم لباس لهن(١) » .

وقوله عليه السلام : « تناكحوا تكثروا فانى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط(٢) » .

وقوله عليه السلام : « ان أعظم النساء بركة احسنهن وجوها وارخصهن مهورا(٣) » . وهذا من صحاح الأخبار .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٧ .

(٢) لعبد الرازق فى الجامع عن سعيد بن أبى هلال (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٨) .

(٣) للديلمى فى مسند الفردوس : « اخف النساء صداقا اعظمهن بركة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٢) .

وفى الجملة فان النكاح مباح للرجال والنســاء ، وفريضــة على من لا يستطيع التعفف عن الحرام ؛ وسنة لمن يستطيع ان يتحمل اداء حق العيال .

وقالت طائفة من مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم ان الزواج واجب لدفع الشهوة ؛ وكسب لفراغ القلب . وقالت جماعة انه لازم لاثبــات النسل وليوجد الولد ؛ واذا وجد ولد فانه اذا مات قبل الأب يكون شفيعا له يوم القيامة ؛ واذا مات الأب أولا فانه يبقى وراءه من يدعو له .

وفى الخبر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب ام كلثوم ابنة فاطمة بنت محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم من ابيها على بن ابى طالب رضى الله عنهم اجمعين ، فقال على : انها صغيرة جدا وانت رجل شيخ ، وانوى ان ازوجها لابن أخى عبد الله بن جعفر(١) ، رضى الله عنه ، فبعث اليه عمر رسالة يقول : يا ابا الحسن ! فى الدنيا نساء كثيرات كبيرات ، ومرادى من ام كلثوم اثبات النسل لا دفع الشهوة ، لقوله عليه السلام : « كل سبب ونسب ينقطع الا سببى ونسبى » ، والآن لى سبب ويلزم أن يكون لى نسب ايضا مع ذلك الحبيب ؛ واكون قد احكمت الطرفين بمتابعته . فاعطاها له على رضى الله عنه .

وورد عن زيد بن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح النساء على اربعة : على المال والحسب والحسن والدين ، فعليكم بذات الدين فانه ما استفاد أمرؤ بعد الاسلام خيرا من زوجة مؤمنة ليسر بها اذا نظر اليها(٢) » . وافضل الزوائد والفوائد بعد الاسلام امراة مؤمنة موافقة ليانس بها الرجل المؤمن ويكون له بصحبتها فى الدين قوة ، وفى الدنيا مؤانسة ، لأن الوحشة كلها فى الوحدة ، والراحة كلها فى الصحبة . وقال الرسول عليه السلام : « الشيطان مع الواحد(٣) » .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن ابى طالب . كان يكنى أبا جعفر ، وولد فى الحبشة . ويقال انه كان ابن عشر سنين حين قبض النبى صلى الله عليه وسلم فكان ولد عام الهجرة . قيل توفى بالمدينة ، وقيل توفى ودفن بالأبواء سنة تسعين وصلى عليه سليمان بن عبد الملك (المعارف ص ٨٩) .

(٢) رواه الدراقطنى وأحمد والنسائى وابن ماجه عن ابى هريرة : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يدك » (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٢٩) .

(٣) مكــرر .

وفى الحقيقة : الرجل الوحيد أو المراة الوحيدة يكون قرينهما الشيطان ، لأنه يزين الشهوات فى قلبيهما . ولا توجد اية صحبة فى حكم الحرمة والأمان مثل الزواج اذا كانت هناك مجانسة ومؤانسة وموافقة ، ولا توجد عقوبة او مشغولية بقدر ما تكون المراة غير مجانسة .

فيلزم للدرويش ان يتامل اولا فى عمله ، وان يستعرض امام قلبه آفات التجريد والتزويج ليرى اية آفة اسهل عليه فيتابع ذلك .

وفى الجملة : فى التجريد آفتان ، الاولى : ترك سنة من السنن ،والثانية: تربيب الشهوة فى القلب والجسد ، وخطر الوقوع فى الحرام . وللتزويج ايضا آفتان : الأولى : انشغال القلب بشخص آخر ، والثانية : انشغال الجسد بحظ النفس . ويرجع اصل هذه المسألة الى العزلة والصحبة ، فمن يختار الصحبة مع الخلق يكون الزواج شرطا له ، ومن يطلب العزلة عن الخلق يكون التجريد زينة له ؛ لقوله عليه السلام : « سبق المفردون(١)». ويقول الحسن بن ابى الحسين البصرى رحمه الله : « نجا المخففون ، وهلك المثقلون » .

ويرد عن ابراهيم الخواص رحمه الله انه قال : وصلت الى قرية بقصد زيارة عظيم كان هنالك ، ولما ذهبت الى داره رايت بيتا نظيفا مثل معبد الأولياء ، وقد جعل فى زاويتين من البيت محرابين ، وجلس فى أحدهما شيخ ، وفى الآخر عجوز نظيفة وضيئة ، وقد ضعف كلاهما من كثرة العبادة . فأظهرا السرور بقدومى ، وبقيت هنالك ثلاثة ايام ، ولما اردت العودة سالت الشيخ : من تكون لك تلك العفيفة ؟ قال : هى من ناحية ابنة عمى ، ومن ناحية اخرى زوجتى ، فقلت:لقد رايتكما خلال هذه الأيام الثلاثة كالغريبين تماما فى الصحبة . قال : نعم ، منذ خمسة وستين عاما ونحن كذلك . فسألته عن سبب ذلك ، فقال : اعلم اننا كنا عاشقين لأحدنا الآخر فى الصغر، ولم يكن ابوها يعطيها لى لأن محبتنا صارت معروفة ، فتحملت ذلك حتى توفى ابوها ، وكان والدى عمها ، فزوجها لى ، فلما كانت الليلة الأولى من تلاقينا قالت لى : انت تعلم اية نعمة انعمها الله علينا اذ أوصل كلا منا الى الآخر ، وافرغ قلبينا من القيود والآفات السيئة ، فقلت : نعم ، قالت :

---

(١) رواه الترمذى والحاكم عن ابى هريرة ، والطبرانى عن أبى الدرداء : « سبق المفردون المستهترون فى ذكر الله ، يضع الذكر عنهم اثقالهم فياتون يوم القيامة خفافا (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٥١) .

فلنمنع انفسنا الليلة عن هوى النفس ، وندس على مرادنا ، ونعبد الله شكرا على هذه النعمة ، فقلت : هذا صواب ، وقالت هذا نفسه فى الليلة التالية . وقلت أنا فى الليلة الثالثة : لقــد أدينا الشكر ليلتــين من أجلك ، فلنقض ليلتين ايضا فى العبادة من أجلى . وقد تمت الآن خمسة وستون عاما لم يمس أحدنا الآخر ، ونحن نقضى كل العمر فى شكر النعمة .

وحين يختار درويش الصحبة فيجب أن يطعم زوجه من وجــه حلال ، ويقضى مهرها من مال حلال . وطالما بقى عليه شيء من حقوق الله تعالى واوامره لا ينشغل بها لحظ النفس . وحين يؤدى الأوراد يقصد فراشها ، ويكظم حرصه ورغباته ويناجى الله تعالى قائلا : يا الهى ! انت الذى خلقت الشهوة فى طينة آدم لعمار العالم ، وقد أردت فى علمك القديم أن تكون لى هذه الصحبة ، فاجعل ياربب صحبتى هذه لشيئين : الأول لدفع الحــرام بالحلال ، والثانى لتهبنى ولدا وليا ورضيا ، لا ولدا يشغل قلبى عنك .

ويرد عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه انه رزق ولدا ، وكلما كان يطلب فى الصغر طعاما من والدته كانت تقول له : اطلبه من الله ، فكان يذهب الى المحراب ويسجد ، فتحضر له أمه ما يرغب فيه فى الخفاء ، دون أن يعرف أن امه هى التى اعطته له ، حتى تعود على حضرة الله . وذات يوم جاء من المدرسة ولم تكن أمه موجودة فسجد على السجادة ، فاظهر الله تعالى ما لزمه ، ودخلت أمه فرأته ، فقالت : يا بنى ! من اين هذا ؟ قال : من حيث يأتى كل مرة .

وحينما كان زكريا صلوات الله عليه يدخل على مريم كان يرى عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، فكان يسالها متعجبا : « أنى لك هذا ؟ فتقول : « هو من عند الله(١) » .

فيجب الا يلقى استعمال سنة بالدرويش فى طلب الحرام ، وشغل قلبه ، لأن هلاك الفقير يكون فى قلبه ، كما أن هلاك الغنى فى خراب بيته وحديقته ومتاعه ، لأن كل ما يتخرب للغنى له عوض ، وما يتخرب للفقير لا عوض له .

وفى زماننا هذا لا يمكن أن تكون لأحد امرأة موافقة ليست لها رغبات

---

(١) سورة « آل عمران » آية ٣٧ .

زائدة وفضول وطلب محال ، ولهذا السبب اختارت جماعة التجريد والتخفيف ، والتزموا رعاية هذا الأمر ، لقوله عليه السلام : « خير الناس فى آخر الزمان خفيف الحال . قيل يا رسول الله ما خفيف الحال ؟ قال الذى لا أهل له ولا ولد له(١) » . وقال أيضا : « سيروا ، سبق المفردون(٢) » .

ومشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم مجتمعون على أن خير المجردين وأفضلهم من تكون قلوبهم خالية من الآفات ، وطباعهم معرضة عن الرغبات.

والعوام استنادا الى خبر مروى عن النبى عليه السلام حيث قال : « حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة(٣) » يقولون : مادامت النساء محببات اليه ، فيجب أن يكون التزويج أفضل .

ونقول : « قال عليه السلام : لى حرفتان : الفقر ، والاجتهاد » ، فلم تكفون أيديكم عن حرفة اذا كانت هذه الحرفة محببة اليه ؟ فبحكم أن ميل هواكم الى تلك أكثر ، جعلتم ما تهوون محببا اليه . ومن المحال أن يظن شخص يتابع هواه خمسين عاما أنه يتبع السنة .

وفى الجملة : ان أول فتنة قدرت على آدم فى الجنة كان أصلها امرأة . وأول فتنة ظهرت فى الدنيا – أى فتنة هابيل وقابيل – كانت أيضا بسبب امرأة . وحين أراد الله تبارك وتعالى أن يعذب اثنين من الملائكة جعل سبب ذلك امرأة . وهن جميعا الى يومنا هذا سبب جميع الفتن الدينية والدنيوية ، لقوله عليه السلام : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء(٤) » ، فاذا كانت فتنتهن بهذا القدر فى الظاهر ، فكيف تكون فى الباطن ؟ .

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده : « خيركم فى المائتين كل خفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٢٦) .
(٢) مكرر .
(٣) رواه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أنس : « حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٥٠) .
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أسامة (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٤٤) .

وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هنالك رؤية ، وقد استغرقت فى ذلك عاما ، بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته ، و الحمد لله على جزيل نعمائه .

وفى الجملة فان قاعدة هذا الطريق وضعت على التجريد ، وعندما جاء التزويج اختلف أمرهم . ولا يوجد أى عسكر من عساكر الشهوة الا ويمكن اخماد ناره بالاجتهاده ، لأن الآفة التى تنشأ منك تكون آلة دفعها معك ايضا ، ولا يلزم الغير حتى تزول عنك تلك الصفة .

وزوال الشهوة يكون بشيئين : واحد يدخل تحت دائرة التكلف ، وواحد يخرج عن دائرة الكسب والمجاهدة ، فما يدخل فى تكلف الآدمى ومقدوره هو الجوع ، وأما ما يخرج عن التكلف فهو : اما خوف مقلق ، أو حب صادق ، حتى تجتمع تفاريق الهمم ، وتنشر المحبة سلطانها فى أجزاء الجسد، وتعزل كل الحواس عن أوصافهم ، وتجذب كل العبد ، وتفنى عنه الهزل .

وكان أحمد بن حماد السرخسى ، الذى كان رفيقى فى ما وراء النهر ، رجلا محتشما ، قيل له : أبك حاجة الى التزويج ، قال : لا ، قالوا : لم ؟ قال : اننى فى حالى اما أن أكون غائبا عن نفسى ، واما أن اكون حاضرا بنفسى . وحين أكون غائبا لا افكر فى الكونين ، وحين أكون حاضرا فاننى اجعل نفسى بحيث اذا وجدت رغيفا تعتبر انها وجدت الفا من الحور . فانشغال القلب بكل ما تريده يكون عظيما ، فتنبه ! .

وقالت جماعة : اننا نقطع اختيارنا عن كلا الحالين ، لنرى ماذا يتأتى من حكم التقدير وحجاب الغيب ، فاذا كان نصيبنا التجريد ، فاننا نجتهد فيه بعفة ، وان يكن التزويج فاننا نتابع السنة ، ونجتهد فى فراغ قلوبنا ، لأنه حين تكون عناية الحق مع العبد يكون تجريده مثل تجريد يوسف عليه السلام الذى حول وجهه فى حال القدرة عن مراده ، وانشغل بقهر الهوى ورؤية عيوب نفسه ، عندما خلت به زليخا . ويكون زواجه مثل زواج ابراهيم عليه السلام ، فباعتماده على الحق لم يجعل شغل الأهل

شغلا ، فلما أظهرت سارة الحسد وتعلقت بالغيرة ، أخذ ابراهيم هاجر(١) وابنها ، وحملهما الى واد غير ذى زرع واستودعهما الله ، ورجع عنهما ، فحفظهما الله تعالى ورعاهما كما أراد ، فهلاك العبد ليس فى تزويجه ولا تجريده ، فكلا الحالين هواه ، لأن بلاءه فى ثبات اختياره .

وشرط أدب المتأهل الا تفوته أوراده ، ولا يضيع أحواله ، ولا تضطرب أوقاته . وان يكون شفوقا على زوجه ، وينفق عليها من مال حلال ، ولا يرعى الظلمة والسلاطين من أجلها ، حتى اذا ما أنجب ولدا يكون على شريطة ذلك .

ومعروف فى الحكايات أن أحمد بن حرب النيسابورى رضى الله عنه كان قد جلس يوما مع جمع من رؤساء وسادات نيسابور الذين جاءوا للسلام عليه ، فدخل ولده السكير ثملا وغازفا على العود ، ومر عليهم ولم يهتم بأحد ، فتغيروا جميعا ، ورأى أحمد منهم هذا التغير فقال : ماذا أصابكم حتى تغيرتم هكذا ؟ قالوا : تغيرنا بمرور هذ الولد عليك على هذه الحال ، وخجلنا ، وهو لم يبال بك . فقال أحمد : انه معذور ، لأنهم ذات ليلة جاءوا بمأكول من منزل جار فأكلت منه أنا وزوجى ، وكانت لنا فى تلك الليلة صحبة كان منها هذا الولد ، وغشينا النوم وضاع وردنا ، فلما جاء الصباح تتبعنا أمرنا ، ورجعنا الى ذلك الجار لنعرف من اين أحضر ما بعثه لنا ، فقال : لقد أحضروه الى من عرس ، فلما نظرنا تبينا أنه كان من بيت السلطان .

وشرط آداب المجرد هو أن تغض الطرف عما لا يليق ، ولا تنظر الى ما لا يليق للرؤية ، ولا تفكر فيما لا يليق التفكير فيه ، وتطفىء نار الشهوة بالجوع ، وتحفظ القلب عن الانشغال بالأحداث ، ولا تسم هوى النفس علما ، ولا تؤول أعاجيب الشيطان ، حتى تكون مقبولا فى الطريقة .

هذه هى آداب الصحبة والمعاملة فى اختصار كما أن القليل يكون دليلا على الكثير .

---

(١) « هاجر » : هى جارية سارة زوجة ابراهيم عم وهبتها له فولدت له اسماعيل عم ؛ فغارت سارة وقالت : أخرجها عنى وولدها ، فاخرجها ومعها اسماعيل حتى صار بهما الى مكة فانزلهما عند البيت الحرام ، وفارقهما، فقالت له هاجر : على من تدعنا ؟ قال : على رب هذه البنية ، وقال : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » الآية (انظر تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٦) .

كشف الحجاب العاشر
فى بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم

اعلم اسعدك الله ان لأهل كل صنعة وارباب كل معاملة مع بعضهم البعض عبارات وكلمات فى جريان اسرارهم ، وكلمات لا يعرف معناها سواهم . والمراد من وضع العبارات شيئان : احدهما لحسن تفهيم وتسهيل الغوامض ، لتكون اقرب الى فهم المريد ، والثانى لكتمان السر عمن لا يكون اهلا لهذا العلم من الناس . والأدلة على ذلك واضحة ، فكما أن اهل اللغة مخصوصون بعبارات موضوعهم مثل : الفعل الماضى والمستقبل والصحيح والمعتل والأجوف واللفيف والناقص وامثال هذا ، واهل النحو أيضا مخصوصون بعبارات فى موضوعهم مثل : الرفع والنصب والفتح والخفض والجزم والجر والكسر والمنصرف وغير المنصرف وما شابه هذا ، واهل العروض مخصوصون بعبارات فى موضوعهم مثل : البحور والدوائر والوتد والفاصلة والفرد والزوج وما شابه هذا ، والمحاسبين مخصوصون بعباراتهم مثل : الضرب والجذر والاضافة والتضعيف والتنصيف والجمع والتفريق وما شابه هذا ، والفقهاء مخصوصون بعباراتهم مثل : العلة والمعلول والقياس والاجتهاد والدفع والالتزام وما شابه هذا ، والمحدثين كذلك لهم عباراتهم مثل : المسند والمرسل والآحاد والمتواتر والجرح والتعديل وما شابه هذا ، والمتكلمين لهم أيضا عباراتهم المخصوصة مثل : العرض والجوهر والكل والجزء والجسم والجنس والتحيز والتولى وما شابه هذا ، فلهذه الطائفة أيضا ألفاظ موضوعة لكمون وظهور كلامهم ليتصرفوا بها فى طريقتهم ويظهروها لمن يريدون ، ويخفوها عمن يريدون ، فلأبين بعض هذه الكلمات بشرح اكثر ، وأفرق بين هذه الكلمات ، وأبين ما مرادهم من كل منها ، لتتم الفائدة لك ولقراء هذا الكتاب ان شاء الله .

* فمن ذلك :

الحال والوقت والفرق بينهما :

« الوقت » : معروف بين هذه الطائفة ، وللمشايخ فيه اقوال كثيرة ، ومرادى هو اثبات التحقيق لا تطويل البيان .

فالوقت : هو ما يكون العبد فيه فارغا من الماضى والمستقبل عندما يتصل

وارد من الحق بقلبه ، ويجعل سره مجتمعا فيه ، بحيث لا يذكر فى كشفه الماضى ولا المستقبل ، فليس لكل الخلق قدرة فى هذا ، ولا يعرفون عـلام مرت السابقة ، وعلام ستكون العاقبة . وأرباب الوقت يقولون : علمنـا لا يستطيع ادراك العاقبة ولا السابقة ، ولنا فى الوقت سرور مع الحـق ، فاذا ما انشغلنا بالغد او خطر على قلبنـا التفكير فى الأمس نحجب عن الوقت ، والحجاب تشتت ، فكل ما لا تصل اليه اليد يكون التفكير فيـه محالا ، كما يقول ابو سعيد الخراز رحمه الله : لا تشغل وقتك العزيز الا بأعز الأشياء . واعز اشياء العبد شغله بين المـاضى والمسـتقبل ، « لقوله عليه السلام : لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل » ، ولهذا السبب فانه حين عرض عليه فى ليلة المعراج زينة ملك الأرض والسماء لم ينظر الى أى شىء ، « لقوله تعـالى : ما زاغ البصر وما طغى » ، لأنه كان عزيزا ، ولا يشغل العزيز الا بالعزيز . وأوقات الموحد وقتان : أحدهما فى حال الفقد ، والثانى فى حال الوجد : واحد فى محل الوصال ، والآخر فى محل الفراق ، وفى كلا الوقتين يكون متهـورا ، لأنه فى الوصل يكون وصله بالحق ، وفى الفصل يكون فصـله بالحـق ، واختياره واكتسابه لا يثبت فى هذه الاثناء حتى يمكن أن يوصف . وحين تنقطع يد اختيار العبد عن وقته يكون ما يفعله ويراه الحق .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال : رايت درويشا فى البادية جالسا تحت اشواك شجرة أم غيلان فى مكان صعب وبمشقة تامة ، فقـلت : يا اخى ! ما اجلسك هنا ؟ فقال : اعلم انه كان لى وقت ضاع هنا ، فجلست الآن اتوجع عليه . فقلت : منذ كم من السنين ؟ قال : منذ اثنتى عشرة سنة ، فليبذل الشيخ الآن همة فى الأمر ، لعلى اصل الى مرادى ، واستعيد وقتى . قال الجنيد : فمضيت واديت الحج ، ودعوت له ، فاستجيبت الدعوة ، وبلغ مراده . فلما رجعت وجدته جالسا فى نفس المكان ، فقلت : أيهـا الشاب ! لقد استعدت وقتك ، فلماذا لا تتحول عن هذا المكان ؟.فقال : ايها الشيخ ! لقد كنت الازم المكان الذى كان محل وحشتى واضعت فيـه راس مالى ، فهل يجوز الآن ان اترك المكان الذى استعدت فيه راس مالى ، وهو محل انسى ؟ فليذهب الشيخ بسلام لانى ساخلط ترابى بتراب هـذا الموضع ، حتى أرفع راسى يوم القيامة من هذا التراب الذى هو محـل انسى وسرورى . وهنا يقول المتنبى :

(شـعر عربى)

فكل امرىء يولى الجميـل محبب وكـل مكـان ينبت العـز طيب

والوقت لا يتأتى تحت كسب العبد حتى يحصل بالتكلف ، ولا يباع أيضا فى السوق ليدفع الروح ثمنا له ، ولا ارادة له فى جلبه ودفعه ، وكلا طرفيه متساويان فى رعايته ، واختيار العبد فى تحقيقه باطل . وقد قال المشايخ

« الوقت سيف قاطع » ، لأن صفة السيف التطع ، وصفة الوقت القطع ، لأن الوقت يقطع جذور المستقبل والماضى ، ويمحو عن القلب هموم الأمس والغد ، فالصحبة مع السيف خطر : « اما ملك واما هلك » ، فاذا خدم شخص السيف الف سنة وحمله على كتفه ، فانه فى حال القطع لا يميز بين قطع رقبة صاحبه ورقبة غيره ، لأن صفته القهر ، ولا يزول قهره باختيار صاحبه ، والله أعلم .

والحال : وارد على الوقت ، يزينه ، مثل الروح للجسد . والوقت لا محالة يحتاج الى الحال ، لأن صفاء الوقت يكون بالحال ، وقيامه به ، فحين يكون صاحب الوقت صاحب حال ، ينقطع عنه التغير ، ويستقيم فى وقته ، لأن الزوال يجوز على الوقت بلا حال ، فاذا اتصل به الحال تكون كل أيامه وقتا ، ولا يجوز عليه الزوال ، وكل ما يبدو مجيئا وذهابا فهو الكمون والظهور . وكما أن صاحب الوقت قبل هذا كان نازل الوقت ومتمكن الغفلة ، فهو الآن نازل الحال ومتمكن الوقت ، لأ ن الغفلة تجوز على صاحب الوقت ولا تجوز على صاحب الحال . وقد قيل « الحال سكوت اللسان فى فنون البيان » ، فلسان صاحب الحال ساكت فى بيان حاله ، ومعاملته ناطقة بتحقيق حاله ، ولهذا السبب قال أحد الشيوخ رضى الله عنه : « السؤال عن الحال محال » اذ أن العبارة عن الحال محال ، لأن الحال فناء المقال .

ويقول الاستاذ ابو على الدقاق رحمه الله : الثبور أو السرور فى الدنيا والعقبى هو الوقت الذى تكون فيه .

ثم ان الحال لا يكون كذلك لأنه وارد من الحق الى العبد ، فاذا جاء ، نفى كل ذلك من القلب ، مثل يعقوب عليه السلام ، فقد كان صاحب وقت ، فكانت عيناه تبيض تارة من الفراق فى الفراق ، وتصير مبصرة تارة من الوصال فى الوصال ، وكان حينا من البكاء كالشعرة ، وحينا من الأنين كالقصبة ، وحينا من الروح كالروح ، وحينا من السرور كالسرو . وكان ابراهيم عليه السلام صاحب حال ، ولم يكن يرى الفراق ليحزن،ولا الوصال ليسر ، وكان النجم والقمر والشمس كلها مددا لحاله ، وكان هو فارغ القلب من رؤيتها جميعا ، حتى أنه كان يرى الحق فى كل ما ينظر اليه ، ويقول : « لا أحب الآفلين(١) » ، فحينا يكون العالم جحيما لصاحب الوقت،

---

(١) سورة « الانعام » آية ٧٦ .

لأنه يكون غيبة فى المشاهدة ، ويكون قلبه من افتقاد الحبيب محلا للوحشة ، وحينا يكون قلبه كالجنان بالسرور فى نعيم المشاهدة ، لأنه فى كل زمان يكون له تحفة وبشارة من الحق فى الوقت .

وايضا اذا كان الحجاب بلية لصاحب الحال ، أو الكشف نعمة له ، فان الكل يكون لديه سواء ، لأنه يكون دائما فى محل الحال ، فالحال صفة المراد، والوقت درجة المريد ، فواحد يكون فى راحة الوقت مع نفسه ، وواحد يكون فى فرح الحال مع الحق ، « فشتان ما بين المنزلتين » ..

* ومن ذلك :

المقام والتمكين والفرق بينهما :

« المقام » : عبارة عن اقامة الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة اجتهاده وصحة نيته . ولكل واحد من مريدى الحق مقام كان السبب لهم فى ابتداء الطلب . ومهما يصب الطالب من كل مقام ويمر بكل منها ، فانه يستقر فى احدها ، لأن المقامات والارادات من تركيب الجبلة لا المسلك والمعاملة ، كما اخبرنا الله فى قوله المقدس عز من قائل : « وما منا الا له مقام معلوم(١) » ، فكان مقام آدم التوبة ، ومقام نوح الزهد ، ومقام ابراهيم التسليم ، ومقام موسى الانابة ، ومقام داود الحزن ، ومقام عيسى الرجاء ، ومقام يحيى الخوف ، ومقام محمد الذكر ، صلوات الله عليهم اجمعين .

ومهما يكن لكل واحد فى كل محل سر ، فان رجوعهم آخر الأمر ايضا الى مقاماتهم الأصلية .

وقد بينت فى مذهب المحاسبية طرفا من المقامات ، وفرقت بين الحال والمقام ، ولكنه لابد من (ذكر) هذا هنا .

اعلم ان طريق الله على ثلاثة اقسام : الأول : المقام ، والثانى : الحال، والثالث : التمكين . وقد أرسل الله عز وجل جميع الأنبياء لبيان طريقه ، ليبينوا حكم المقامات . وجميع الأنبياء والرسل جاءوا بمائة وأربعة وعشرين (الف) مقام (واكثر) ، وبمجىء محمد عليه السلام ظهر لأهل كل مقام حال واتصل به ، بحيث ينقطع كسب الخلق عنه ، حتى تم الدين على الخلق ، وبلغت النعمة غايتها ، « لقوله تعالى : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عيكم نعمتى(٢) » ، وعندئذ ظهر تمكين المتمكنين . واذا اردت أن احصى الأحوال جميعا واشرح المقامات لعجزت عن المراد .

---

(١) سورة « الصافات » آية ١٦٤ .
(٢) سورة « المائدة » آية ٣ .

اما التمكين : فهو عبارة عن اقامة المحققين فى محل الـكمال والدرجة العليا ، فيمكن لأهل المقامات العبور من المقامات ، والعبور من درجة التمكين محال ، لأن الأول درجة المبتدئين ، والثانى مستقر المنتهين . ويكون العبور من البداية الى النهاية ، ولا وجه لتجاوز النهاية ، لأن المقامات منازل الطريق ، والتمكين قرار الحضرة ، واحباء الحق يكونون فى الطريق عارية ، وفى المنازل غرباء واسرارهم فى الحضرة ، والآلة فى الحضرة آفة ، والأدوات غيبة وعلة .

وكان الشعراء فى الجاهلية يمدحون ممدوحهم بالمعاملة ، ولم يكونوا ينظمون الشعر حتى يقطعوا المسافات الطويلة ، بحيث انه عندما كان شاعر يصل الى حضرة ممدوحه كان يسل سيفه ، ويعقر دابته ، ويحطم سيفه ، وكان مراده من هذا ان يقول : ان الدابة كانت تلزمنى لأقطع بها المسافة الى حضرتك ، والسيف لأمنع به حسادى عن خدمتك ، والآن وقد وصلت (اليك) ، ففيم جدوى آلة المسافة ؟ قتلت الدابة لأنى لا اجيز الرجوع عنك ، وحطمت السيف حتى لا اخطر على قلبى الانقطاع عن حضرتك . وحين كانت تمر عدة ايام ، كانوا عندئذ ينشدون الشعر .

وقد أمر الحق تعالى موسى صلوات الله عليه بهذا ايضا ، اذ لما وصل الى محل التمكين بقطع المنازل وعبور المقامات ، سقطت عنه أسباب التلوين ، (وقال تعالى) : « فاخلع نعليك(١) » ، « والق عصاك » ، لأنهما آلة المسافة ، وآلة المسافة محال فى حضرة الوصلة ، فبداية المحبة الطلب ، وانتهاؤها الاستقرار . والماء يجرى مادام فى النهر ، فاذا وصل الى البحر ، استقر ، واذا استقر تغير طعمه ، حتى لا يميل اليه كل من يلزمه الماء ، ويميل الى صحبته من تلزم له الجواهر حتى يقول بترك الروح ، ويربط على رجليه مثقلة الطلب ، ويغوص فى البحر منكس الراس ، فاما أن يحصل على الجواهر العزيزة المكنونة ، واما ان يسلم روحه لشرك الفناء فى طلبها .

ويقول واحد من المشايخ رضى الله عنهم « التمكين رفع التلوين » ، والتلوين ايضا من عبارات هذه الطائفة مثل الحال والمقام ، وهى قريبة من بعضها البعض فى المعنى ، ومرادهم من التلوين التغير والتحول من حال الى حال . والمراد من ذلك أن لا يكون المتمكن مترددا ، ويكون قد حمل متاعه جملة الى الحضرة ، ومحا من قلبه التفكير فى الغير ، فلا تجرى عليه معاملة لتبدل حكم ظاهره ، ولا يلزمه حال ليغير حكم باطنه ، مثلما كان موسى صلوات الله عليه متلونا ، فما ان نظر الحق تعالى نظرة الى طور التجلى

(١) سورة « طه » آية ١٢ .

حتى ذهب وعيه ، « كما قال الله تعالى : وخر موسى صعقا(١) » . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متمكنا ، فكان من مكة حتى قاب قوسين فى عين التجلى ، ولم يتحول عن حاله ، ولم يتغير ، وهذه هى الدرجة العليا ، والله اعلم .

فالتمكن على نوعين : الاول ما تكون نسبته الى شاهد النفس ، والآخر ما تكون اضافته الى شاهد الحق ، فما تكون نسبته الى شاهد النفس يكون باقى الصفة ، وما تكون حوالته الى شاهد الحق يكون فانى الصفة . ولا يصح لفانى الصفة المحو والصحو واللحق والمحق والفناء والبقاء والوجود والعدم ، لانه يلزم لاقامة هذه الأوصاف موصوف ، وعندما يكون الموصوف مستغرقا يسقط عنه حكم اقامة الوصف . ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، وقد اقتصرت على هذا تركا للتطويل ، والله اعلم .

* ومن ذلك :

المحاضرة والمكاشفة والفرق بينهما :

اعلم ان المحاضرة تطلق على حضور القلب فى لطائف البيان ؛ والمكاشفة تطلق على تحير السر فى خطر العيان ، فالمحاضرة تكون فى شواهد الآيات ، والمكاشفة فى شواهد المشاهدات . وعلامة المحاضرة دوام التفكر فى رؤية الآية ، وعلامة المكاشفة دوام التحير فى كنه العظمة . وهناك فرق كبير بين من يتفكر فى الافعال ، وبين من يتحير فى الجلال ، فواحد من هذين يكون رديف الخلة ، والآخر قرين المحبة : أما رايت انه حين نظر الخليل صلوات الله عليه فى ملكوت السماوات ، وتأمل وتفكر فى حقيقة وجودها ، حضر قلبه بذلك ، وصار برؤيته للفعل طالبا للفاعل ، حتى ان حضوره صير الفعل دليلا للفاعل ، وقال فى كمال المعرفة : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا(٢) » . وعندما حمل الحبيب الى الملكوت غض الطرف عن رؤية الكل ، فلم ير الفعل ، ولم ير الخلق ، ولم ير نفسه ، حتى كوشف بالفاعل ، فازداد فى الكشف شوقا على شوقه ، وازداد قلقا على قلقه ، فطلب الرؤية ، فلم تبد الرؤية ، فطلب القربة ، فلم تمكن القربة ، فقصد الوصلة ، فلم تتحقق الوصلة ؛ وكلما ازداد حكم تنزيه الحبيب ظهورا على القلب ، ازداد شوقه الى الحبيب ، ولم يكن هناك وجه للاعراض او

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٧٩ .

الامكان ، فتحير ، فحيثما كانت الخلة بدت الحيرة كفرا ، وحيثما كانت المحبة صارت الوصلة شركا ، وصارت الحيرة هى الأصل ، لأن الحيرة هنالك كانت فى الوجود ، وذلك شرك ، وكانت هنا فى الكيفية ، وهذا توحيد ، ولهذا قال الشبلى رحمه الله : « يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا(١) » ، لأن زيادة التحير فى المشاهدة تكون زيادة فى الدرجة .

ومشهور فى الحكايات فى هذا المعنى انه عندما كان ابو سعيد الخراز رضى الله عنه مع ابراهيم بن سعد العلوى على شاطىء البحر ، شاهدا احد احباء الله ، فسألاه : ما طريق الحق ، قال : الطريق الى الحق طريقان : احدهما طريق العامة والثانى طريق الخاصة . فقالا : اشرح ، فقال : طريق العوام هو الذى تسير فيه ، فتقبل لعلة ، وترد لعلة . وطريق الخواص هو أنهم يرون معلل العلة لا العلة ، وقد مر بشرح ، حقيقة هذه الحكايات ، وليس المراد غير هذا ، « والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب » .

* ومن ذلك :

القبض والبسط والفرق بينهما :

اعلم ان القبض والبسط حالتان من الأحوال التى يسقط بها تكلف العبد ، كما أن مجيئها لا يكون بالكسب ، ولا ذهابها بالجهد ، « قوله تعالى : والله يقبض ويبسط(٢) » . فالقبض عبارة عن قبض القلوب فى حالة الحجاب ، والبسط عبارة عن بسط القلوب فى حالة الكشف ، وكلا هذين من الحق ، بغير تكلف العبد .

والقبض فى حال العارفين مثل الخوف فى حال المريدين ، والبسط فى حال العارفين مثل الرجاء فى حال المريدين ، فى قول الطائفة التى تحمل القبض والبسط على هذا المعنى .

وفريق من المشايخ على ان رتبة القبض أرفع من رتبة البسط ، لمعنيين: أولهما : ان ذكره مقدم فى الكتاب (اى القرآن) ، والثانى : ان فى القبض انصهار وقهر ، وفى البسط تدليل ولطف ، وانصهار البشرية وقهر النفس افضل لا محالة من رعايتها ، لانها الحجاب الأعظم .

---

(١) مكرر .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٤٥ .

وطائفة على ان رتبة البسط ارفع من رتبة القبض ، لأن تقديم ذكر القبض فى الكتاب علامة تقديم فضل المؤخر عليه ، لأنه فى عرف العرب يجعلون الشىء المؤخر فى الفضل مقدما فى الذكر ، « كما قال الله تعالى : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله(١) » . وقال أيضـا : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(٢) » . وقوله تعالى : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين(٣) » . وأيضا : فى البسط سرور ، وفى القبض ثبور ، وسرور العارفين لا يعرف الا فى الوصول ، وثبورهم لا يكون الا فى الفصل ، فالقرار فى محل الوصل افضل من القرار فى محـل الفراق .

وكان شيخى رحمه الله يقول ان القبض والبسط كلاهما بمعنى واحد ، لأنهما يصلان من الحق الى العبد ، لأنه عندما يظهر اثر ذلك المعنى على القلب فاما أن يسر به السر وتقهر به النفس ، واما ان يقهر به السر وتسر النفس ، فواحد يكون فى قبض سره بسط نفسه ، وآخر يكون فى بسط سره قبض نفسه ، لأن التعبير عن ذلك بغير هذه العبارة يكون تضييع انفاس ، ولذلك قال بايزيد رحمه الله : « قبض القلوب فى بسط النفوس ، وبسط القلوب فى قبض النفوس » . فالنفس المقبوضة محفوظة من الخلل ، والسر المبسوط مضبوط من الزلل ، لأن الغيرة فى المحبة مذهب ، والقبض علامة غيرة الحق ، ومعاتبة الحبيب للحبيب شرط ، والبسط علامة المعاتبة .

ومعروف فى الآثار أن يحيى لم يضحك طيلة حياته ، وأن عيسى لم يبـك طول عمره ، صلوات الله عليهما ، لأن احدهما كان منقبضا ، والآخر كان منبسطا ، فلما التقيا قال يحيى : يا عيسى ! هل امنت القطيعة ؟ فقال عيسى : يا يحيى ! هل يئست من الرحمة ؟ فلا بكاؤك يغير الحكم الأزلى ، ولا ضحكى يغير القضاء المبرم .

فلا قبض ، ولا بسط ، ولا طمس ، ولا أنس ، ولا محو ، ولا محق ، ولا عجز ، ولا جهد الا ما كان تقديرا وحكما سابقا ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

الأنس والهيبة والفرق بينهما :

اعلم اسعدك الله ان الأنس والهيبة حالتان من ،حوال صعاليك طريق

---

(١) سورة « فاطر » آية ٣٢ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .
(٣) سورة « آل عمران » آية ٤٣ .

الحق ، وذلك انه حين يتجلى الحق تعالى على قلب العبد بشاهد الجلال يكون نصيبه فى ذلك الهيبة ، وايضا حين يتجلى على قلب العبد بشاهد الجمال يكون نصيبه فى ذلك الانس ، ليكون اهل الهيبة من جلاله فى تعب ، واهل الأنس من جماله فى طرب . وفرق بين القلب الذى يحترق من جلاله فى نار المحبة ، والقلب الذى يضىء من جماله فى نور المشاهدة .

وقد قالت طائفة من المشايخ ان الهيبة درجة العارفين ، والانس درجة المريدين ، لأن كل من تكون قدمه فى حضرة الحق وتنزيه أوصافه اثبت ، يكون سلطان الهيبة على قلبه اقوى ، ويكون طبعه أكثر نفورا من الانس ؛ لأن الأنس يكون مع الجنس ، ولما كانت مجانسة العبد ومشاكلته للحق مستحيلة فلا يتحقق له انس معه ، وانسه (أى الله) ايضا بالخلق محال . واذا أمكن الأنس فانه يكون ممكنا مع ذكره ، وذكره غيره ، لأنه صفة العبد ، والأنس مع الغير فى المحبة كذب ودعوى ووهم . والهيبة ايضا فى المشاهدة عظمة ، والعظمة صفة الحق جل جلاله . وفرق كبير بين عبد يكون أمره من نفسه بنفسه ، وعبد يكون أمره من فنائه ببقاء الحق .

ويحكى عن الشبلى رحمه الله انه قال : كنت أظن مدة طويلة أننى اطرب فى محبة الحق ، وآنس بمشاهدته ، والآن ادركت انه لا انس للانس الا مع الجنس .

وقالت طائفة ايضا إن الهيبة قرينة العذاب والفراق والعقوبة ، والأنس نتيجة الوصل والرحمة ، ليكون الأحبة محفوظين من أخوات الهيبة ، واقرانا للأنس ، لأن المحبة لا محالة تقتضى الأنس . وكما ان المجانسة للمحبة محال ، فانها محال أيضا للانس .

وكان شيخى رحمه الله يقول : انى لأعجب ممن يقول ان الأنس مع الحق غير ممكن ، من بعد ان قال : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب(١) » و « وان عبادى(٢) » ، و « قل لعبادى(٣) » و « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون(٤) » . وحين يرى العبد هذا الفضل فانه يحبه لا محالة ، وعندما يحبه يأنس به ، لأن الهيبة من الحبيب غربة ، والأنس وحدة ، وصفة الآدمى هى انه يأنس بالمنعم ، ولنا من الحق نعم كثيرة ، ومعرفتنا به تكون محالا اذ نتحدث عن الهيبة .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٦ .
(٢) سورة « الحجر » آية ٤٢ .
(٣) سورة « ابراهيم » آية ٣١ .
(٤) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

وأنا على بن عثمان الجلابى اقول ان كلا الطائفتين مصيبتان فى هذا ، مع اختلافهما ، لأن سلطان الهيبة يكون مع النفس وهواها ، وافناء للبشرية . وسلطان الأنس يكون مع السر ، وتربية المعرفة فى السر ، فالحق تعالى يفنى نفوس الأحبة بتجلى الجـلال ، ويبقى أسرارهم بتجلى الجمـال ، فمن كانوا أهل فناء قدموا الهيبة ، ومن كانوا أرباب بقاء فضلوا الأنس ، وقد شرح هذا قبل ذلك فى باب الفناء والبقاء ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

القهر واللطف والفرق بينهما :

اعلم أن هاتين عبارتان للصوفية يعبرون بهما عن حالهم . ومرادهم من القهر : تأييد الحق بافناء المرادات ، ومنع النفس عن الرغبات ، من غير أن يكون لهم فى ذلك مراد . والمراد من اللطف : تأييد الحق ببقاء السر ، ودوام المشاهدة ، وقرار الحال فى درجة الاستقامة ، الى حد أن قالت طائفة ان الكرامة من الحق حصول المراد ، وهؤلاء أهل اللطف . وقالت طائفة ان الكرامة هى أن الحق تعالى يرد العبد عن مراد نفسه الى مراده ، ويقهره بغير مراده ، بحيث اذا ذهب الى البحر فى حال الظمأ يجف البحر .

يقال انه كان فى بغداد درويشان من محتشمى الصوفية ، كان أحدهما صاحب قهر ، والآخر صاحب لطف ، وكانا يتجادلان دائما ، وكان كل منهما يفضل حاله على حال صاحبه ، فكان واحد يقول : ان اللطف من الحق الى العبد أشرف الأشياء ، « لقوله تعالى : الله لطيف بعباده(١) » ، وكان الآخر يقول : ان القهر من الله الى العبد اكمل الأشياء ، « لقوله تعالى : وهو القاهر فوق عباده(٢) » ، وقد طال هذا الكلام بينهما ، الى أن قصد صاحب اللطف مرة مكة ، فأوغل فى البادية ، ولم يصل الى مكة ، ولم يعرف احد عنه شيئا سنين طويلة ، حتى جاء واحد من مكة الى بغداد فى وقت ، فرآه على قارعة الطريق ، فقال له : يا اخى ! حين تذهب الى العراق،قل لرفيقى فى الكرخ : اذا اردت أن ترى البادية مع مشقتها مثل كرخ بغداد بعجائبها ، فتعال وانظر ، فها هى البادية قد صـارت بالنسبة لى مثل كرخ بغداد . فلما جاء الدرويش وطلب رفيقه ، وأدى الرسالة ، قال الرفيق : حين تعود

---

(١) سورة « الشورى » آية ١٩ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ١٨ .

قل له : لا شرف فى ان جعلت البادية الشاقة بالنسبة اليك مثل كرخ بغداد ، حتى لا تفر من الحضرة ، ولكن الشرف هو ان تجعل كرخ بغداد بكل ما فيها من نعم وعجائب بالنسبة لشخص مثل بادية شاقة ليكون فيها مسرورا .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه انه قال فى مناجاته : يا الهى ! اذا صيرت السماء طوقا لى ، والأرض قيدا لرجلى ، وجعلت العالم كله متعطشا لدمى ، فاننى لا اتحول عنك ! . وقال شيخى : فى سنة من السنين اجتمع الأولياء فى البادية وأخذنى شيخى الحصرى رضى الله عنه معه الى هناك ، فرأيت جماعة كان كل منهم مقبلا على نجيب ، وجماعة كانوا يحضرونهم على تخت ، وجماعة كانوا يطيرون . وكل من كانوا يجيئون من هذا القبيل لم يكن الحصرى يلتفت اليهم ، حتى رايت شابا قادما بنعلين ممزقين وعصا محطمة ، وقد كلت قدماه ، ورأسه حاسر ، وجسده محترق ، فهب الحصرى وتقدم اليه ، وأجلسه فى درجة عالية ، فتعجبت ، وسألت الشيخ بعد ذلك ، فقال : انه ولى من أولياء الله تعالى وتقدس ، غير تابع للولاية ، بل الولاية تابعة له ، ولا يلتفت الى الكرامات .

وجملة القول فان ما نختاره لأنفسنا هو بلاء لنا ، وانا لا اريد غير مايحفظنى الحق فيه من الآفة ، ويخلصنى فيه من شر نفسى ، فاذا جعلنى فى القهر لا اتمنى اللطف ، واذا جعلنى فى اللطف لا اتمنى القهر ، فليس لى اختيار مع اختياره ، وبالله التوفيق وحسبنا الله ونعم الرفيق .

* ومن ذلك :

النفى والاثبات والفرق بينهما :

مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم اسموا محو الصفة باثبات تأييد الحق : نفيا واثباتا ، وارادوا بالنفي : نفى صفة البشرية ، وبالاثبات : اثبات سلطان الحقيقة ، لأن المحو ذهاب الكل ، ونفى الكل لا يقع الا على الصفات، لأن الفناء لا يكون على الذات فى حال بقاء البشرية ، فيجب نفى الصفات المذمومة باثبات الخصال المحمودة : يعنى نفى الدعوى فى محبة الحق تعالى باثبات المعنى ، لأن الدعوى من رعونات النفس . وجريا على عاداتهم فى حكم الأوصاف جعلوها مقهورة لسلطان الحق ، ويقولون ان نفى الصفات البشرية يكون باثبات بقاء الحق . وقد سبق الكلام فى هذا المعنى قبل ذلك فى باب الفقر والصفوة والفناء والبقاء ، وقد اقتصرت على ذلك .

ويقولون ايضا : ان المراد بهذا هو نفى اختيار العبد باثبات اختيار الحق، ولهذا السبب قال ذلك الموفق : « اختيار الحق لعبده مع علمه بعبده خير من اختيار عبده لنفسه مع جهله بربه » . لأن المحبة هى نفى اختيار المحب باثبات اختيار المحبوب .

وقد وجدت فى الحكايات ان درويشا غرق فى البحر ، فقال له رجل : يا اخى ! هل تريد ان تنجو ؟ قال : لا ، قال : اتريد أن تغرق ؟ قال : لا ، قال : انه لأمر عجيب ، لا تختار الهلاك ، ولا تطلب النجاة ؟ فقال : ما شأنى بالاختيار حتى أختار ؟ اختيارى هو ما يختاره لى الحق .

وقال المشايخ الأخيار ان اقل درجات المحبة نفى الاختيار ، فاختيار الحق أزلى ولا يمكن نفيه ، واختيار العبد عرضى ويجوز عليه النفى ، فيجب على العبد أن يدوس الاختيار العرضى ليدرك البقاء بالاختيار الأزلى ، مثل موسى صلوات الله عليه حينما انبسط على الجبل مع الحق تعالى فتمنى الرؤية ، وقال باثبات اختياره ، فقال الحق « لن ترانى(١) » ، قال : يا الهى ! الرؤية حق ، وأنا مستحق ، فلم المنع ؟ فجاء الأمر : الرؤية حق ، اما الاختيار فى المحبة فباطل .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، ولكن مقصودى ليس اكثر من ان تعرف ما مقصود القوم من هذه العبارة . وقد مر من هذا كله ذكر التفرقة والجمع ، والفناء والبقاء ، والغيبة والحضور فى مذاهب المتصوفة ، حيث ذكر الصحو والسكر ، فمن له اشكال فليطلب هذه المعانى هنالك ، لأن محل بيان كل هذا هناك ، ولكن بحكم الضرورة جئت هنا بهذا القدر ، لأشرح بذلك مذهب كل منهم .

* ومن ذلك :

المسامرة والمحادثة والفرق بينهما :

وهاتان الكلمتان تعبيران عن حالين من احوال الكاملين فى طريق الحق ، وحقيقة هذا الكلام سر مقرون بسكوت اللسان ، اى أن المحادثة وحقيقة المسامرة هما دوام الانبساط بكتمان السر . وظاهر المعنى هو ان المسامرة وقت للعبد مع الحق ليلا ، والمحادثة وقت له مع الحق نهارا ، يكون فيه

---

(١) سورة « الاعراف » آية ١٤٣ .

السؤال والجواب ظاهريا وباطنيا ؛ ولهذا السبب يسمون مناجاة الليل : مسامرة ، ودعوات النهار : محادثة ، فحال النهار مبنى على الكشف ، وحال الليل مبنى على الستر . والمسامرة فى المحبة اكمل من المحادثة . .

والمسامرة تتعلق بحال النبى صلى الله عليه وسلم ، فحين اراد الحق تعالى ان يكون له وقت معه ، ارسل اليه جبريل بالبراق ، حتى اوصله فى الليل من مكة الى قاب قوسين ، وناجى الحق ، وسمع كلامه ، ولما بلغ النهاية خرس لسانه فى كشف الجلال ، وحار قلبه فى كنة العظمة ، وعجز علمه عن الادراك ، فعجز لسانه عن العبارة ، فكان يقول : « لا احصى ثناء عليك(١) » .

والمحادثة تتعلق بحال موسى عليه السلام ، لأنه حين اراد ان يكون له مع الحق تعالى وقت ، جاء الى الطور بعد اربعين يوما من الوعد والانتظار ، وسمع كلام الله تعالى ، حتى انبسط ، وطلب الرؤية ، وعجز عن المراد ، وغاب عن الوعى ، فلما عاد الى وعيه قال : « تبت اليك(٢) » ، حتى ظهر الفرق بين من جىء به : « قوله تعالى : سبحان الذى اسرى بعبده ليلا(٣) » ، وبين من جاء : « قوله تعالى : لما جاء موسى لميقاتنا(٤) » ، فالليل وقت خلوة الأحبة ، والنهار وقت خدمة العبيد ؛ ولا محالة من ان العبد حين يتجاوز حده يزجر ، وايضا الحبيب لا حد له حتى يستوجب الملامة بتجاوز الحد ، لأن كل ما يفعله الحبيب لا يكون الا مقبولا لذى الحبيب ، والله اعلم بالصواب

* ومن ذلك :

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والفرق بينهما :

اعلم ان هذه فى حكم الأصول عبارات عن العلم ، والعلم بلا يقين على صحته لا يكون علما ، واذا حصل العلم ؛ تكون الغيبة فيه مثل العيان ، لأن المؤمنين غدا يرون الحق تعالى على نفس الصفة التى يعرفونه بها اليوم ، سواء راوه على خلاف هذا ، او ان الرؤية لا تصح فى الغد ، او ان العلم

---

(١) مكرر .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٣) سورة « الاسراء » آية ١ .
(٤) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .

لا يصح اليوم . وهذان كلاهما طرفا الخلاف فى التوحيد ، لأن علم الخلق به صحيح اليوم ، ورؤيتهم له صحيحة فى الغد ، فعلم اليقين مثل عين اليقين ، وحق اليقين مثل علم اليقين . ومن قالوا باستغراق العلم فى الرؤية فذلك محال ، لأن الرؤية آلة لحصول العلم ، مثل السماع وما شابه هذا ، ومادام استغراق العلم فى السماع محال ، فانه يكون أيضا محالا فى الرؤية ، فمراد هذه الطائفة بعلم اليقين هذا هو العلم بمعاملات الدنيا واحكام الأوامر ، ومرادهم من عين اليقين هو العلم بحال النزع وقت الرحيل عن الدنيا ، ومرادهم من حق اليقين هو العلم بكشف الرؤية فى الجنة ، وكيفية احوالها بالمعاينة ، فعلم اليقين هو درجة العلماء بحكم استقامتهم على أحكام الأمور ، وعين اليقين هو مقام العارفين بحكم استعدادهم للموت ، وحق اليقين هو محل فناء الأحبة بحكم اعراضهم عن كل الموجودات .

فعلم اليقين بالمجاهدة ، وعين اليقين بالمؤانسة ، وحق اليقين بالمشاهدة . والأول عام ، والثانى خاص ، والثالث خاص الخاص ، والله أعلم بالصواب.

* ومن ذلك :

العلم والمعرفة والفرق بينهما :

لم يفرق علماء الأصول بين العلم والمعرفة ، وقالوا ان كلاهما سواء ، غير انهم قالوا : يجوز ان يقال للحق تعالى عالما ، ولا يجوز ان يقال عارفا ، لعدم التوافق . اما مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم فهم يسمون العلم المقرون بالمعاملة والحال — وهو العلم الذى يعبر عن احوالهم — بالمعرفة ، ويسمون العالم به عارفا . ويسمون العلم المجرد من المعنى والخالى من المعاملة علما ، ويسمون العالم به عالما ، فمن يكن عالما بالعبارات المجردة ، وحفظها بدون حفظ المعنى ، يسموه عالما ، ومن يكن عالما بمعنى الشىء وحقيقته يسموه عارفا ، ولذلك فان هذه الطائفة حين يريدون الاستخفاف باقرانهم يسمونهم علماء ، وهذا يبدو للعوام منكرا ، وليس مرادهم ذمهم بحصول العلم ، بل مرادهم ذمهم بترك المعاملة ، لأن العالم قائم بنفسه ، والعارف قائم بربه . وقد مر الحديث فى هذا فى كشف حجاب المعرفة ، ويكفى هنا هذا القدر ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

الشريعة والحقيقة والفرق بينهما :

هاتان عبارتان لهؤلاء القوم يعبرون باحداهما عن صحة حال الظاهر

وبالثانية عن اقامة حال الباطن . وقد اخطأ فريقان فى هذا المعنى : أحدهما علماء الظاهر الذين يقولون اننا لا نفرق بينهما ، لأن الشريعة هى الحقيقة ، والحقيقة هى الشريعة ، والثانى : فريق الملاحدة الذين لا يجيزون قيام كل واحدة منهما مع الأخرى ، ويقولون انه اذا انكشفت الحقيقة ارتفعت الشريعة ، وهذا قول القرامطة والشيعة وموسوسيهم . والدليل على أن الشريعة منفصلة عن الحقيقة فى الحكم هو أن التصديق فى الايمان منفصل عن القول . والدليل على انهما غير منفصلتين فى الأصل ان التصديق بدون القول لا يكون ايمانا ، والقول بدون التصديق لا يكون ايمانا . والفرق ظاهر بين القول والتصديق ، فالحقيقة عبارة عن المعنى الذى لا يجوز عليه النسخ ، وحكمه متساو منذ عهد آدم حتى فناء العالم : مثل معرفة الحق ، وصحة معاملة النفس بخلوص النية . والشريعة عبارة عن المعنى الذى يجوز عليه النسخ والتبديل : مثل احكام الأوامر ، فالشريعة هى فعل للعبد ، والحقيقة هى حفظ الله وعصمته جل جلاله للعبد .

فاقامة الشريعة بدون وجود الحقيقة محال ، واقامة الحقيقة بدون حفظ الشريعة محال ، ومثلهما كمثل شخص حى بالروح ، فعندما تنفصل عنه الروح يصير جيفة ، وتصير الروح ريحا ، فقيمتهما فى اقترانهما ببعضهما البعض . وكذلك الشريعة تكون بدون الحقيقة رياء ، وتكون الحقيقة بدون الشريعة نفاقا ، « قوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(١) » ، فالمجاهدة شريعة ، والهداية حقيقة ، والأولى هى حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه ، والثانية هى حفظ الحق لأحوال الباطن عن العبد . والشريعة من المكاسب ، والحقيقة من المواهب ، واذا صار هذا مسلما ، فانه يوجد فرق كبير بينهما ، والله أعلم .

* * *

والنوع الآخر من هذه الحدود هو العبارات التى تقبل الاستعارة فى كلامهم ويصير حكمها بالتفصيل والشرح أصعب ، وسأبين هذا النوع على سبيل الاختصار ان شاء الله تعالى .

الحق : مرادهم من الحق : « الله » ، لأن هذا اسم من أسماء الله ، لقوله تعالى : ذلك بأن الله هو الحق(٢) » .

---

(١) سورة « العنكبوت » آية ٦٩ .
(٢) سورة « الحج » آية ٦ .

الحقيقة : مرادهم بهذا اللفظ : اقامة العبد فى محل وصل الله ، ووقوف سره على محل التنزيه .

الخطرات : ما يخطر على القلب من احكام الطريقة .

الوطنات : ما يتوطن فى السر من المعانى الالهية .

الطمس(١) : نفى العين بحيث لا يبقى منها اثر .

الرمس : نفى العين مع الأثر من القلب .

العلائق : الأسباب التى يتعلق بها الطالبون ويتخلفون عن المراد .

الوسائط(٢) : الاسباب التى يصلون بالتعلق بها الى المراد .

الزوائد(٣) : زيادة الانوار بالقلب .

الفوائد : ادراك سر لابد منه .

الملجا : اعتماد القلب بحصول مراده .

المنجى : خلاص القلب من محل الآفة .

الكلية : استغراق الأوصاف الآدمية بالكلية .

اللوائح(٤) : اثبات المراد مع سرعة نفيه .

اللوامع : اظهار النور على القلب مع بقاء فوائده .

الطوالع(٥) : طلوع انوار المعارف على القلب .

---

(١) « الطمس » عرفه السراج بأنه : محو البيان عن الشيء البين (اللمع ص ٤٣٤) .

(٢) الوسائط : هى الاسباب التى بين الله تعالى وبين العبد من اسباب الدنيا والآخرة . وقال بعض المشايخ : الوسائط على ثلاثة أوجه : وسائط مواصلات ووسائط متصلات ، ووسائط منفصلات ، فالمواصلات بوادى الحق ، والمتصلات العبادات ، والمنفصلات حظوظ النفس (اللمع ص ٤٥٢) .

(٣) الزوائد : هى زيادات الايمان بالغيب واليقين ، كلما ازداد الايمان واليقين زاد الصدق والاخلاص فى الأحوال والمقامات (اللمع ص ٤١٥) .

(٤) اللوائح : ما يلوح للأسرار الظاهرة لزيادة السمو والانتقال من حال الى حال أعلى من ذلك (اللمع ص ٤١٢) .

(٥) الطوالع : انوار التوحيد على قلوب أهل المعرفة بتشعشعها فيطمئن ما فى القلوب من الانوار بسلطان نورها . وقال الحسين بن منصور فى هذا المعنى :

قد تجلت طوالع زاهرات يتشعشعن فى لوامع برق
خصنى بها واحدى بتوحيد صدق ما اليها من المسالك طرق
(اللمع ص ٢٢٢)

الطوارق[1] : وارد الى القلب بالبشـارة ، أو الزجر فى مناجاة الليل .

اللطيفـة[2] : اشـارة الى القلب عن دقائق الحال .

الســر[3] : اخفاء حال المحبة .

النجــوى : اخفاء الآفات عن اطلاع الغير .

الاشارة[4] : اخبار الغير عن المراد بغير عبارة اللســان .

الايمــاء[5] : تعريض الخطاب بدون اشارة وعبارة

الــــوارد : حلول المعانى بالقلب .

الانتبــــاه : زوال الغفلة عن القلب .

الاشــتباه : اشكال الحال فى طرفى حكم الحق والباطل .

القــــرار : زوال التردد عن حقيقة الحال .

الانزعاج[6] : تحرك القلب فى حال الوجد .

هذا هو معنى بعض الفاظهم على سبيل الاختصار ، وبالله العــون والعصــمة .

* * *

---

(١) الطوارق : ما يطرق أهل الحقــائق من طريق الســمع فيجدد لهم حقائقهم . والطوارق فى اللغة : ما يطرق بالليل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو : واعوذ بك من شر طوارق الليــل والنهار الا طارقا يطرق بخير (اللمع ص ٢٢٢) .

(٢) اللطيفة : اشارة تلوح فى الفهم وتلمع فى الذهن ، ولا تســعها العبارة لدقة معناها (اللمع ص ٤٤٨) .

(٣) السر : ما غيبه الحق ولم يشرف عليه الخلق ، فسر الخلق ما اشرف عليه الحق بلا واسطة ، وسر الحق ما يطلع عليه الا الحق . وقال قائل :

يا سر سر يــــدق حتى — يخفى على وهــم كل حى
وظــاهر باطن تجــــــلى — من كل شىء لــــكل شىء
(اللمع ص ٤٣٠)

(٤) الاشـارة : ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه . (اللمع ص ٤١٤)

(٥) الايمـــاء : اشارة بحركة جارحة (اللمع ص ٤١٤) .

(٦) الانزعاج : تحرك القلب للمراد باليقظة من سنة الغفلة . وقال الجنيد فى بعض كلامه : كيف لا تسمو اليه السرائر ، وتنزعج بما فيها اليه الضمائر ! وكيف لا تسرع اليه الأقدام بالطاعة ، وتنهض اليه بالجد والمبادرة ، انسا منها ببلاياه ، وسرورا بعظيم عطاياه . (اللمع ص ٤٤٤) .

نوع آخر من حدود هذه الالفاظ التى يستعملونها فى توحيد الله تعالى ، ويستعملونها فى بيان اعتقادهم فى الحقائق بدون استعارة ، ومنها :

العالم : والعالم عبارة عن مخلوقات الله . ويقولون : ثمانية عشر الف عالم ، وخمسون الف عالم .

والفلاسفة يقولون انه عالمان : علوى ، وسفلى . وعلماء الأصول يقولون : كل ما هو موجود من العرش الى الثرى : عالم .

وفى الجملة : العالم هو اجتماع المختلفات . واهل هذه الطريقة ايضا يقولون : عالم الأرواح ، وعالم النفوس ، ومرادهم غير مراد الفلاسفة ، لأن مرادهم اجتماع الأرواح والنفوس .

المحدث : المتاخر فى الوجود . اى الذى لم يكن ، وكان بعد ذلك .

القديم : السابق فى الوجود ، وهو دائم ، وكان وجوده سابقا على كل الموجودات ، وهذا لا يكون الا الله تعالى .

الأزل : ما ليس له اول .

الأبد : ما ليس له آخر .

الذات(١) : وجود الشىء وحقيقته .

الصفة : ما لا يقبل النعت لأنه غير قائم بذاته .

الاسم : غير المسمى .

التسمية : خبر عن المسمى .

النفى : ما يقتضى عدم المنفى .

الاثبات : ما يقتضى وجود المثبت .

الشيئان : ما يجوز وجود احدهما بالآخر .

الضدان : ما لايجوز وجود احدهما مع بقاء وجود الآخر فى حال واحد .

الغيران : ما يجوز وجود كل واحد منهما بدون الآخر .

الجوهر : اصل الشىء القائم بنفسه .

العرض : ما يقوم بالجوهر .

---

(١) الذات : هى الشىء القائم بنفسه ، والاسم والنعت والصفة معالم للذات .

(اللمع ٤٢٧) .

الجسم : ما يكون مؤلفا من اجزاء متناثرة .

السـؤال : طلب الحقيقـة .

الجواب : الاخبار عن مضمون السؤال .

الحسن : ما يوافق الأمر .

القبيـح : ما يخالف الأمر .

السـفه : ترك الأمر .

الظـلم : وضع الشيء فى غير موضعه ، وفيما لا يناسبه .

العـدل : وضع كل شيء فى مكانه .

المـلك : هو من لا يمكن الاعتراض عليه فيما يفعل .

هذه هى حدود الألفـاظ التى لابد للطالبين من معرفتها ، على سـبيل الاختصار ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .



ونوع آخر ، وهو العبارات التى تحتاج الى شرح ، ومتداولة بين المتصوفة، وليس مقصودهم بها ما هو معلوم لأهل اللسان من ظاهر اللفظ .

الخاطر(١) : يريدون بالخاطر حصول المعنى فى القلب مع سرعة زواله بخاطر آخر ، وقدرة صاحب الخاطر على دفعه عن القلب .

واهل الخاطر يتبعون الخاطر الأول فى الأمور ، لانه يكون من الحق تعالى وتقدس الى العبد بدون علة . ويقال انه بدا لخير النساج خاطر ان الجنيد ببابه ، فدفع هذا الخاطر عنه ، فجاء خاطر آخر لمدده ، فانشغل بدفعه أيضا فجاء خاطر ثالث ، فخرج ، ورأى الجنيد رضى الله عنه واقفا بالباب ، فقال له : يا خير ! لو إنك اتبعت الخاطر الأول ، واديت سنة المشايخ ، لما لزمنى ان أقف كثيرا بالباب .

وقد قال المشايخ : اذا كان ذلك هو الخاطر الذى خطر لخير ، فما ذلك الاشراف الذى كان للجنيد ؟ قيل : الجنيد كان شيخا لخير ، ولا محالة أن يكون الشيخ مشرفا على كل أحوال مريده .

---

(١) الخاطر : تحريك السر لا بداية له ، واذا خطر بالقلب فلا يثبت فيزول بخاطر آخر مثله . (اللمع ص ٤١٨) .

الواقع(١) : يريدون بالواقع : المعنى الذى يظهر فى القلب ويبقى ، وذلك على خلاف الخاطر ، ولا يكون للطالب بأى حال آلة لدفعه ، مثلما يقولون : خطر على قلبى ، ووقع فى قلبى ، فالقلوب كلها محل الخواطر . أما الواقع فلا يكون الا على القلب الذى يكون حشوه كل حديث الحق . ومن ذلك أنه حين يظهر للمريد قيد فى طريق الحق يقال له قيد ، ويقولون : وقعت له واقعة .

واهل اللسان يريدون بالواقع : الاشكال فى المسائل ، وحين يجيب أحد عليه ويرتفع الاشكال يقولون : انحلت الواقعة . أما اهل التحقيق فيقولون ان الواقع هو ما لا يجوز عليه الحل ، وما ينحل يكون خاطرا لا واقعا ، لأن قيد اهل التحقيق لا يكون فى شىء حقير يتغير حكمه فى كل وقت ويتحول عن حاله .

الاختيار : يريدون بالاختيار : ان يختاروا اختيار الحق على اختيارهم ، اى أنهم يرضون بما يختاره الحق لهم من الخير والشر ، واختيار العبد لاختيار الحق تعالى يكون أيضا باختيار الحق ، لأنه لو لم يختره الحق تعالى بلا اختيار لما ترك اختياره . وسئل أبو يزيد رضى الله عنه : من هو الأمير ؟ فقال : من لم يبق له اختيار ، وصار اختيار الحق له اختيارا . ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه اصابته الحمى مرة ، فقال : يا الهى ! عافنى ، فنودى فى سره : من أنت حتى تتكلم فى ملكى وتختار ، وأنا أعرف تدبير ملكى احسن منك ، فاختر اختيارى ولا تظهر نفسك باختيارك ، والله أعلم .

الامتحان(٢) : يريدون بالامتحان : امتحان قلوب الأولياء بأنواع البلايا التى تأتى من الحق تعالى : من خوف وحزن وقبض وهيبة وامثال ذلك : « لقوله تعالى : اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة واجر عظيم(٣) » وفى هذا درجة عظيمة .

البلاء : ويريدون بالبلاء امتحان اجساد الأحبة بأنواع المشقات والأمراض والآلام ، لأنه كلما كان البلاء اكثر قوة على العبد فانه يكون أكثر قربا

---

(١) الواقع : ما يثبت ولا يزول بواقع آخر (اللمع ص ٤١٨) .
(٢) الامتحان : ابتلاء من الحق يحل بالقلوب المتبلة على الله تعالى . والامتحان على ثلاثة : لقوم منهم عقوبة ، ولقوم منهم تمحيص وكفارة ، ولقوم استدعاء الزيادة وارتفاع الدرجة (اللمع ص ٤٤٨) .
(٣) سورة « الحجرات » آية ٣ .

للحق ، لان البلاء لباس الأولياء ، ومهد الأصفياء ، وغذاء الانبياء صلوات الله عليهم : الم تر ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اشد البلايا للانبياء ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالامثل ، نحن معاشر الأنبياء اشد الناس بلاء(١) » .

وجملة القول فان البلاء اسم للألم الذى يظهر على قلب المؤمن وجسده وتكون حقيقته النعمة ، وبحكم أن سره يكون خافيا على العبد فانه يثاب عليه باحتماله آلامه . ثم ان ما يصيب الكافرين لا يكون بلاء بل يكون شقاء ، ولا يكون للكافرين من الشقاء شفاء ابدا . فمرتبة البلاء أعظم من مرتبة الامتحان ، لأن تأثير الامتحان يكون على القلب ، أما تأثير البلاء فيكون على القلب والجسد ، والله أعلم .

التحلى(٢) : التحلى هو الانتساب الى قوم محمودين فى القول والعمل ، « قوله عليه السلام : ليس الايمان بالتحلى والتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل(٣) » ، فتشبهك بقوم بدون حقيقة معاملتهم هو التحلى . وأولئك الذين يتظاهرون ولا يكونون كذلك ؛ سرعان ما يفتضحون ويذيع سرهم ، ومهما يكونوا عند أهل التحقيق ، فانهم هم انفسهم فضيحة ، وسرهم مكشوف .

التجلى(٤) : هو تأثير انوار الحق بحكم الاقبال على قلوب المقبلين الجديرين بأن يروا الحق بقلوبهم . والفرق بين هذه الرؤية ورؤية العيان هى ان المتجلى اذا اراد يرى ، واذا أراد لا يرى ، أو يرى وقتا ولا يرى آخر . أما أهل العيان فى الجنة فانهم اذا أرادوا الا يروا فانهم لا يستطيعون الا يروا ، لأن الستر يجوز على التجلى ، ولا يجوز الحجاب على الرؤية ، والله أعلم .

---

(١) لفظه المشهور : اشد الناس بلاء الأنبياء ثم الامثل فالامثل : يبتلى الرجل على قدر دينه .. الخ الحديث . رواه أحمد والترمذى وابن حبان (الكنز الثمين ص ٦٠) .

(٢) التحلى : التلبيس ، والتشبه بالصادقين ، بالأقوال واظهار الأعمال. وقال بعضهم :

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

(اللمع ص ٤٣٩) .

(٣) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن انس (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٢٧) .

(٤) التجلى : اشراق انوار اقبال الحق على قلوب المقبلين عليه . (اللمع ص ٤٣٩) .

التخلى(١) : هو الاعراض عن الأشغال المانعة للعبد عن الله : واولها مشاغل الدنيا ، بحيث يخلى يده منها بحكم تشريف العناية . وثانيها : أن يقطع عن قلبه ارادة العقبى . وثالثها : أن يخلى السر من متابعة الهوى . ورابعها : أن يعرض عن صحبة الخلق ، ويخلى القلب من التفكير فيهم .

الشرود(٢) : معنى الشرود هو طلب الحق بالخلاص من الآفات والحجب وعدم الاستقرار فيها ، لأن جميع بلايا الطالب تقع من الحجاب . وهم يسمون حيل الطلاب لكشف الحجاب ، واسفارهم ، وتعلقهم بكل شيء شرودا . وكل من يكون أكثر قلقا فى بداية الطلب ، يكون اكثر وصولا وتمكنا فى انتهائه .

القصود(٣) : مرادهم من القصود صحة العزيمة على طلب حقيقة المقصود . وقصد هذه الطائفة غير منعقد فى الحركة والسكون ، لأن الحبيب وان يكن ساكنا فى المحبة فانه يكون قاصدا ، وهذا مخالف للمعتاد ، لأن قصد القاصدين اما أن يكون منه تاثير على ظاهرهم ، أو يكون منه دليل على باطنهم ، لان الأحبة يكونون قاصدين بغير علة طلبهم وحركاتهم ، وتكون كل صفاتهم قصد الحبيب .

الاصطناع(٤) : يريدون بهذه الكلمة ان يهذب الله تعالى العبد بفناء جميع الأنصبة عنه ، وزوال جميع الحظوظ ؛ ويبدل فيه اوصافه النفسانية حتى يفنى عن نفسه بزوال النعوت وتبديل الأوصاف . والمخصوصون بهذه الدرجة هم الأنبياء عليهم السلام دون الأولياء . وجماعة من المشايخ غيرهم يجيزون هذه الصفة على الأولياء أيضا .

---

(١) التخلى : هو الاعراض عن العوارض المشغلة ، بالظاهر والباطن ، وهو اختيار الخلوة ، وايثار العزلة ، وملازمة الوحدة . وقال بعضهم :

ان قلب الفتى ولو عاش دهرا
فى الهوى لا يكاد أن يتخلى

(اللمع ص ٤٤٠) .

(٢) الشرود : نفر الصفات من منازلات الحقائق وملاومة الحقوق (اللمع ص ٤٤٦) .

(٣) القصود : معناه : الارادات والنيات الصادقة المقرونة بالنهوض اليه (الى الحق) .

وقال ابن عطاء : من قصد فى قصوده غير الحق فقد عظمت استهانته بالحق . (اللمع ص ٤٤٧) .

(٤) الاصطناع : اختلفوا فيه ، فمنهم من يقولون انه مرتبة خص بها الأنبياء والصديقون ، وقال قوم : الاصطناع خص به موسى من جميع الأنبياء ، لقوله تعالى : « واصطنعتك لنفسى » ، وقال قوم : هو مرتبة الأنبياء دون غيرهم (اللمع ص ٤٤٧) .

الاصطفاء : الاصطفاء هو ان يفرغ الحق تعالى قلب العبد لمعرفته ، حتى تنشر معرفته صفاءها فيه . وجميع المؤمنين الخاص منهم والعام سيان فى هذه الدرجة : من عاص ، ومطيع ، وولى ، ونبى « لقوله تعالى : ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات(١) » .

الاصطلام : الاصطلام هو غلبات الحق التى تجعل كلية العبد مقهورة لها بامتحان اللطف فى نفى ارادته . وقلب ممتحن وقلب مصطلم كلاهما بمعنى واحد ، الا ان الاصطلام أخص وارق من الامتحان فى جريان عبارات أهل هذه الطريقة .

الرين(٢) : الرين حجاب على القلب لا يكون كشفه الا بالايمان . وهو حجاب الكفر والضلالة « لقوله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(٣) » .

وقالت طائفة ان الرين هو ما لا يمكن زواله بأى صفة ، لأن قلب الكافر لا يتقبل الاسلام ، ومن يسلمون منهم كانوا مؤمنين فى علم الله عز وجل .

الغين(٤) : الغين حجاب على القلب يرتفع بالاستغفار ، وهو على نوعين : واحد خفيف ، وواحد غليظ . والغليظ هو ما يكون لأهل الغفلة والكبائر ، والخفيف يكون لكل الخلق من نبى وولى ، « لقوله عليه السلام : انه ليغان على قلبى وانى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة(٥) » ، فيلزم للغين الغليظ : التوبة بشروطها ، وللخفيف : الرجوع الصادق الى الحق .

---

(١) سورة « فاطر » آية ٣٢ .

(٢) « الرين » : عرفه السراج بأنه الصدا الذى يقع على القلوب . وقال البعض ان حجب القلوب على أربعة أوجه : اشدها الختم ، والطبع ، وذلك لقلوب الكفار ، والرين لقلوب المنافقين ، والصدا لقلوب المؤمنين . (اللمع ص ٤٥١) .

(٣) سورة « المطففين » آية ١٤ .

(٤) « الغين » : ذكر السراج انهم اكثروا فى وصف الغين ، وقالوا ان الغين الذى كان يعارض قلب النبى وكان يتوب منه مثله مثل المرآة اذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوئها ثم تعود الى حالة ضوئها . وقال قوم : هذا محال لأن قلب النبى صلى الله عليه وسلم لا يلحقه قهر من الخلق لأنه مخصوص بالرؤية . وليس لأحد ان يحكم على قلب النبى بوصف أو نعت أو يشبهه بشى . (اللمع ص ٤٥١) .

(٥) مكرر .

التوبة : هى الرجوع عن المعصية الى الطاعة ، وعن النفس الى الحق . فهم يتوبون عن الجرم ، وجرم العباد مخالفة الأمر ، وجرم الأحبة مخالفة الارادة ، وجرم العباد : المعصية ، وجرم الأحبة : رؤية وجودهم . ويقال لمن يرجع عن الخطأ الى الصواب : تائب ، ولمن يرجع عن الصواب الى الصواب : آيب . وقد ذكرت هذا كله فى باب التوبة ، والله أعلم .

التلبيس(١) : يسمون اظهار الشىء للخلق على خلاف حقيقته تلبيسا ، « لقوله تعالى : وللبسنا عليهم ما يلبسون(٢) » . وهذه الصفة محالة لغير الحق ، لأنه يظهر الكافر بالنعمة مؤمنا ، والمؤمن بالنعمة كافرا ، الى وقت اظهار حكمه فى كل شخص . وحين يخفى واحد من هذه الطائفة خصاله المحمودة بصفاته المذمومة يقولون انه يلبس . ولا تستعمل هذه العبارة الا لهذه المعانى ، ولا يسمون النفاق والرياء تلبيسا ، وان يكن فى الأصل تلبيسا ، لأن التلبيس لا يستعمل الا فى اقامة الحد ، والله أعلم .

الشرب(٣) : هذه الطائفة يسمون حلاوة الطاعة ولذة الكرامة وراحة الأنس شربا . ولا يستطيع أحد ابدا عمل عمل بلا شرب ، وكما أن شرب الجسد من الماء ، فشرب القلب من الراحات ، وحلاوة الطاعة . وكان شيخى رضى الله عنه يقول : يجب ان يكون المريد والعارف غريبين عن شرب الارادة والمعرفة . ويقول قائل : يجب أن يكون للمريد شرب من عمله ، حتى يؤدى حق الطلب فى الارادة ، ولا يلزم أن يكون للعارف شرب ، حتى لا يأنس بغير الحق الى الشرب والراحات التى ترجع الى النفس .

الذوق : الذوق مثل الشرب ، ولكن الشرب لا يستعمل الا فى الراحات ، والذوق يحسن للمشقة والراحات ، كأن يقول قائل : ذقت الخلاف ، وذقت البلاء ، وذقت الراحة ، فكل هذا يصح .

---

(١) التلبيس : تحلى الشىء بنعت ضده . (اللمع ص ٤٤٩) .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٩ .
(٣) الشرب : تلقى الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك ، فشبه ذلك بالشرب لتهنيه وتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده . (اللمع ص ٤٤٩) .

ويقال ايضا للشراب : شربت بكأس الوصل ، وبكأس الود ، وامثال هذا كثير ، « قوله تعالى : كلوا واشربوا هنيئــــا(١) » . وحين ذكر الذوق قال : « ذق انك انت العزيز الكريم(٢) » . وفى موضع آخر قال : « ذوقوا مس ســـقر(٣) » .

هذه هى احكام حدود الفاظهم المتداولة التى ذكرتها ، واذا اثبتها كلها يطول الكتاب ، والله اعلم بالصواب .

---

(١) سورة « المرسلات » آية ٤٣ .
(٢) سورة « الدخان » آية ٤٩ .
(٣) سورة « القمر » آية ٤٨ .

كشف الحاجب الحادى عشر
فى الســـــــــماع
وبيــــــان أنــــواعــه

اعلم ، اسعدك الله ، ان اسباب حصول العلم الحواس الخمس ، الاول : السمع ، والثانى : البصر ، والثالث : الذوق ، والرابع : الشم ، والخامس: اللمس . وقد خلق الله تعالى هذه الابواب الخمسة للقلب ، وربط كل جنس من العلم بواحد منها ، مثل العلم بالأصوات والأخبار للسمع ، والعـــلم بالألوان والأجنـــاس للبصر ، والعـــلم بالحـــلو والمر للـــذوق ، والعـــلم بالنتن والرائحة للشم ، والعلم بالخشونة واللين للمس ، وجعل اربعـــا من هذه الحواس الخمس فى محل خاص ، واشاع واحدا فى جميع الاعضاء ، فصير الأذن محل السمع ، والعين محل البصر ، والحلق محل الذوق ، والأنف محل الشم ، واعطى اللمس المجال فى جميع الجسد ، لانه لا يرى غير العين ، ولا يسمع غير الأذن ، ولا يشم غير الأنف ، ولا يتذوق غير الحلق ، اما الجسد فيعرف الناعم من الخشن ، والحار من البارد بلمس الأعضاء ، ويجوز من وجه المجاز أن تشيع كل من هذه فى كل الأعضـــاء مثل اللمس ، ولا يجوز عند المعتزلة أن يكون لكل واحد غير محل مخصوص. وقولهم هذا باطل بالنسبة لحاسة اللمس فليس لها محل مخصوص ، وحين يجوز لواحد هذه الصفة فان هذا يجوز ايضا للآخر . والمراد هنا ليس هذا ، ولكنى لم أر مندوحة من ذكر هذا القدر لتحقيق بيان المعنى .

السماع من الظواهر التى تلفت النظر فى التصوف . وقد دخل السماع التصوف فى وقت مبكر ، وكثرت فيه أقوال شيوخ الصوفية واباحوه ، وعده بعضهم سمة من سمات الصوفى ، فقد سئل ابو الحسن النورى عن الصوفى فقال : « من سمع السماع ، وآثر الأسباب » . ويقول الجنيد البغدادى : « تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن : عند السماع ، فانهم لا يسمعون الا عن حق ، ولا يقولون الا عن وجد ، وعند اكل الطعام ، فانهم لا ياكلون الا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ، فانهم لا يذكرون الا صفات الأولياء » . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٤٤ ــ ٦٤٥) .

ولفظ السماع عرف فى صدر الاسلام ، وكان يقصد به سماع القرآن وأغانى الحجيج والزهديات التى ينشدها الزهاد فى الحث على نبذ الدنيا والتشويق الى الجنة ، غير أن هذا المفهوم لم يلبث أن تطور عند الصوفية بحيث اصبح يعنى الغناء والموسيقى والرقص . =

فهن هذه الحواس الأربع التى مر ذكرها — بدون خامستها وهى السمع — واحدة ترى ، وواحدة تشم ، وواحدة تذوق ، وواحدة تلمس . ويجوز أن تكون رؤية هذا العالم البديع ، وشم الأشياء الطيبة ، وذوق النعم الحلوة ، ولمس الأشياء الناعمة دليلا للعقل الى المعرفة ، وتهديه الى ربه ، لأنه يعرف أن العالم محدث ومحل للتغيير ، وما لا يخلو من الحادث يكون محدثا وله خالق ليس من جنسه ، لأنه مكون وخالقه مكون ، وهو مجسم وخالقه مجسم وهو محدث وخالقه قديم ، وهو متناه وخالقه غير متناه وقادر فى كل الأشياء وعلى جميع الأشياء ، وعالم بجميع المعلومات ، وتصرفه فى الملك جائز ، وهو يقدر على ما يريد من ارسال الرسل بالبراهين الصادقة ، ولكن هذا كله غير واجيب عليه حتى لا يصير وجوب المعرفة بالسمع علما له.

وموجب الشرع والدين هو السمع ، ولهذا يفضل اهل السنة السمع على البصر فى دار التكليف . واذا قال مخطىء ان السمع محل الخبر ، والبصر موضع النظر ، ورؤية الله جل جلاله افضل من سماع كلامه ، فيجب أن يكون البصر افضل من السمع ، نقول : اننا بالسمع نعلم أن الرؤية سوف تكون فى الجنة ، لأنه فى جواز الرؤية بالعقل لا يكون الحجاب أولى من الكشف ، وبالخبر علمنا ان الله يجعل المؤمنين مكاشفين ، ويرفع الحجاب عن اسرارهم حتى يروا الله عز وجل ، فصار السمع افضل من البصر .

وجميع احكام الشريعة ايضا مبنية على السمع ، لأنه لو لم يكن السمع لكان اثباتها وثبوتها محالا . والأنبياء أيضا الذين جاءوا ، صلوات الله عليهم ، تحدثوا أولا حتى آمن من سمعوهم ، ثم اظهروا المعجزة ، وفى رؤية المعجزة تأكيد لما كان بالسمع . وبهذه الدلائل يكون كل من ينكر السماع قد انكر كل الشريعة ، واخفى حكمها على نفسه .

= ومن المرجح أن سماع الصوفية كان تطورا طبيعيا لحلقات الذكر ، فقد كان الصوفية يهتمون بالذكر ويحثون المريدين على الانشغال به فى أوقات فراغهم ، والمداومة عليه فى خلواتهم ؛ ثم تطور هذا اللون من الذكر الفردى الى لون جماعى ، فكانوا يعقدون حلقات الذكر ويرددون خلالها بعض الألفاظ والعبارات الدينية ترديدا موزونا ، ثم لم تلبث هذه العبارات ان تطورت الى نوع من الأناشيد والاغانى الدينية ، وبمرور الوقت استبدلت هذه الأناشية بالأشعار الغزلية التى ينشدها القوالون فى حلقات السماع على مسمع من الصوفية فيفسرها هؤلاء تفسيرا يتلاءم مع مقاصدهم ، وقد يصحب ذلك العزف على بعض الآلات ، مما يثير الطرب والنشوة فى المستمعين فتتملكهم حال من الوجد ، ويفتقدون السيطرة على أجسامهم فتهتز فى حركات تشبه الرقص . وكثيرا ما كانت مجالس السماع تنتهى بالصراخ وتمزيق الخرق (انظر « اسرار التوحيد » الترجمة ص ١٤٣) .

والآن : ابين احكام ذلك مستوفاة « ان شاء الله وحده ، وصدق الله وعده » .

باب سماع القرآن وما يتعلق به :

اولى المسموعات للقلب بالفوائد ، وللسر بالزوائد ، وللأذن باللذات : كلام الله عز اسمه . وكل المؤمنين مأمورون ، وكل الكفار مكلفون ، من انس وجن ، بسماع كلام البارى تعالى .

ومن معجزات القرآن ان الطبع لا ينفر من سماعه وقراءته ، لأن فيه رقة عظيمة ، الى حد أن كفار قريش كانوا يجيئون ليلا فى الخفاء ، عندما يكون النبى عليه السلام فىالصلاة ، ويستمعون الى ماكان يقرأ ، ويتعجبون ، مثل النضر بن الحارث الذى كان افصحهم ، وعتبة بن ربيعة الذى كان يجىء بالسحر فى البلاغة ، وابى جهل بن هشام(١) الذى نظم الخطب والبراهين وامثالهم ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سورة ذات ليلة ففقد عتبة الوعى ، وقال ابو جهل : لقد علمت أن هذا ليس من كلام المخلوقات .

وقد ارسل الله تعالى الجن فجاءوا فوجا فوجا وكانوا يسمعون كلام الله تعالى من النبى عليه السلام ، « لقوله تعالى : فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا(٢) » ، ثم اخبرنا عن قول الجن من أن هذا القرآن يهدى القلب المريض الى طريق الصواب ، (فقال) « عز من قائل : يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا(٣) » ، فعظات القرآن اطيب العظات ، ولفظه اوجز من كل الالفاظ ، وامره الطف من جميع الأوامر ، ونهيه اشد زجرا من جميع النواهى ، ووعده اكثر اجتذابا للقلب من كل الوعود ، ووعيده اشد

---

(١) النضر بن الحارث وعتبة بن ربيعة وابو جهل بن هشام : من سادة قريش ، كانوا من المطعمين يوم غزوة بدر ، وبعد انتصار المسلمين امر رسول الله برجلين من الاسرى فضربت أعناقهم ، وكان النضر بن الحارث احدهما (انظر : المعارف ص ٦٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤) .
(٢) سورة « الجن » آية ١ .
(٣) سورة « الجن » آية ٢ .

صهرا للروح من كل وعيد ، وقصصه اكثر اشباعا من كل القصص ، وأمثاله افصح من جميع الأمثال ، وقد صاد سماعه آلاف القلوب ، واغارت لطائفه على آلاف الأرواح ، يذل اعزة الدنيا ويعز اذلتها . وعندما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اخته وصهره أسلما ، قصدهما سالا سيفه ، وتهيأ لقتلهما ، واخلى قلبه من حبهما ، حتى أكمن الحق تعالى عسكرا من لطفه فى زوايا سورة طه ، والى ان جاء الى باب الدار كانت أخته تقرا : « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى(١) » ، فصارت روحه صيد دقائقها ، وقلبه رهين لطفها ، فسلك طريق الصلح ، وخلع رداء الحرب ، وترك المخالفة الى الموافقة .

والمعروف انه حين قرأوا أمام النبى عليه السلام : « ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما(٢) » وقع مغشيا عليه .

ويقال ان رجلا قرا امام عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ان عذاب ربك لواقع(٣) » فصرخ ، ووقع مغشيا عليه ، فرفعوه وحملوه الى منزله ، وبقى شهرا بأكمله مريضا من وجل وخشية الله عز وجل .

ويقال ان رجلا قرأ أمام عبد الله بن حنظلة : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش(٤) » فغلبه البكاء حتى أن الحاكى ليقول : « ظننت أن الروح فارقته ، ثم نهض واقفا ، فقيل له : اجلس يا استاذ ، قال : ان هيبة هذه الآية تمنعنى .

ويقال انه قرىء أمام الجنيد رضى الله عنه : « لم تقولون مالا تفعلون(٥) » فقال : يا الهى ! ان قلنا قلنا بك ، وان فعلنا فعلنا بتوفيقك ، فأين القول والفعل » .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه انه قرىء أمامه : « واذكر ربك اذا نسيت(٦) » ، فقال : شرط الذكر النسيان ، وقد عجز كل أهل العالم فى الذكر ! وصرخ ، وفارقه وعيه ، فلما عاد الى وعيه قال : عجبا للقلب الذى يسمع كلامه ويظل فى مكانه ، وعجبا للروح التى تسمع كلامه ولا تصعد .

---

(١) سورة « طه » آية ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) سورة « المزمل » آية ١٢ ، ١٣ .
(٣) سورة « الطور » آية ٧ .
(٤) سورة « الاعراف » آية ٤١ .
(٥) سورة « الصف » آية ٢ .
(٦) سورة « الكهف » آية ٢٤ .

ويقول واحد من المشايخ : ذات مرة كنت اقرأ قول الله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله(١) » فهتف (بى) هاتف أن اقرأ بصوت منخفض لان اربعة من الجن ماتوا من هيبة هذه الآية .

وقال واحد من الدراويش : منذ عشر سنوات لم اقرأ من القرآن الا القدر الذى تجوز به الصلاة ، ولم أسمعه . فسألوه : لم ؟ قال : خوفا من أن يكون حجة علي .

وذهبت يوما عند الشيخ أبى العباسى الشقانى رضى الله عنه ، وكان يقرأ : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء(٢) » ، وكان يبكى ويصرخ حتى ظننت انه فارق الدنيا ، فقلت : أيها الشيخ ! ما هذه الحال ؟ قال : منذ أحد عشر عاما وقد وصل وردى الى هنا ، ولا استطيع ان اتخطى هذا الموضع .

وسئل ابو العباس بن عطاء رضى الله عنه : كم يقرأ الشيخ من القرآن كل يوم ؟ قال : قبل هذا كنت أختم القرآن مرتين كل يوم وليلة ، اما الآن فمنذ اربعة اعوام وصلت اليوم فقط الى سورة الأنفال .

ويقال ان ابا العباس القصاب قال لقارىء : اقرأ : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين(٣) » ، ثم قال : اقرأ « يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة(٤) » ، ثم قال : اقرأ : « قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل(٥) » ثم قال : يا الهى ! اننى فى الجفاء أكثر من اخوة يوسف ، وانت تفعل معى بكرمك أكثر مما فعله يوسف مع اخوته الجفاة .

ومع كل هذا فان جميع أهل الاسلام من مطيع وعاص مأمورون بالاستماع الى القرآن ، «لقوله تعالى : واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا(٦)» . وقال أيضا : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه(٧) »

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٨١ .
(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .
(٣) سورة « يوسف » آية ٩٢ .
(٤) سورة « يوسف » آية ٨٨ .
(٥) سورة « يوسف » آية ٧٧ .
(٦) سورة « الأعراف » آية ٢٠٤ .
(٧) سورة « الزمر » آية ١٦ ، ١٧ .

أى : يقومون بأوامره ويسمعونه بالتعظيم . وقال أيضا : « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم(١) » . « وقوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب(٢)) » ، وأمثال هذا كثير من الآيات التى تؤكد حكم هذا . وعلى عكس هـذا أيضا ذم الطـائفة الذين لم يسمعوا كلام الحـق ، ولم يجعلوا له سـبيلا من السمع الى القلب : « قـوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة(٣) » ، « وقوله تعالى : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير(٤) ، «وقوله تعالى ومنهم من يسـتمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنـة أن يفقهوه »(٥) « وقوله تعالى : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون(٦) » . ومثل هذه الآيات كثير فى كتاب الله تعالى .

« وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لابن مسعود : اقرأ ، فقال : انا اقرأ وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا أحب أن أسمع من غيرى(٧) » . وهذا دليل واضح على أن المستمع اكمل حالا من القارىء لان القارىء اما ان ينطلق عن حال او عن غير حال ، والمستمع لا يسمع الا بحال ، لأن فى النطق نوع من التكبر ، وفى الاستماع نوع من التواضع .

وقال النبى عليه السلام أيضا : « شيبتنى سورة هود(٨) » ، ويقال ان سبب ذلك انه جاء فى تلك السورة هذه الآية : « فاستقم كما أمرت(٩) » ، والانسان عاجز عن الاستقامة فى أمور الحق ، لأن العبد لا يستطيع أن يفعل شيئا بغير توفيق الحق ، فلما قال : « فاستقم كما أمرت » تحير ، فقـال : كيف يكون هذا وأنا لا أستطيع القيام بحكم هذا الأمر ؟ وذهبت قوته من تألم

---

(١) سورة « الأنفال » آية ٢ .
(٢) سورة « الرعد » آية ٢٨ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٧ .
(٤) سورة « الملك » آية ١٠ .
(٥) سورة « الأنعام » آية ٢٥ .
(٦) سورة « الأنفال » آية ٢١ .
(٧) ورد فى اللمع (انظر ص ٣٥٢) .
(٨) ورد فى اللمع : « شيبتنى هود وأخواتها » (انظر ص ٣٥٢) .
(٩) سورة « هود » آية ١١٢ .

قلبه ، وازداد الما على الم ، حتى أنه ذات يوم نهض فى بيته وقد وضع يديه على الأرض وتقوى بهما ، فقال له ابو بكر رضى الله عنه : ما هذا يا رسول الله ، وأنت شاب وصحيح الجسد ؟ فقال : « شيبتنى سورة هود » .

« روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه (قال) : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستتر بعضا من العرى ، وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته — فقال — فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا ، فلما رآه القارىء سكت ، قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون ؟ قلنا يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته ، فقال النبى عليه السلام : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن اصبر نفسى معهم — قال — ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا — ثم قال بيده هكذا — فتحلق القوم ، فلم يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم (أحد)(١) ، قال : وكانوا ضعفاء المهاجرين . فقال النبى عليه السلام : ابشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام ، يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم كان مقداره خمسمائة عام(٢) » . وهذا الخبر يروى بعدة روايات مختلفة ، أما الاختلاف ففى العبارة ، والمعنى كله صحيح .

فصل : وكان زرارة بن اوفى من كبار الصحابة رضى الله عنهم ، وكان يؤم الناس فقرا آية وصرخ وأسلم الروح(٣) .

وكان ابو جهير من كبار التابعين ، فقرأ صالح المرى آية ، فخرجت منه شهقة وفارق الدنيا(٤) .

ويروى ابراهيم النخعى رحمه الله قائلا : كنت أسير فى قرية من قرى الكوفة ، فرأيت عجوزا واقفة فى الصلاة وآثار الخير ظاهرة عليها ، فلما انتهت من الصلاة تقدمت اليها بحكم التبرك وسلمت عليها ، فقالت لى : أتعرف القرآن قلت : نعم ، قالت : اقرأ آية ، فقرأت ، فصاحت صيحة وبعثت بروحها لاستقبال رؤية الحق .

---

(١) فى المتن : (أحدا) وفى الحاشية (أحد) ومعنى هذه العبارة فى الترجمة الفارسية لهذا الحديث : فلم يكن أحد بيننا يعرف النبى عليه السلام منهم .

(٢) ورد فى اللمع : رواه الترمذى والبزاز عن ابى سعيد (أنظر اللمع ص ٣٥٢) .

(٣ ، ٤) وردا فى اللمع (أنظر ص ٣٥٤) .

ويروى احمد بن ابى الحوارى قائلا : رأيت فى البادية شابا يرتدى مرقعة خشنة ، واقفا عند راس بئر ، فقال لى : يا احمد ! لقد جئت فى الوقت الذى يلزمنى فيه السماع ، فالى ان اسلم الروح اقرأ على آية . فأجرى الحق تعالى على لسانى الآية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا(١) » فقال: يا احمد ! ورب الكعبة ان هذا الذى قرأته هذه الساعة كان يقرؤه على ملك. واسلم الروح فى الحال .

واذا ذكرت جميع الحكايات التى تتصل بهذا الباب لعجزت عن المقصود .

باب سماع الشعر وما يتعلق به :

سماع الشعر فى الجملة مباح ، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه ، والصحابة رضوان الله عليهم قالوه وسمعوه . (وقد) « قال النبى عليه السلام : ان من الشعر لحكمة(٢) ، والحكمة ضالة المؤمن(٣) من حيث وجدها فهو احق بها » . « وقوله عليه السلام : أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد(٤) :

الا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل(٥)

« وروى عمر بن الشريد عن ابيه رحمهما الله « أنه قال : استنشدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تروى من شعر أمية بن ابى الصلت(٦) شيئا ؟ فأنشدته مائة قافية كلما مررت على بيت قال : هيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاد أن يسلم فى شعره » .

---

(١) سورة « الاحقاف » آية ١٣ .

(٢) رواه احمد وابو داود عن ابن عباس : « ان من البيان سحرا ، وان من الشعر حكما (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦٨) .

(٣) « الحكمة ضالة المؤمن » (ثعلبى : شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٢٣) .

(٤) لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب ، الشاعر : قدم فى وفد بنى كلاب على النبى صلى الله عليه وسلم واسلموا ورجعوا الى بلادهم ، ولم يقل بعد الاسلام شعرا . ثم قدم الكوفة وبنوه ، ورجع بنوه وأقام لبيد الى أن مات بها فدفن فى صحراء بنى جعفر بن كلاب وكانت وفاته ليلة نزل معاوية النخيلة (المعارف ص ١٤٤) .

(٥) رواه البيهقى وابن ماجه عن ابى هريرة : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد . . الخ (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧٠) .

(٦) أمية بن ابى الصلت : كان أمية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبيا يبعث ، فلما سمع بخروج النبى صلى الله عليه وسلم كفر حسدا له . ولما انشد الرسول شعره قال عليه السلام : آمن لسانه وكفر قلبه (المعارف ص ٢٨) ، وللخطيب : « آمن شعر أمية ابن أبى الصلت وكفر قلبه (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٠) .

وقد وردت عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة روايات كثيرة مثل هذه . وقال عمر رضى الله عنه : لقد اخطأ الناس كثيرا فى هذا ، فقالت طائفة ان سماع الأشعار كلها حرام وهم يغتابون المسلمين ليل نهار . وطائفة اخرى أحلته كله ويستمعون الى الغزل ووصف الطرة والخال ليل نهار ، ويورد كل منهم على الآخر حججا وبراهين . وليس مرادى هو اثبات ذلك .

اما حجة مشايخ المتصوفة فى هذا الطريق فهى أن الرسول عليه السلام سئل عن الشعر فقال صلى الله عليه وسلم : « كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح » . يعنى أن كل ما يكون سماعه حراما مثل الغيبة والبهتان والفواحش وذم أحد وكلمة الكفر فهو حرام كله نظما ونثرا ؛ وكل ما يكون سماعه حلالا فى النثر ؛ مثل الحكمة والمواعظ والاستدلال فى آيات الله ، والنظر فى شواهد الحق يكون حلالا فى النظم ايضا .

وفى الجملة ، فكما أن النظر فى الجمال الذى يكون موضع الآفة ولمسه محظورا يكون حراما ، فان سماع وصفه يكون حراما على هذا الوجه . ومن يقل بان هذا حلال مطلق ، فيجب أن يحل أيضا النظر واللمس ، وعندئذ يكون ذلك زندقة . ومن يقل اننى اسمع الحق واطلبه فى العين والوجه والخد والطرة والخال ، فيجب عليه أن ينظر الى شىء آخر ويرى الخد والخال ويقول اننى ارى الحق واطلبه (فى ذلك) ، لأن العين والأذن محل العبرة ومنبع العلم ، فيجب أن يقول هذا أيضا بالنسبة لشىء آخر ، فيقول اننى المس ذلك الشخص الذى يجيز الآخر سماع صفته ، واطلب الحق فى ذلك ، فليست حاسة باولى من حاسة لادراك المعنى ، وعندئذ تبطل كل الشريعة ، ويرتفع حكم قوله عليه السلام : « العينان تزنيان(١) » ، وينقطع اللوم عن لمس غير المحارم ، وتسقط الحدود الشرعية ، وهذه ضلالة .

ولما رأى جهلة المتصوفة ، المستغرقين من المستمعين الذين كانوا يسمعون بالحال ، ظنوا انهم يسمعون بالنفس فقالوا : ان (السماع) حلال ، ولو لم يكن حلالا لما فعلوه ، واخذوا بتقليد الظاهر وتركوا الحقيقة ، فاهلكوا انفسهم واهلكوا قوما آخرين من الجهلة . وهذا من آفات الزمان ، وساشرحه فى مكانه بالتمام ان شاء الله عز وجل .

---

(١) رواه احمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود (الجامع الصغير جـ ٢ ص ١١٧) .

باب سماع الأصوات والألحان :

« قوله عليه السلام : زينوا أصواتكم بالقرآن » ، وفى رواية أخرى : « زينوا القرآن بالصوت الحسن(١) » و « قوله تعالى : يزيد فى الخلق ما يشاء (٢) » . وقال المفسرون انه الصوت الحسن .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يسمع صوت داود فليسمع صوت أبى موسى الأشعرى(٣) » .

ومشهور فى الأخبار أن لأهل الجنة سماعا فى الجنة ؛ وذلك بأن يصدر عن كل شجرة صوت ولحن مختلف ، وحين تتآلف تلك الأصوت يكون للطبائع فيها لذة عظيمة . وهذا النوع من السماع عام فى الخلق من الآدمى وغيره من الأحياء بحكم ان الروح لطيفة ، وفى الأصوات لطافة ؛ فحين تسمع يميل الجنس الى الجنس . وهذا الذى ذكرته قول طائفة .

وللأطباء ومن يدعون التحقيق من أهل الخبرة كلام كثير فى هذا ، وعملوا كتبا فى تأليف الألحان وعظموها ؛ وآثار صنعتهم اليوم ظاهرة فى المزامير التى أعدوها لقوة الهوى وطلب اللهو بحكم الشيطان ؛ الى حد أنه يقال ان اسحاق الموصلى كان يغنى فى بستان وكان بلبل يشدو ؛ فصمت من اللذة واخذ يستمع حتى سقط عن الشجرة ميتا . وقد سمعت حكايات من هذا النوع ولكن مرادى غير هذا . ويقال ان كل راحات الطبائع من تأليف وتركيب الأصوات والألحان .

---

(١) رواه أحمد وابو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن البراء ، وزاد عليه الحاكم : « فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٥) .

(٢) سورة « فاطر » آية ١ .

(٣) ابو موسى الاشعرى : هو عبد الله بن قيس ، من الاشعريين من اليمن وقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأشعريين فأسلموا ، وأول مشاهده خيبر . وكان حسن الصوت بالقرآن وتوفى سنة اثنتين وخمسين،ويقال اثنتين واربعين (المعارف ص ١١٥) وورد فى اللمع انه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد أعطى أبو موسى مزمارا من مزامير آل داود ، لما أعطى من حسن الصوت . (اللمع ص ٣٣٨) .

يقول ابراهيم الخواص رضى الله عنه : وصلت ذات مرة الى حى من احياء العرب ، ونزلت بدار ضيافة أمير من أمراء الحى : فرايت اسود مغلولا ، مطروحا على باب الخيمة فى الشمس ، فاشفقت عليه ، وعزمت على ان اشفع له لدى الأمير . فلما جىء بالطعام لاكرام الضيف ، جاء الأمير لياكل معى ، فلما قصد الطعام ابيت ــ وليس اشد على العرب من ان لا ياكل شخص طعامهم ــ فقال لى : ايها الشاب ! ما يمنعك عن طعامى ؟ قلت : املى فى كرمك . قال : كل املاكى لك ، فكل . قلت : لا حاجة لى بملكك ، ولكن هبنى هذا الغلام . قال : سل اولا عن جرمه ثم فك قيده ، فحكمك سار على كل شىء مادمت فى ضيافتنا . قلت : قل لى لأرى ما جرمه ؟ قال : اعلم ان هذا الغلام حاد وله صوت جميل ، وقد ارسلته مع عدد من الابل الى ضياعى ليحضر لنا غلة ، فذهب وحمل كل جمل حملين ، وكان يحدو فى الطريق والابل تسرع حتى وصلت الى هنا فى مدة قصيرة اقل مرتين مما امرت به ، وعندما انزلوا الأحمال عن الابل هلكت كلها فرادى ومثنى . قال ابراهيم : فتعجبت كثيرا وقلت : ايها الأمير، ان شرفك يجملك لا تقول غير الصدق ، ولكن يلزمنى البرهان على هذا القول . وبينما كنا فى هذا الكلام جىء بعدد من الابل الى حافة البئر لتستقى، وسأل الامير : كم يوما لم تشرب هذه الابل ؟ قالوا : ثلاثة ايام . فأمر الغلام ، فحدا ، فانشغلت الابل بصوته وسماعه ولم تمد الى الماء فاها ، حتى شردت فجأة واحدة واحدة وتفرقت فى البادية ؛ ففك الغلام ووهبه لى(١) .

ونحن نرى بعض هذا فى مشاهداتنا ، فحين يترنم الجمال والمكارى يظهر الطرب على الجمل والحمار . وفى خراسان والعراق عادة هى أن الصيادين يصطادون الغزلان ليلا ، فيدقون على الطشوت لتسمع أصواتها الغزلان وتقف فى مكانها فيمسكونها .

ومشهور فى الهند ان جماعة يخرجون الى الصحراء ويغنون وينشدون ، وحين تسمع الغزلان الغناء تقصدهم ، فيدورون حول الغزلان ويغنون حتى تغمض أعينها من اللذة وتنام فيمسكونها .

وهذا الحكم ظاهر أيضا فى الأطفال الصغار ، فعندما يبكون فى المهد ويغنى لهم احد يصمتون ويستمعون اليه ، ويقول الأطباء عن هذا الطفل ان حسه سليم ، وسيكون ذكيا فى الكبر . ومن ذلك ان واحدا من ملوك العجم حضرته

(١) اورد السراج هذه الحكاية وذكر انه سمعها من الدقى بدمشق ، حكاها له عن نفسه (انظر اللمع ص ٣٤٠ ــ ٣٤١) .

الوفاة ، وترك ولدا عمره سنتان ، وقال الوزراء : يجب اجلاسه على العرش ، وتدبروا الأمر مع « بزرجمهر(١) » فقال : هذا صواب ، ولكن يجب تجربته لنرى ما اذا كان حسه سليما ويمكن الرجاء فيه . فقالوا : وما التدبير ؟ فامر فاخذوا يغنون ، فطرب (الطفل) فى هذه الأثناء واخذ يضرب بيديه ورجليه ، فقال بزرجمهر : يرجى منه فى الملك(٢) .

وتاثير الأصوات لدى العقلاء اظهر من ان يحتاج اظهاره الى برهان . وكل من يقول : لا تطيب لى الألحان والأصوات والمزامير ؛ فاما انه يكذب، أو ينافق ، واما انه فاقد الحس وخارج عن كل الناس والدواب .

وامتناع طائفة عن السماع سببه أنهم يراعون أمر الله . والفقهاء متفقون على أن السماع مباح حين لا تكون هناك ادوات ملاه ، ولا يظهر منه فسق فى القلب . والآثار والأخبار فى هذا كثيرة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كانت عندى جارية تغنى ، فاستأذن عمر ، فلما سمعت حسه فرت ؛ فلما دخل عمر تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، قال : كانت عندنا جارية تغنى فلما سمعت حسك فرت ، فقال عمر : لا ابرح حتى أسمع ما كان سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارية فأخذت تغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع(٣) » .

---

(١) بزرجمهر : ذكر اسمه فى الشاهنامة (بوزرجمهر) وفى كليلة ودمنه (بزرجمهر بن البختكان) وهو مترجم كتاب كليلة ودمنه من الهندية الى البهلوية . كان بارعا فى تعبير الرؤيا ، وصار حكيم القصر فى عهد كسرى انوشيروان ومستشاره ووزيره . وهو الذى عرف سر لعبة الشطرنج التى وضعها الهنود ، وابتكر لعبة النرد فاعيا فهمها حكماء الهند . يعزى اليه كثير من الحكم والأقوال المأثورة . وقد غضب عليه كسرى فى أخريات أيامه وعذبه ثم عاد ورضى عنه فدخل على الملك مكفوف البصر ، فحزن كسرى على ما فرط منه فى حق حكيمة ووزيره (القصة فى الأدب الفارسى : الدكتور أمين عبد المجيد بدوى القاهرة ١٩٦٣ ص ٣١١) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة (أنظر جـ ٢ ص ٦٥٧) .

(٣) ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل بيت عائشة رضى الله عنها فوجد عندها جاريتين تغنيان وتضربان بالدف ، فلم ينههما عن ذلك ، وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حين غضب وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : دعهما يا عمر فان لكل قوم عيدا (اللمع ص ٣٤٥) .

وقد روى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا . وقد جمع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ذلك كله فى كتاب السماع وقطع اباحته . وليس مراد مشايخ المتصوفة من السماع غير هذا ، لأنه يجب أن تكون فى الأعمال فوائد لأن طلب الاباحة شأن العوام والدواب ، ويلزم للعباد المكلفين ان يطلبوا الفائدة من العمل .

حين كنت بمرو قال لى احد ائمة الحديث ، وكان من أشهرهم ، لقد الفت كتابا فى اباحة السماع . فقلت : انها لأكبر مصيبة ظهرت فى الدين ان احل السيد الامام لهوا هو أصل كل أنواع الفسق . فقال لى : اذا كنت لا تراه حلالا فلماذا تفعله ؟ قلت : ان حكمه على وجوه ، ولا يمكن القطع بواحد منها ، فاذا كان تأثيره فى القلب حلالا فان سماعه حلال ، واذا كان حراما فهو حرام ، واذا كان مباحا فهو مباح . والشيء الذى يكون حكم ظاهره فسقا وباطن حاله على وجوه ، اطلاقه بشيء واحد محال . والله اعلم بالصواب .

باب أحكام السماع :

اعلم ان للسماع فى الطباع احكاما مختلفة ، كما أن الرغبات فى القلوب مختلفة . ومن الظلم أن يقطع فيه احد بناء على حكم واحد . وجملة المستمعين فريقان : أحدهما يسمع المعنى ، والآخر يسمع الصوت ، وفى كلا هذين الأصلين فوائد وآفات كثيرة ، لأن سماع الأصوات الحلوة تهييج للمعانى المركبة فى الناس ، فان تكن حقا فحق ، أو باطلا فباطل ، فالشخص الذى يكون طبعه الفساد يكون كل ما يسمعه فسادا .

ويرد هذا كله فى حكايات داود عليه السلام ، اذ انه عندما استخلفه الله وهبه صوتا حسنا ، وصير حلقه مزامير ، وجعل الجبال رسائله ، الى حد ان الوحوش والطيور كانت تجيء من الجبال والصحارى لسماعه ، ويتوقف الماء ، ويسقط الطير من الهواء . وورد فى الآثار ان الخلق فى تلك الصحراء لم يأكلوا شيئا لمدة شهر ، وكف الأطفال عن البكاء ولم يرضعوا . وحينما رجع الخلق من هنالك كان كثير من الناس قد ماتوا من لذة كلامه ولحنه ، الى حد انه يقال ان سبعمائة جارية عذراء متن دفعة واحدة(١) .

---

(١) ورد فى اللمع قول السراج : ان داود عليه السلام قد اعطى من حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته اذا قرأ الزبور ، الجن والانس والوحش والطير . وكان بنو اسرائيل يجتمعون فيستمعون ، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات (اللمع ص ٣٣٨) .

وعندما أراد الحق تعالى ان يفصل بين من يستمع الى الصوت ويتابع الطبع وبين أهل الحق مستمعى الحقيقة ، ترك ابليس لهواه وحيلته ومكره حتى صنع الناى والطنبور ، وعقد مجلسه فى مقابل مجلس داود عليه السلام حتى أن من كانوا يستمعون الى صوت داود انقسموا الى طائفتين : احداهما من كانوا اهل الشقاوة ، والثانية من كانوا أهل السعادة ، وانشغلت الطائفة الأولى بمزامير ابليس ، وبقيت الطائفة الثانية تستمع الى صوت داود . ثم ان من كانوا من أهل المعنى لم يكن أمام قلوبهم صوت داود او غير داود، لأنهم كانوا يرون الكل الحق ، فاذا سمعوا مزامير الشيطان كانوا يرون الحق فى تلك الفتنة ، واذا سمعوا صوت داود رأوا الحق فى تلك الهداية ، فتركوا الكل ، وأعرضوا عن متعلقات الدنيا ، ورأوا الكل على ما هو عليه : الصواب بالصواب ، والخطأ بالخطأ . ومن يكن سماعه من هذا النوع يكن كل ما يسمعه حلالا له .

وقالت طائفة من المدعين ان السماع يقع لنا على غير ما هو ، وهذا محال لأن كمال الولاية هو أن ترى الشىء كما هو حتى تكون الرؤية صحيحة . واذا رأيته على خلاف ذلك ، لا تكون الرؤية صحيحة : الم تر ان النبى عليه السلام قال : « اللهم أرنا الأشياء كما هى » ، واذا صحت الرؤية ، فان الأشياء التى تراها تكون على الصفة التى لها ، فالسماع الصحيح ايضا ان تسمع كل شىء كما هو فى نعته .

وحكم من يفتنون فى المزامير ويقارنون الهوى واللهو سببه أنهم يسمعون ما يسمعون على خلاف ما هو ، فلو انهم كانوا يسمعون وفقا لأحكام السماع لتخلصوا من كل الافات : الم تر ان اهل الضلالة سمعوا كلام الله تعالى فازدادوا ضلالة على ضلالتهم ، كما قال النضر بن الحارث : « هذا اساطير الأولين » . وقال عبد الله بن سعد بن ابى السرح(١) الذى كان كاتب الوحى : « فتبارك الله احسن الخالقين(٢) » ، وجعل فريق قوله (تعالى) :

---

(١) عبد الله بن سعد بن ابى السرح : كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيملى عليه النبى صلى الله عليه وسلم : « عزيز حكيم » ، فيكتب : « غفور رحيم » ، وفيه نزلت (ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله) فنذر النبى دمه يوم فتح مكة ، وكان أخا عثمان من الرضاعة فجاء به عثمان الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يزل به حتى أمنه واستعمله عثمان على مصر ، وهو الذى فتح افريقية ، وأبوه سعد من المنافقين (المعارف ص ١٣١) .

(٢) سورة « المؤمنون » آية ١٤ .

« لا تدركه الأبصار(١) » دليلا لنفى الرؤية ، وجعل فريق آخر قوله (تعالى) : « ثم استوى على العرش(٢) » اثباتا للمكان والجهة ، وجعل فريق قوله (تعالى) : « وجاء ربك والملك صفا (٣) » دليلا على المجىء ، فلما كانت قلوبهم محلا للضلالة ، لم يفدهم سماع كلام رب العزة شيئا . وايضا نظر الموحدون فى شعر الشاعر فرأوا خالق طبعه وصاقل خاطره واعتبروا الفعل دليلا على الفاعل ، حتى ظل الفريق الأول فى الحق ، واهتدى الفريق الثانى فى الباطل . وانكار هذه المعانى مكابرة فى العيان .

فصل : وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى كلمات لطيفة اكثر من ان يحتملها هذا الكتاب ، ولكنى اثبت ما يمكن اثباته فى هذا الفصل لتكون الفائدة اتم ، والله أعلم .

يقول ذو النون رحمه الله : « السماع : وارد حق يزعج القلوب الى الله، فمن اصغى اليه بحق تحقق ، ومن اصغى اليه بنفس تزندق(٤) » . وليس المراد من هذا انه يجب أن يكون السماع علة لوصل الحق ، انما المراد ان المستمع بحق يسمع المعنى لا الصوت ، ويكون قلبه محل وارد الحق ، فعندما يصل هذا المعنى الى القلب فانه يزعج القلب ، فمن يكن فيه متابعا للحق يصر محققا ، ومن يكن فيه متابعا للنفس يكن محجوبا ويتعلق بالتأويل، وعندئذ تكون ثمرة ذلك السماع : الكشف ، وثمرة هذا السماع : الستر .

واما كلمة الزندقة فهى فارسية معربة وتؤول بلغة العجم بـ « زند » ، ولهذا السبب فانهم يسمون كتابهم الـ « زند » والـ « بازند »(٥) ، ولما

---

(١) سورة « الأنعام » آية ١٠٣.

(٢) سورة « الأعراف » آية ٥٤ .

(٣) سورة « الفجر » آية ٢٢ .

(٤) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٣٤٢) .

(٥) الكتاب المقدس للزرادشتيين اسمه : « أوستا » أو الابستاق ، ولهذا الكتاب تفسير يسمى « زند » ، ولهذا التفسير تفسير آخر يسمى « بازند » ، وللبازند شرح يسمى « اياردة » (أنظر : القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٩ ، ٣٦ — ٣٨) .

اراد اهل اللغة ان يسموا ابناء المجوس الذين مع « بابك » و « افشين » سموهم الزنادقة ، لانهم كانوا يقولون ان لكل شيء يقوله المسلمون تأويلا يناقض ظاهر حكمه . والتنزيل هو الدخول فى الديانة ، والتأويل هو الانسلاخ عنهـا . والان يقول بقيتهم — وهم شيعة مصر — عين هذا ، فكان مراد ذى النون رضى الله عنه من هذا أن اهل التحقيق يصيرون محققين فى السماع ، وأهل الهوى يكونون مؤولين لأنهم يؤولونه تأويلا بعيدا ، ويقعون بذلك فى الفسـق .

ويقول الشبلى رضى الله عنه : « السماع ظاهره فتنه ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة ، والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية(١) » : اى أن كل من لا يكون قلبه مستغرقا بكليته فى حديث الحق يكون السماع بلاء له ومحل آفتـه .

ويقول ابو على الرود بارى رحمه الله فى جوابه على سؤال رجل سأله عن السماع : « ليتنا تخلصنا منه راسا براس » . لان الآدمى عاجز فى قضاء حق جميع الأشياء ، واذا ترك العبد حق شيء ، راى تقصيره ، واذا راى تقصيره تمنى أن ينجو .

ويقول واحد من المشايخ رحمه الله : « السماع تنبيه الأسرار لما فيهـا من المغيبات » ، لتكون بذلك حاضرة دائما بالحق ، اذ أن غيبة الأسرار اذم أوصاف الأدعياء ، لأن الحبيب وان يكن غائبا عن الحبيب فهو حاضر معه بقلبه ، فاذا جاءت غيبة القلب ارتفعت المحبة .

ويقول شيخى رضى الله عنه : « السماع زاد المضطرين ، فمن وصل استغنى عن السماع » . لان حكم السمع يكون معزولا فى محل الوصل ،اذ يلزم السمع للخبر ، والخبر يكون عن الغائب ، فاذا صارت المعاينة تلاشى السـماع .

ويقول الحصرى رحمه الله : « ايش اعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ؟ ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع(٢) » . وقد عبر بهذا عن اجتماع الهمة فى روضة المحبة ، لأن العبد حين يصل الى تلك الدرجة يصير العالم كله سماعا له من حجر ومدر . وهذه درجة كبرى « والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب » .

---

(١) ورد بنصه فى اللمع (انظر ص ٣٤٢) .
(٢) ورد بنصه فى اللمع (انظر ص ٣٤٣) .

باب اختلافهم فى السماع :

اختلف المشايخ والمحققون فى السماع ، فقالت طائفة انه آلة الغيبة واستدلوا بأن السماع يكون محالا فى المشاهدة ؟ اذ ان الحبيب فى محل وصل الحبيب يكون مستغنيا عن السماع فى حال النظر اليه ، لأن السماع خبر ، والخبر فى محل العيان بعد وحجاب وشغل ، (وعلى هذا) فهو آلة المبتدئين ليجتمعوا به من تشتت الغفلة ، فالمجتمع به يتفرق لا محالة.

وقالت جماعة اخرى ان السماع آلة الحضور ، لأن المحبة تقتضى الكيلة ، وما لم يكن كل المحب مستغرقا فى المحبوب يكون ناقصا فى المحبه ، فكما أن المحبة نصيب القلب فى حال الوصل ، والمشاهدة نصيب السر ، والوصل نصيب الروح ، والخدمة نصيب الجسد فيجب ان يكون للأذن نصيب ايضا كما ان للعين نصيب من الرؤية . وما أحسن ما قال الشاعر فى محل الهزل :

(شعر عربى)

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولاتسقنى سرا اذا أمكن الجهر

ويقولون ان السماع آلة الحضور لأن الغائب نفسه غائب ، والغائب يكون منكرا ، والمنكر لا يكون أهلا لذلك . والسماع على نوعين : الأول بواسطة ، والثانى بلا واسطة ، فما يسمعه من القارىء فهو آلة الغيبة ، وما يسمعه من البارىء فهو آلة الحضور . ومن ذلك قال واحد من الشيوخ : أنا لا أجعل المخلوقات فى المحل الذى اسمع فيه كلامهم أو أروى حديثهم . والله أعلم .

باب مراتبهم فى حقيقة السماع :

اعلم ان لكل منهم فى السماع مرتبة ، وتكون اذواقهم على قدر مراتبهم ، فكل ما يسمعه التائب مثلا يصير له مددا للحسرة والندم ، وللمشتاق مادة للشوق والرؤية ، وللمؤمن تأكيدا لليقين ، وللمريد تحقيقا للبيان ، وللمحب باعث انقطاع العلائق ، وللفقير اساسا لليأس من الكل .

ومثال اصل السماع كالشمس التى تسقط على كل الأشياء ، ويكون لكل شىء ذوق ومشرب منها على قدر مرتبته ، فتحرق واحدا ، وتضىء واحدا وتدلل واحدا ، وتصهر واحدا . وكل هذه الطوائف التى ذكرتها على ثلاث مراتب فى التحقيق ، اولها : المبتدئون ، وثانيها : المتوسطون ، وثالثها :

الكاملون . وسأجيء بفصل فى شرح ال كل منهم فى السماع ليكون أقرب الى فهمك .

فصل : اعلم ان السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجسد من الهزل واللهو . ولا يكون طبع المبتدىء قابلا لحديث الحق بأى حال . وبورود ذلك المعنى الربانى يكون للطبع انقلاب وحرقة وقهر ، فجماعة تفقد الوعى فى السماع ، وجماعة تهلك ، ولا يوجد احد الا ويخرج طبعه عن حد الاعتدال (فى السماع) .

ولهذا برهان ظاهر ومعروف ، اذ انهم فى بلاد الروم صنعوا شيئا عجيبا جدا فى أحدى المستشفيات ، يسمونه : « أنجليون(١) » — وكل شيء تكون فيه عجائب كثيرة يسميه اليونانيون بهذا الاسم ، فيسمون الصحف مثلا : انجليون ، وكتاب مانى(٢) أيضا ، وما شابه ذلك . وليس المراد من هذا اظهار حكم ذلك — وذلك الشيء في شكل عود من الاعواد ، ويحملون المرضى الى هنالك يومين فى كل اسبوع ، ويامرون بالعزف عليه ، ويسمعون المريض صوته على قدر علته ، ثم يخرجونه من هنالك . وحين يريدون اهلاك شخص يحتفظون به هنالك وقتا أطول حتى يهلك . والآجال فى الحقيقة مكتوبة ، ولكن للموت أسبابا ، والأطباء يسمعونه دائما ولا يؤثر فيهم قط لأنه موافق لطباعهم ومخالف لطبع المبتدئين .

ورايت فى الهند ان دودة كانت قد ظهرت ى السم القاتل ، وكانت حياتها بهذا السم لأنه كان كل كليتها .

ورايت فى مدينة بالتركستان(٣) على حدود البلاد الاسلامية ان النار كانت

---

(١) انجليون : معرب انكليون الفارسي . ولها عدة معان : فهى حينا بمعنى الانجيل ، وتارة بمعنى كتاب مانى النقاش ، وآونة بمعنى الديباج الذى يظهر فيه سبعة الوان متموجة ، والحرباءة التى تتلون كل آونة بلون .

(٢) مانى : صاحب الديانة المانوية . ظهر فى عهد سابور بن اردشير ، وادعى النبوة ، ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية . كان بارعا فى الرسم والتصوير ، وقتل فى عهد بهرام بن هرمز (انظر تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥٣) .

(٣) تركستان : اسم جامع لبلاد الترك (معجم البلدان جـ ١ ص ٨٣٨) .

قد اشتغلت فى جبل وكان يحترق بـ"نوشادر يفور من أحجاره ، وكان فى تلك النار فار ، كان يهلك اذا خرج ن النار .

والمراد من هذا كله غير هذا ، هو أن اضطراب المبتدىء عند حلول وارد الحق تعالى سببه أن حسه مخالف له ، وحين يتواتر هذا فيه ، يسكن : اما رايت انه حين جاء جبريل فى البداية لم تكن للنبى عليه السلام طاقة برؤيته ، وحين وصل الى النهاية كان يضيق صدره اذا تأخر لحظة ؟ ولهذا شواهد كثيرة ، وهذه الحكايات دليل على اضطراب المبتدئين ، وبرهان ايضا على سكون المنتهين فى السماع .

ومعروف انه كان للجنيد مريد كان يضطرب كثيرا فى السماع ، وكان ينشغل به الدراويش ، فشكوه الى الشيخ رضى الله عنه فقال له : اذا اضطربت بعد هذا فى السماع فلا اصحبك انا ايضا . ويقول ابو محمد الجريرى : كنت انظر اليه فى سماع وكان قد اطبق شفتيه وصمت حتى انفتحت عين من كل شعرة فى جسده ، وفقد وعيه ، وظل يوما فاقد الوعى(١) . فلا ادرى اكان اصح فى السماع ، او أن حرمة الشيخ كانت على قلبه اقوى ؟ .

ويقال ان مريدا صرخ صرخة فى السماع فقال له الشيخ : اسكت ، فوضع راسه على ركبته ، وحين نظروا كان قد مات .

وسمعت الشيخ ابا مسلم بن غالب الفارسى رضى الله عنه يقول : كان درويش يضطرب فى السماع ، فوضع واحد يده على رأسه ان : اجلس ، فما أن جلس حتى فارق الدنيا .

ويقول الجنيد رضى الله عنه : رايت درويشا اسلم الروح فى السماع .

---

(١) حكاها السراج عن ابى عمرو عبد الواحد بن علوان ، قال : كان شاب يصحب الجنيد ، فكان اذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان فعلت ذلك مرة اخرى لم تصحبنى ، قال : فربما كان يتكلم الجنيد رحمه الله فى شىء من العلم ، فيتغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وقال : وحكى لى ابو عمرو انه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه (اللمع ص ٣٥٨ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٥١) .

ويروى الدقى(١) عن الدراج انه قال : كنت أنا وابن الفوطى نسير على شاطىء دجلة بين البصرة والأبلة(٢) ، فوصلنا الى قصر كان قد جلس على بابه رجل وسيم ، وجارية جالسة اليه تغنيه وتقول :

(شعر عربى)

فى سـبيل الله ود　　　كان منى لك يبذل
كل يوم تتلـــون　　　غير هذا بك اجمل

ورايت شابا واقفا الى جوار حائط القصر ، يرتدى مرقعة ويحمل ركوة ، فقال : يا جارية ! استحلفك بالله ان تعيدى هذا البيت ، اذ لم يبق من حياتى اكثر من نفس ، لعل روحى تصعد بسماع هذا البيت . فاعادته الجارية مرة ثانية ، فصرخ وفارقته الروح . وقال صـاحب القصر للجارية : انت حرة ، ونزل هو وانشغل بتجهيز الشاب ، وصلى عليه كل اهل البصرة ، وقام الرجل وقال : يا اهل البصرة ! انا فلان بن فلان ، قد جعلت كل املاكى فى سبيل الله ، وحررت مماليكى . وذهب من هنالك ، ولم يعرف احـد خـبره(٣) .

وفائدة هذه الأحاديث والحكايات هى انه يلزم للمريد فى غلبة السماع احوال عديدة ليمنع سماعه الفاسقين من الفسق ، وفى زماننا هذا يذهب فريق من الضالين لسماع الفاسقين ، ويقولون نحن نسمع من الحـق ، والفاسقون بسبب موافقة هؤلاء لهم يصيرون اكثر حرصا على السماع والفسق والفجور ، فيهلكون أنفسهم ويهلكونهم .

وسئل الجنيد رضى الله عنه : هل يجوز ان نذهب الى الكنيسة على

---

(١) الدقى : أبو بكر محمد بن داود الدينورى . كان من اقران ابى على الروذبارى وعمر فوق مائة سنة . اقام بالشام ، وصحب ابا عبد الله بن الجلاء وابا بكر الزقاق الكبير وابا بكر المصرى . مات بدمشق بعد الخمسين وثلثمائة (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٤٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠) .

(٢) الابله : بلدة قديمة كانت على أربعة فراسخ من البصرة ، وهى اليوم جزء منها (طبقات الصوفية ص ٦٢) .

(٣) وردت هذه الحكاية فى اللمع مع تقديم البيت الثـانى على الأول (انظر ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩) . ووردت فى الرسالة كما جاء هنا فى النص ونسبت خطأ الى « الرقى » (انظر الرسالة ج ٢ ص ٦٥٣) .

سبيل الاعتبار ولا يكون مرادنا فى هذا الا أن نرى ذل الكفار ، ونشكر الله على نعمة الاسلام ؟ قال : اذا استطعتم أن تذهبوا بحيث أنكم حين تخرجون تستطيعون أن تهدوا جماعة منهم فاذهبوا ، والا فلا .

فاذا ذهب رجل الصومعة الى الحانات تصير الحانات صومعته ، واذا ذهب رجل الحانات الى الصومعة تصير الصومعة حانة له .

ويقول واحد من كبار المشايخ : سمعت مع درويش فى بغداد صوت مغن كان يغنى .

(شعر عربى)

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى
والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

فصرخ ذلك الدرويش وفارق الدنيا .

ومثل هذا ، يقول أبو على الرودبارى رضى الله عنه : رأيت درويشا كان قد شغل بغناء مغن ، فاصغيت أنا أيضا لأرى ما يقول ، فكان ذلك المغنى يقول بصوت حزين :

« أمد كفى بالخضوع الى الذى جاد بالصنيع »

فصرخ الدرويش ووقع ، فلما اقتربت منه وجدته ميتا .

ويقول قائل كنت أسير مع ابراهيم الخواص رحمه الله فى طريق ، فظهر طرب فى قلبى ، فغنيت هذا الشعر :

(شعر عربى)

صح عند الناس انى عاشق — غير أن لم يعلموا عشقى لمن
ليس فى الانسان شىء حسن — الا واحسن منه صوت حسن

فقال لى : أعد هذا الشعر ، فاعدته ، فضرب الأرض عدة ضربات من الوجد ، فلما نظرت كانت اقدامه تغوص فى الحجر كما لو كانت تغوص فى شمع ، ثم وقع مغشيا عليه . فلما أفاق قال لى : كنت فى روضة الجنة وانت لم تر .

ومن هذا الجنس حكايات اكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وقد رأيت معاينة درويشا كان يسير فى جبال أذربيجان ، ويقول هذه الأبيات متعجلا :

(شعر عربى)

والله ما طلعت شمس ولا غربت — الا وانت منى قلبى ووسواسى
ولا تنفست محزونا ولا فرحا — الا وذكرك مقرون بأنفاسى

ولا جلست الى قوم احــدثهم الا وانت حديثى بين جــلاسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش الا رأيت خيالا منك فى الكاس

وتغير من السماع ا واســـند ظهره الى حجر ، واسلم الروح .

فصل : وقد كره جماعة من المشايخ قراءة القرآن بالألحان ، وسماع القصائد والأشعار بحيث تتجاوز الحروف حدودها ، واحترزوا وغالوا فى ذلك ، وهم على عدة طوائف ، ولكل منهم علة تخالف الأخرى .

فطائفة منهم من وجدوا روايات فى تحريم ذلك ، وتابعوا السلف الصالح فى ذلك وقلدوهم ، مثل زجر الرسول عليه السلام لشيرين جارية حسان ابن ثابت عن الغناء . وضرب عمر رضى الله عنه مران الصحابى بالدرة لأنه كان يغنى . وانكار على ، رضى الله عنه ، على معاوية أنه كان لديه جوار مغنيات ، ومنعه الحسن رضى الله عنه من رؤية تلك المراة الحبشية التى كانت تغنى ، وكان يقول انها قرين للشيطان ، ومثل هذا . ويقولون أيضا ان هذا أكبر دليل لنا على كراهية الغناء ؛ وقد كان الغناء مكروها فى زماننا وقبلنا باجماع الأمة . .

وطائفة على انه حرام مطلق ، ويروون فى هذا المعنى عن ابى الحارث البنانى انه قال : كنت مجدا فى السماع ؛ وذات ليلة جاء شخص الى صومعتى وقال : ان جماعة من طلاب حضرة الله تعالى مجتمعون وينتظرون حضورك، فهلا تفضلت وشققت على نفسك ؟ قال : فخرجت ؛ وكنت أسير اثره . ولم يمض كثير حتى وصلت الى جماعة كانوا قد تحلقـــوا وجلس فى وســـطهم شيخ ، فأكرمونى فوق الغاية ، وقال الشيخ : هل تأذنون بأن ينشدوا شعرا ؟ فاجبته ، فأخذ شخصان يغنيان بألحان جميلة اشعارا مما قاله الشعراء فى الفراق ، وقد نهضوا جميعا يتواجدون ، وكانوا يصيحون صيحات جميلة ويشيرون اشارات لطيفة ؛ وبقيت متعجبا من حالهم وطيب وقتهم حتى دنا الصباح ، وعندئذ قال لى ذلك الشيخ . ايها الشيخ ! الا تسأل من أنا ، ومن هؤلاء ؟ قلت : حشمتك تمنعنى من السؤال ، فقال ــ لعنه الله ــ انه ابليس وان هؤلاء جميعا أولاده ، وان له فى هذه الجلسات والأغانى فائدتين ، (قال)احداهما : انى أندب فيه مصيبة الفراق وأيام دولتى ، والثانية: انى اضل العباد وأوقعهم فى الغلط . ويقول ابو الحارث : منذ ذلك الوقت انتفت ارادة السماع من قلبى ، وخجلت من ذلك الغبن العظيم .

وأنا على بن عثمان الجلابى سمعت من الشيخ ابى العباس الشقانى رحمه الله قوله : كنت يوما فى مجمع فيه اناس يقيمون السماع ، فرايت الشياطين

يرقصون عراة بينهم ، وبقيت فى عجب من حالهم اذ كانوا ينفخون وهم يزدادون حرارة بذلك .

وقد امتنعت جماعة اخرى عن السماع خوفا من الخطر على المريدين حتى لا يقعوا فى البلاء والبطالة ، ولا يقلدوهم ، ولا يعودوا من التوبة الى المعصية ، ولا يقوى الهوى فيهم ، ولا يفسخ الهوى عزيمة صلاحهم ، لأنه معرض البلاء واصل الفتنة . ولم يجلسوا بينهم .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه انه قال للجريرى فى حال ابتداء توبته : اذا أردت سلامة الدين ورعاية التوبة لا تنكر السماع الذى يقيمه الصوفية ، ولا تر نفسك أهلا له ما دمت شابا ، واذا صرت شيخا فلا تؤثم الناس .

وقالت جماعة أخرى ان اهل السماع فريقان : احدهما لاه ، والآخر الهى ، فاللاهى يكون فى عين الفتنة ولا يخشاها ، والالهى يكون قد أبعد عن نفسه الفتنة بالرياضات والمجاهدات وانقطاع القلب عن المخلوقات ، واعراض السر عن المكونات وامن من ذلك . وبما أننا لسنا من هذا الفريق ولا من أولئك فالافضل لنا تركه ، والأولى بنا الانشغال بشىء يوافق وقتنا .

وقالت طائفة اخرى : بما ان للعوام فى السماع فتنة ، ويتشوش اعتقاد الناس بسماعنا وهم محجوبون عن درجتنا فيه فيأثمون بنا ، فنحن نشفق على العامة ، وننصح الخاصة ، ونكف عن ذلك غيرة على الوقت . وهذه طريق محمودة .

وقالت طائفة ان النبى عليه السلام قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه(١) » ، فنكف يدنا عن شىء لنا عنه مندوحة ، لأن الانشغال بما لا يعنى تضييع للوقت ، ووقت الأحباب مع الأحباب عزيز جدا ، ويجب الا يضيع .

وقالت طائفة اخرى من الخواص : ان السماع خبر ، ولذته ادراك المراد ، وهذا شأن الصغار ، فاى قدر للخبر فى العيان بعد المشاهدة ؟ .

هذه هى احكام السماع التى ذكرتها على سبيل الاختصار . والآن فلأذكر بابا فى الوجد والوجود والتواجد ، وارتبه ان شاء الله العزيز وحده .

---

(١) « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » : حديث حسن رواه الترمذى فى كتاب الزهد ج ٤ ص ٥٥٨ .

باب الوجد والوجود والتواجد ومراتبه :

اعلم أن الوجد والوجود مصدران : أحدهما بمعنى الحزن ، والثانى بمعنى الوجد ، وفعل كلاهما كأنه واحد ، ولا يمكن التفرقة بينهما الا بالمصدر ، كما يقال : وجد يجد وجودا ووجدانا : اذا صار محزونا ، وأيضا : وجد يجد جدة : اذا صار غنيا ، ووجد يجد موجدة : اذا غضب . والفرق بين هذه كلها يكون بالمصادر لا بالأفعال .

ومراد هذه الطائفة من الوجد(١) والوجود اثبات حالين يظهران لهما فى السماع ، أحدهما مقرون بالحزن ، والآخر موصول بالوجد والمراد .

وحقيقة الحزن : فقد المحبوب ، ومنع المراد ، وحقيقة الوجد : حصـــول المراد . والفرق بين الحزن والوجد هو أن الحزن اسم الغم الذى يكون فى نصيب النفس ، والوجد اسم الغم الذى يكون فى نصيب الغير على وجه المحبة . وتغيير هذا جملة صفة الطالب « والحق لا يتغير » .

ولا تدخل كيفية الوجد تحت العبارة لأنها ألم فى المغايبة ، ولا يمكن بيان الألم بالقلم ، فالوجد سر بين الطالب والمطلوب يكون بيانه فى كشف تلك الغيبة ، ولا تصح العلامة والاشارة الى كيفية الوجـــود ، لأنه طرب فى المشاهدة ، ولا يمكن ادراك الطرب بالطلب ، فالوجود فضل من المحبوب الى المحب ، والاشارة معزولة عن حقيقته .

وعندى أن الوجد ألم للقلب ، اما من الفرح أو الترح أو الطرب أو التعب . والوجود ازالة غم عن القلب ومصادقته لمراده .

وصفة الواجد : اما حركة فى غليان الشوق فى حال الحجاب ، واما سكون فى حال المشاهدة فى حال الكشف : « اما زفير واما نفير ، اما أنين واما حنين ، اما عيش واما طيش ، اما كرب واما طرب » .

---

(١) الوجد : عرفه الغزالى بأنه حال تتوسط السماع والرقص ، فالسماع يثمر فى القلب حالة تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف اما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، واما بحركة موزونة فتسمى التصـــفيق والرقص (احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٢٣٧) .

ويقول أبو الحسن النورى : « الوجد لهيب ينشأ فى الأسرار ، ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عند ذلك الوارد » . وأنشدوا للجنيـــد :

الوجد يطرب من فى الوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقود

قد كان يطربنى وجدى فأشغلنى ... عن رؤية الوجد ما فى الوجد موجود

(التعرف ص ١١٣)

والمشايخ مختلفون : هل الوجد أتم أو الوجود ؟ فقالت طائفة : ان الوجود صفة المريدين ، والوجد نعت العارفين ، ولما كانت درجة العارفين اعلى من درجة المريدين فيجب ان تكون صفة هؤلاء اكمل من أولئك ، لأن كل ما جاء تحت الادراك ، يكون مدركا ، وهذا صفة الجنس ، لأن الادراك يقتضى الحد ، والله تعالى ليس له حد ، فما يجده العبد ليس الا مشربا ، وما لم يجده الطالب وانقطع فيه ، وعجز عن طلبه الواجد ، فهو حقيقة الحق .

وتقول طائفة : ان الوجد هو حرقة المريدين ، والوجود تحفة المحبين ، ودرجة المحبين أعلى من درجة المريدين ، لأن السكون مع التحفة أتم من الحرقة فى الطلب . وهذا المعنى لا ينكشف الا بحكاية ، وهى : ان الشيخ أبا بكر الشبلى رحمه الله جاء ذات يوم فى غليان حاله الى الجنيد رضى الله عنه فوجده محزونا ، فسأله : أيها الشيخ ! ماذا حدث ؟ فقال الجنيد رضى الله عنه : « من طلب وجد » ، فقال (الشبلى) : « لا ، بل من وجد طلب » وعندئذ تكلم المشايخ فى هذا فقالوا ان أحدهما اشار الى الوجد والآخر اشار الى الوجود .

وعندى ان قول الجنيد رضى الله عنه هو المعتبر ، لأنه متى عرف العبد ان معبوده ليس من جنسه يطول حزنه . وقد سبق الكلام فى هذا المعنى فى هذا الكتاب .

والمشايخ رضى الله عنهم متفقون على ان سلطان العلم اقوى من سلطان الوجد ، لأنه حين تكون القوة لسطان الوجد يكون الواجد فى محل الخطر ، وحين تكون القوة لسلطان العلم يكون فى محل الأمن . والمراد من هذا كله انه يجب فى جميع الاحوال ان يكون الطالب متابعا للعلم والشرع لأنه عندما يغلب بالوجد يرتفع عنه الخطاب ، واذا ارتفع الخطاب ارتفع الثواب والعقاب ، واذا ارتفع الثواب والعقاب ترتفع الكرامة والاهانة ، وعندئذ يكون حكمه حكم المجانين ، لا حكم الاولياء والمقربين . وحين يغلب سلطان العلم على سلطان الحال يكون العبد فى كنف الأوامر والنواهى ، ويكون مشكورا دائما فى ستره . وايضا حين يغلب سلطان الحال على سلطان العلم ، يكون العبد خارجا عن الحدود ومحروما من الخطاب ، ويكون فى محل نقصه اما معذورا ، واما مغرورا .

ويعين هذا المعنى قول الجنيد رضى الله عنه حيث قال : طريق الحبيب اما بالعلم أو بالسلوك ، والسلوك بلا علم وان يكن حسنا فهو جهل ونقص ، واذا كان العلم مع السلوك ، فهو عز وشرف . ولهذا قال أبو يزيد رضى

الله عنه : « كفر اهل الهمة اشرف من اسلام أهل المنية » . ولا يقع الكفران على أهل الهمـــة، اما اذا قدر ذلك فان أهل الهمة مع الكفر يكونون اكمل من اهل المنية مع الايمان .

وقال الجنيد عن الشبلى رحمهما الله : « الشبلى سكران ولو افاق لجاء منه امام ينتفع به(١) » .

ومشهور فى الحكايات أن الجنيد ومحمد بن مسروق وابا العباس بن عطاء رضى الله عنهم كانوا مجتمعين ، فانشد القوال شعرا ، فكانا يتواجدان وهو (الجنيد) ساكن ، فقالا له : أيها الشيخ ! اليس لك نصيب من هذا السماع ؟ فقرأ قوله تعالى : « تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب(٢) » .

اما التواجد فهو التكلف فى اتيان الوجد ، وذلك عرض لانعام الحق وشواهده على القلب ، والتفكير فى الاتصال والتمنى مسلك الرجال . وفريق فيــه مترسمون ، فقد تلدوا حركاتهم الظاهرة ، وترتيب رقصهم ، وتزيين اشاراتهم وهذا حرام محض . وفريق محققون ومرادهم فى ذلك طلب احوال ودرجات كبار المتصوفة لا حركاتهم ورسومهم ، لقوله عليه السلام : « من تشـــبه بقوم فهو منهم » . وهذا الخبر ناطق باباحة التواجد ، ومن ذلك أن قال احد الشيوخ رضى الله عنهم : اسير الف فرسخ بالكذب لتكون منها قـــدم واحدة صادقة .

والكلام يطول فى هذا الباب اكثر من هذا ، ولكنى اقتصرت على هذا ، والســـلام .

باب الرقص :

اعلم انه ليس للرقص(٣) اصل فى الشريعة والطريقة ، لانه باتفاق جميع

---

(١) ورد فى اللمع (انظر ص ٣٨٢) .

(٢) سورة « النمل » آية ٨٨ .
اشير فى اللمع الى انه قيل للجنيد : كنت تسمع هذه القصائد وتحضر مع اصحابك فى اوقات السماع وكنت تتحرك ، والآن فانت هكذا ساكن الصفة ، فقرأ عليهم الآية وفسر السراج ذلك بقوله : كأنه كان يعنى انكم تنظـــرون الى سكون جوارحى وهدوء ظاهرى ولا تدرون اين انا بقلبى . وعقب على هذا بأنه صفة من صفات أهل الكمال فى السماع . (اللمع ص ٣٦٦ — ٣٦٧) .

(٣) الصوفية مختلفون فى الرقص ، فمنهم من اباحه ، ومنهم من راى فيه بدعة ونهى عنه . وقد اباحه أبو عبد الرحمن السلمى استنادا الى ما ورد عن=

العقلاء لهو حين يكون جدا ، ولغو حين يكون هزلا . ولم يمدحه احد من المشايخ ، ولم يغل فيه ،وكل اثر يدخله فيه اهل الحشو باطل كله . ولما كانت حركات الوجد ومعاملات اهل التواجد شبيهة بالرقص ، فقد تلدهم فى ذلك جماعة من اهل الهزل ، وغالوا فى ذلك وجعلوا منه مذهبا . وقد رايت جماعة من العوام كانوا يظنون ان مذهب التصوف ليس الا هذا فاتبعوه ، وجماعة انكروا اصله .

=بعض الصحابة من أنهم حركوا أرجلهم فيما يشبه الرقص ، من ذلك ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه : « انت منى وانا منك » فحجل على ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد . كذلك احل الغزالى الرقص قائلا : لو كان الرقص حراما لما نظرت عائشة رضى الله عنها الى الحبشة مع رسول الله وهم يزفنون (احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦٧) . وظاهرة الرقص تبدو واضحة فى التصوف الفارسى ، فقد كان أبو سعيد بن أبى الخير مولعا بالسماع والرقص وكان يرى فى الرقص رياضة من الرياضات التى تساعد المريدين والمبتدئين على التخلص من شهوة الجسد . (اسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣٧) . وكان الرقص طابعا مميزا لفرقة المولوية المنسوبة الى مولانا جلال الدين الرومى ، فقد كان المولوية يقيمون طريقتهم على الوجد والسماع والرقص وقراءة الأشعار حتى انهم يعرفون عند الأوروبيين بالدراويش الراقصين (تاريخ الأدب فى ايران : براون ج ٢ الترجمة العربية ص ٦٥٧) .

وقد نفى ابن الجوزى أن يعد الزفن والحجل رقصا ، لانهما نوع من المشى وضرب الأرض بالقدم ، وهو ما يفعله الانسان العادى فى حال الفرح ، أما رقص الصوفية فهو لا يتناسب مع وقار الشيوخ ، يقول : « وهل يزرى بالعقل والوقار ويخرج عن سمت الحلم والأدب اقبح من ذى لحية يرقص ؟ فكيف اذا كان شيبة ترقص على قاع الألحان والقضبان ؟ (تلبيس ابليس ص ٢٥٩) . كذلك رأى السهروردى فى الرقص عملا لا يليق بالشيوخ ومن يقتدى بهم ، لما فيه من مشابهة للهو ، واللهو لا يليق بمنصبهم . (عوارف المعارف ص ١٣٠) .

ولأبى العلاء المعرى بيتان يعيب فيهما رقص الصوفية ، يقول فيهما :

أرى جيل التصوف شر جيل ... فقل لهمو واهون بالحلول

اقال الله حين عبدتموه ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لى

وجملة القول : ان الرقص قبيح شرعا وعقلا من أجهل الناس ، ومحال ان يفعله أفضل الناس ، ولكن حين تظهر فى القلب خفة وتتسلط الخفقات على الرأس ، يقوى الوقت ، فيضطرب الحال ، ويرتفع الترتيب والرسوم . وذلك الاضطراب الذى يظهر لا يكون رقصا ولا دبيبا بالقدم ، ولا تربية للطبع ، بل هو صهر للروح ، والشخص الذى يسمى هذا رقصا يبعد كثيرا عن الصواب ، وأبعد منه الشخص الذى لا تأتيه من الحق حال بلا اختياره ويحاول أن يجذبها اليه بالحركة ، ويسميها حالا من الحق ، فتلك الحال التى ترد من الحق شيء لا يمكن بيانه بالنطق ، « ومن لم يذق لا يدرى » .

النظـــر فى الأحـــداث :

فى الجملة : النظر فى الأحداث(١) وصحبتهم محظوران ، ومن يجز ذلك فهو كافر ، وكل اثر يؤتى به فى هذا يكون بطالة وجهالة . وقد رأيت جماعة من الجهال انكروا على اهل الطريقة بتهمة ذلك ، ورأيت انهم جعلوا من هذا مذهبا . وقد أعتبر المشايخ كلهم هذا آفة ، وقد بقى هذا الأثر من الحلوليين ــ لعنهم الله ــ بين أولياء الله والمتصوفة .

باب الخـــرق :

أعلم ان تخريق الثياب بين هذه الطائفة أمر معتاد ، وقد فعلوا هذا فى المجامع الكبرى التى كان المشايخ الكبار رضى الله عنهم حاضرين فيها .

ورأيت من العلماء طائفة أنكروا ذلك وقالوا انه لا يجوز تمزيق الثوب

---

(١) ظهرت هذه الآفة فى بعض الأوساط الصوفية ، وقد حذر القشيرى من الوقوع فيها ، وعدها من أصعب الآفات فى الطريقة ، وقال أن من ابتلاه الله بشيء من ذلك فهو باجماع الشيوخ عبد أهانه الله عز وجل وخذله .
ويقول الحصرى : سمعت فتحا الموصلى يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من الأبدال ، كلهم أوصونى عند فراقى اياهم ، وقالوا لى : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم . (الرسالة جـ ٢ ص ٧٤٤ ــ ٧٤٥) .

السليم ، وأن ذلك فساد(١) . وهذا محال ، فالفساد المراد منه الصلاح سهل ، وكل الناس أيضا يقصون الثياب السليمة ويخيطونها ، كما هو معهود . ولا يوجد فرق بين من يمزق الثوب الى مائة قطعة ويخيطها فى بعضها البعض ، وبين من يمزقونه الى خمس قطع ويخيطون فى كل قطعة منها راحة قلب مؤمن ، وقضاء حاجة من حاجاته .

ومهما يكن ، فان تخريق الثوب لا اصل له فى الطريقة ، ولا يجوز عمله البتة فى السماع فى حال الصحة لأن ذلك لا يكون الا اسرافا . ولكن اذا غلب المستمع على امره بحيث يرتفع عنه الخطاب ويصير غافلا فانه يكون معذورا ، أو حين يقع ذلك لأحد ، اذا خرقت جماعة الثياب موافقة له ، ويكون ذلك فى حال السماع بحكم الغلبة ، وهذا على نوعين :

احدهما : ان الجماعة والأصحاب يخرقون ثوبه بحكم شيخ أو قدوة ، أو فى حال الاستغفار من جرم .

والثانى : فى حال السكر من وجد .

وأصعب هذا كله خرقة السماع ، وهى على نوعين : واحدة مجروحة ، والأخرى صحيحة .

ويشترط للثوب المجروح شيئان : اما أن تخيطه الجماعة وترده لصاحبه ، واما أن تعطيه لدرويش آخر ، أو تمزقه قطعة قطعة ويقسموه للتبرك .

---

(١) عاب ابن الجوزى على الصوفية تمزيق الثياب السليمة وعد ذلك نوعا من الفساد والخروج عن الشرع . وقد سئل ابن عقيل عن تواجد الصوفية وتمزيقهم الثياب ، فقال : خطأ وحرام ، والرسول نهى عن اضاعة المال وشق الجيوب (تلبيس ابليس ص ٢٦٠) . أما الغزالى فهو لا يرى بأسا فى ذلك ويعده شيئا مباحا لأن الثوب اذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، والكرباس (نسيج قطنى غليظ) يمزق حتى يخاط منه القميص ولا يكون ذلك اتلافا أو تضييعا لأنه تمزق لغرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن الا بالقطع الصغار ، وذلك مقصود . والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . (احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) .

ولكن حين يكون (الثوب) صحيحا ، فلننظر لنرى ماذا كان مراد ذلك الدرويش المستمع الذى رمى بثوبه ؟ فاذا كان مراده القوال ، فهـو له . واذا كان مراده الجماعة ، فهو لهم . واذا وقع بغير مراده ، فمرجع ذلك لحكم الشيخ ليامر بما يرى .

فاذا كان للدرويش فى ذلك مراد ايا كان ، فانه لا يشترط ان يكون (ذلك) عن طريق موافقة الجماعة ، لانه فى اى جال يكون،سواء كان مريدااومضطرا فانه ليس للآخرين فيه اى موافقة .

ولكن اذا كان مراد الدرويش الجماعة ، أو انه انخلع عنه بدون مراده ، فيشترط موافقة الأصحاب مع بعضهم البعض ، ولا يصح (التصرف فيه) بدون موافقة الجميع . واذا اتفق الجماعة على شىء فلا يجوز للشيخ ان يعطى للقوال ثياب الدراويش . ولكن يجوز اذا ضحى احد محبيهم شيئا ورد الثوب للدراويش ، أو يمزق كله ويقسم .

واذا كان الثوب قد وقع فى حال الغلبة فالمشايخ فى هذا مختلفون : يقول اكثرهم انه للقوال ، وفقا لقول النبى عليه السلام : « من قتل قتيـلا فله سـلبه(١) » ، واذا لم يعطوه للقوال فانهم يخرجون بذلك عن شرط الطريقة .

ويقول جماعة ان الامر يكون للشيخ . ورايى هو هذا ، فكما أن هنـالك فى مذهب بعض الفقهاء لا يجوز اعطاء ثوب المقتول للقاتل الا باذن الامام ، فانه هنا لا يجوز اعطاء الثوب للقوال الا بأمر الشيخ . واذا اراد الشيخ أن لا يعطيه للقوال فلا جرح عليه ، « والله اعلم بالصواب ، واليه المرجع والمـآب » .

باب آداب السماع :

اعلم ان شرط آداب السماع هو أن لا تفعله ما لم يات ، ولا تجعله عادة ، وتفعله على فترات متباعدة حتى لا يزول تعظيمه من قلبك . ويجب عندما تمارسه ان يكون هنالك شيخ حاضرا ، وان يكون مكان السماع خاليـا من العوام ، والقوال محترما ، وان يكون القلب خاليا من الاشغال ، والطبـع نفورا من اللهو ، وقد ارتفع التكلف .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن ابى قتادة ، واحمد وابو داود عن انس ، واحمد وابن ماجه عن سمره : « من قتل كافرا فله سلبه » (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٠٩) .

وما لم تظهر قوة السماع فلا يشترط أن يبالغ فيه ، فاذا قوى فلا يشترط أن تدفعه عن نفسك ، وتابع الوقت على ما يقتضى ، فاذا حركك فتحرك ، واذا سكنك فاسكن . ويجب أن تفرق بين قوة الطبع وحرقة الوجد .

ويجب أن يكون للمستمع من الرؤية ما يجعله يستطيع ان يتقبل وارد الحق ، وأن يوفيه حقه . واذا اظهر سلطانه على القلب فلا يدفعه عن نفسه بالتكلف ، واذا قلت قوته لا يجذبه بالتكلف .

ويجب ان لا يرجو مساعدة احد فى حال الحركة ، واذا ساعده احد لا يمنعه . ولا يتدخل فى سماع احد ، ولا يشوش وقته ، ولا يتصرف فى حاله، ولا يزنه بنيته ، لأن فى ذلك كثير من عدم البركة .

واذا احسن القوال الانشاد لا يقول له : احسنت ، واذا أساء الانشاد واخل الوزن وخالف الطبع لا يقول له : انشد خيرا من هذا ، ولا يضمر له الخصومة ، ولا ينظر اليه ، ويحيله الى الحق ، ويسمع سماعا صحيحا .

واذا استولى السماع على جماعة ولم يكن له منه نصيب ، فينظر الى سكرهم بصحوه فيجب أن يكون محتاجا الى الوقت ويمكن لسلطان الوقت لتصل اليه بركاته .

وانا على بن عثمان الجلابى افضل الا يترك المبتدئون للسماع حتى لا تضطرب طباعهم ، وفى ذلك اخطار عظيمة وآفة كبرى ، لأن النساء ينظرن الى الدراويش من سطح أو مكان ، فى حال سماعهم ، ويقع من هذا للمستمعين حجب صعبة .

ويجب الا يكون بينهم احد من الأحداث ، من بعد أن جعل جهال المتصوفة هذا كله مذهبا ، واضاعوا بذلك صدق المعنى . وأنا أستغفر الله مما جرى على من اجناس الآفات ، والاستهانة فى المعاملات ، واطلب العون من الله تبارك وتعالى ليطهر ظاهرى وباطنى من الآفات .

واوصيك انت وقراء هذا الكتاب برعاية أحكام هذا الكتاب ، « وبالله العون والتوفيق ، والجمع والتفريق وحسبنا الله ونعم الرفيق ، وصلى الله على محمد وآله اجمعين وسلم تسليما كثيرا » .

(ب) فهرس اسماء الأشخاص والأنساب والقبائل ... الخ

(جـ) كشاف اسماء الاماكن

(د) فهرس الكتب الواردة فى متن كشف المحجوب

(هـ) فهرس الطوائف والفرق والمذاهب والملل والنحل

(و) ثبت باسماء المراجع

(ز) الخطا والصواب

فهـرس محتويات الجـزء الثانى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الكشـــافات

اعـداد

محمد محمد فهمى أبو بكر

المفهرس بدار الكتب والوثائق القومية

ملاحظات :

[هذه الكشـــافات مرتبة ترتيبا ابجديا باعتبار الكلمات مجردة من اداة التعريف « الـ » ومن كلمة ابن متى توسطت بين اسمين ، واذا وضعت شرطة بين رقمين فمعناها « الى » وعلامة = بمعنى انظر] .

فهــرس اسماء الأشخاص

والأنساب والقبائل

(ن)

(هـ)

فهـرس اسـماء الاماكن

(ن)

(هـ)

فهرس الكتب الواردة فى متن كشف المحجوب

فهرس الطوائف والفرق والمذاهب والملل والنحل

«ثبت باسماء المراجع»

(أ) المراجع العربية

احياء علوم الدين : ابو حامد محمد بن محمد الغزالى . القاهرة ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م (جـ ١ ، ٢ ، ٤)

اسرار التوحيد : محمد بن المنور ، ترجمة اسعاد عبد الهادى . القاهرة ١٩٦٦

باكستان المعاصرة : حافظ حمدى ، محمود الشرقاوى . القاهرة ، بدون تاريخ

بحث فى حقيقة شيخ صنعان : احمد ناجى القيسى بغداد ١٣٨٤هـ — ١٩٦٥م

بلدان الخلافة الشرقية : كى لسترنج ، ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد . بغداد ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م

البلدان : اليعقوبى ، احمد بن ابىيعقوب بن واضح . النجف ، بدون تاريخ

تاريخ الأدب فى ايران : ادوارد براون ، ترجمة ابراهيم أمين الشواربى . القاهرة ، ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م

تاريخ البيهقى : ابو الفضل البيهقى ، ترجمة يحيى الخشاب ، صادق نشأت القاهرة ، ١٣٧٦هـ — ١٩٥٦م

تاريخ الشعوب الاسلامية : بروكلمان ، ترجمة نبيه أمين ، منير البعلبكى . بيروت ، ١٩٤٩م (جـ ٢)

تاريخ الفلسفة الاسلامية : حنا الفاخورى . بيروت ، ١٩٥٧ .

التصوف الثورة الروحية فى الاسلام : ابو العلا عفيفى . القاهرة ، ١٩٦٣ .

التعرف لمذهب اهل التصوف : ابو بكر محمد الكلاباذى . القاهرة ، ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م

التعريفات : على بن محمد الجرجانى . القاهرة ، ١٣٢١هـ .

تلبيس ابليس : ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . القاهرة ، ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨م .

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم ميتز ، ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريده . القاهرة ، ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م (جزآن)

حضارة الهند : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ، ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م .

الحياة الروحية فى الاسلام : محمد مصطفى حلمى . القاهرة ، ١٩٤٥م .

راحة الصدور : الراوندى ، ترجمة امين الشواربى ، عبد النعيم محمد حسنين ، فؤاد عبد المعطى الصياد . القاهرة ، ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م .

الرسالة : ابو القاسم القشيرى (طبع عبد الحليم محمود) القاهرة ، ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م (جزآن)

سلاجقة ايران والعراق : عبد النعيم محمد حسين . القاهرة ، ١٩٥٩م .
شد الازار فى حط الأوزار عن زوار المزار : معين الدين ابو القاسم جنيد الشيرازى ، تصحيح محمد قزوينى ، عباس اقبال . طهران ، ١٣٢٨هـ
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب : ابو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى . القاهرة ، ١٣٥٠هـ (جـ ٣)
صفوة الصفوة : ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . حيدر آباد ، ١٣٥٥هـ (جزآن)
ضحى الاسلام : احمد امين . القاهرة ، ١٩٥٦م (جـ٣)
طبقات الصوفية : ابو عبد الرحمن السلمى (طبع نور الدين شريبه) . القاهرة ، ١٩٥٣م
الطبقات الكبرى : عبد الوهاب الشعرانى . القاهرة ، ١٣١٦هـ (جزآن)
ظهر الاسلام : احمد امين . القاهرة ، ١٣٥٢هـ (جـ ٣)
عوارف المعارف : أبو حفص عمر بن محمد السهروردى . القاهرة ، ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م
فتوح البلدان : البلاذرى ، احمد بن يحيى بن جابر البغدادى . القاهرة ، ١٣١٩هـ — ١٩٠١م (جـ ١)
الفتوحات الاسلامية : احمد بن السيد زينى دحلان . القاهرة ، (بدون ناريخ) (جـ ١)
الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادى . القاهرة ، ١٩٤٨م .
الفصل فى الملل والنحل : ابن حزم الأندلسى . القاهرة ، ١٣١٧هـ (جـ ٤)
فهرس المخطوطات الفارسية : اعداد نصر الله مبشر الطرازى . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٦ — ١٩٦٧ (جـ ٢)
الفهرس : محمد بن اسحق بن أبى يعقوب النديم . القاهرة ، ١٣٤٨هـ
فهرست مؤلفات نور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله مبشر الطرازى . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٤
فى التصوف وتاريخه : نيكولسون ، ترجمة ابى العلا عفيفى . القاهرة ، ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م
القصة فى الادب الفارسى : أمين عبد المجيد بدوى . القاهرة ، ١٩٦٣
قوت القلوب : ابو طالب محمد بن على المكى . القاهرة ، ١٣٨١هـ — ١٩٦١م (جزآن)
الكامل : على بن أبى الكرام (ابن الاثير) القاهرة ١٣٤٨هـ
كشاف اصطلاحات الفنون : التهانوى . كلكته ١٨٦٢ (جـ ١)
كشف الظنون : حاجى خليفه استانبول ١٣٦٢هـ — ١٩٤٣م (جزآن)
اللمع : أبو نصر السراج الطوسى (طبع عبد الحليم محمود) . القاهرة ، ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م
مختصر شرح الجامع الصغير : المناوى . القاهرة ، ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م ، (جزآن)

مروج الذهب : ابو الحسن على بن الحسين المسعودى . القاهرة ، ١٣٤٦هـ (جــزآن)
المعارف : ابن قتيبة الدينورى. القاهرة ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .
معجم البلدان : ياقوت الحموى . طهران ، ١٩٦٥م (ج ١ — ٤ ، ٦)
الملامتية والصــوفية وأهل الفتوة : تحقيق ابى العلا عفيفى . القاهرة ، ١٣٦٤هـ — ١٩٤٥م .
مناهج العلماء المسلمين فى البحث العــلمى : فرانتز روزنتال ، ترجمة انيس فريحه . بيروت ، ١٩٦١ .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم : ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . حيدر آباد ١٣٥٨هـ (ج ٢ ، ٧ — ٩)
هدية العارفين : اسماعيل البغدادى . استانبول ، ١٩٥١ (ج ١)
وفيات الأعيان : ابن خلكان . القاهرة ، (بدون تاريخ) (جزآن)

(ب) المراجع الفارسيــة

أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ ابى سعيد : محمد بن المنور . طهران ، ١٣٣٢ هـ.ش.
تاريخ ادبيات در ايران : ذبيح الله صفا . طهران ، ١٣٤٢هـ.ش. (جزآن)
تاريخ ادبيات فارسى : هرمان آيته ، ترجمة رضا زاده شفق . طهران ، ١٣٣٧هـ — ١٩٥٨م .
تاريخ تصوف دار اسلام : قاسم غنى . طهران ، ١٣٢٢هـ ش .
تذكرة الأوليــاء : فريد الدين العطار ، نشر نيكلسون . ليدن ، ١٣٢٢هـ — ١٩٠٥م (جزآن)
جامع التواريخ : رشيد الدين فضل الله . انقره ، ١٩٥٧ (مج ٢ ج ٤)
جهار مقاله : نظامى عروضى سمر قندى . ليدن ، ١٣٢٧هـ — ١٩٠٩م
خزينه الاصفاء : مفتى غلام سرور . لاهور ، ١٩١٤ (جزآن)
ديوان ابو سعيد ابو الخير : (جمع سعيد نفيسى) طهران ، ١٣٣٤هـ.ش .
زين الاخبــار : ابو سعيد عبد الحى بن الضحاك الكرديزى . طهران ، ١٣١٥هـ.ش .
سبك شناسى : محمد تقى بهار . طهران ، ١٣٢١ هـ.ش . (ج ٢)
سفينة الأولياء : محمد دارا شكوه . لكهنو ، ١٢٩٥هـ — ١٨٧٨م .
سلطنت غزنويان : خليلى . كابل ، ١٣٣٣ هـ.ش .
شعر العجم : شبلى النعمان ، ترجمة محمد تقى فخرداعى كيلانى . طهران ، ١٣١٦ هـ.ش . (ج ١)

طبقات ناصرى : منهاج السراج . كابل ، ١٣٤٢ هـ.ش .
طرائق الحقائق : معصو معليشاه . طهران ، ١٣١٨ هـ.ش. (ج ٢)
فهرست كتابهاى جابى فارسى : خنبا بامشار . طهران ، ١٣٣٧هـ (جزآن)
كشف المحجوب : على بن عثمان الهجويرى . طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش .
نفحات الأنس : عبد الرحمن احمد الجامى . طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش.

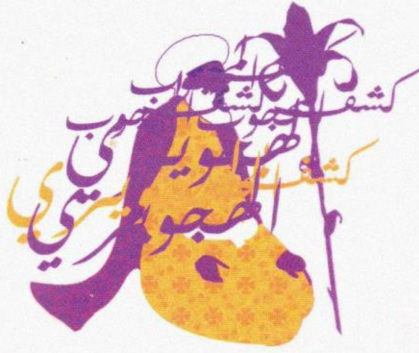
* * *

تذكرة حضرت على هجويرى : حكيم سيد امين الدين احمد (اردو) لاهور ، ١٩٦٠ .
« بزم شوق » نشرية ماهيانه ادبى وفرهنكى : اكادمى فارسى ، كراجى . نوفمبر ١٩٦٣ .
(هلال) مجلة ادبى وفرهنكى . كراجى : شماره سوم ارديبهشت ١٣٣٢ هـ.ش جلد بنجم شماره اخردادماه ١٣٣٦ هـ.ش .

* * *

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى
الإشراف الفنـى : حســـــن كـامــــل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



هذا الكتاب من أقدم الكتب الفارسية وأهمها فى مجال التصوف الإسلامى ، وهو يضاهى الرسالة القشيرية ، والتعرف إلى التصوف فى اللغة العربية .

وقد أفاد منه كل من فريد الدين العطار فى كتابه "تذكرة الأولياء"، وعبد الرحمن الجامى فى كتابه "نفحات الأنس". ويعد كتاب "كشف المحجوب" تذكرة مهمة جمعت تواريخ مشايخ التصوف وأحوال الأصفياء والأولياء وأقوالهم؛ مما يجعل هذا الكتاب لا غنى عنه فى المكتبة الإسلامية سواء فى لغته الفارسية أو فى ترجمته العربية .

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى